

# أدب المقالة الصحفية

المكتبات  
أنجمنه انساني

تأليف

دكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة  
كلية الآداب - جامعة القاهرة

---

الطبعة الثالثة مزيده ومنقحة

---

مكتبة المطبع والنشر  
دار الفكر العربي

١٩٦٥

.

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ الْمُنَّةَاةُ  
سازع الجبش - كنيسة الأرمنا

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

في الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب ، أذكر أني تحدثت إلى القراء عن نشأة الرأي العام في مصر ، ثم عن نشأة الصحافة بها . ثم عن الحركة الفكرية المصرية منذ بداية القرن التاسع عشر ، ثم عن تطور الأساليب الكتابية العربية منذ بدايتها إلى ذلك القرن ، متخذاً من الفصول الأربعة السابقة تمهيداً للحديث عن المدرسة الصحفية الأولى في مصر وعلى رأس هذه المدرسة دفاة رافع الطمطاوى . وقد أفضى بنا البحث إلى أن تلك المدرسة الصحفية في مصر كن قصارها أن حاولت إنشاء ما يسمى « بالمقال الصحفي » .

ذلك أنها كانت مقيدة في هذه المحاولة بقيود كثيرة ، كان معظمها نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي اكتشفت رجال تلك المدرسة .

وحسبنا أن نشير من الظروف السياسية إلى واحد فقط ، ونعني به الظروف الذي قضى على الصحافة المصرية أن تكون في أول أمرها من وحي الولاية والحكام ، وأن تولد في حجورهم ، وتعيش بأموالهم ، وتنقذ بأفكارهم ، ولا تكاد تتحدث إلا بأسئتهم ، بل لا تكاد تعبر إلا عن رأيهم وبقيت الصحافة المصرية رسمية على هذا النحو ، حتى ظهرت إلى جانبها صحافة أخرى هي الصحافة الشعبية وحتى هذه الأخيرة لم تكن في أول أمرها إلا صورة دقيقة من الصحافة الرسمية التي نتحدث عنها .

ثم حسبنا كذلك أن نشير من الظروف الاجتماعية والفكرية إلى واحد فقط ، ونعني به الجهل ، الذي خيم على مصر طوال الحكم العثماني ، وجعل

في سمائها سحباً كثيفة داكنة مظلمة ، يركب بعضها فوق بعض ، فتعجب النور عن أهل مصر ، فلا يصل منه قبس إلى عقولهم ، وتذود عنهم الدفء ، فلا سبيل إلى أن تستمتع به أجسامهم ولقد ظل المصريون على هذه الحال السيئة من الحرمان ، حتى أنت الحملة الفرنسية ، وأتى محمد علي ، وكان لهذين الفضل في لإنهاض المصريين من سيئاتهم ، ثم في الأخذ بيدهم إلى السير في ركب الحضارة الحديثة والعالم الحديثة ، وذلك هو السبب الذي من أجله قضى المصريون ، حكماً ومحكومين ، أكثر من نصف القرن الماضي في شيء واحد فقط ، « محاربة الجهل » ، واشترك كثيرون في هذه الحرب التي شلتها مصر يومئذ على ذلك العدو ؛ فمنهم الولاة بأموالهم وسلطانهم وتوجيهاتهم ، ومنهم طوائف الشعب على اختلافهم ، وذلك بدافع من الوعي القومي الذي نما نمواً كبيراً في بلادهم . ثم منهم رجال الصحافة الذين جرفهم تيار التعليم والثقافة ، فكادت تنحصر جهودهم في هذه السبيل الأخيرة ، وجاءت أكثر الصحف التي أصدرتها المدرسة الصحفية الأولى مشحونة بالفصول العلمية والأدبية ، مترجمة عن الكتب الأجنبية حيناً ، ومأخوذة من الكتب العربية القديمة حيناً ، ومؤلفة بقصد أن يتكون منها كتاب في العلم أو الأدب في نهاية الأمر .

تلك إذن بعض القيود التي تقيدت بها المدرسة الصحفية الأولى في مصر ، وتلك إشارة موجزة إلى بعض الظروف التي كانت هذه القيود من نتائجها في ذلك الظرف وهكذا كانت صبغة المدرسة الأولى علمية أدبية ، أكثر منها سياسية واجتماعية . وذلك من حيث الموضوع .

أما من حيث الأسلوب فقد كان رجال تلك المدرسة مقيدون كذلك بقيود الماضي الغريب ، حين كان النثر العربي يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع ، التي قتن بها أدياء العربية منذ القرن الرابع الهجري . غير أن البديع أو الزينة اللفظية لا تحسنان — كما أشرت إلى ذلك في موضعه من الجزء الأول من هذا الكتاب — إلا مع ثقافة واسعة ، وذوق في اللغة رفيع ، وحسن في الأدب دقيق ، وهو ما حرمت مصر أكثره طوال القرن الثامن عشر . ومن ثم ورث الصحفيون في القرن الماضي لونا باهتا من ألوان النثر العربي ، لم يكن خليقاً بأن يحتذى ،

ولا كان جديراً بأن ينسج على منواله . ومع ذلك فقد مضى رجال المدرسة الأولى يكتبون صحفهم بطريقة لا تبعث كثيراً عن هذه الطريقة ، ولا تسكاد تتحرر منها إلا في أوقات قليلة ، حتى جاء الوقت الذى سئموا فيه السجع ، وزهدوا فيه البديع وكان ذلك إيذاناً بمجيء المدرسة الصحفية الثانية . وهى المدرسة التى نعمت بقسط من الحرية فى الموضوع ومن الحرية فى الأسلوب ، ليس شك فى أنه كبير بالقياس إلى القسط الذى نعمت به المدرسة التى سبقتها إلى الوجود .

وإئن كانت المدرسة الأولى للصحافة فى مصر تجاهد فى ظلام حالك ، ولم يكن أمامها مثل واضح يحتذى فى الكتابة أو الصحافة ، لقد كانت الثانية تشق طريقها فى شيء من النور الخفيف الذى يشبه نور الفجر ، وكان أمامها مثل — إن لم يكن كامل الوضع — فهو كاف لأن يهذى القوم سواء السبيل .

وإئن كان رجال المدرسة الأولى يمثلون من الصحافة دور الطفولة ، لقد كان رجال المدرسة الثانية يمثلون من الصحافة دور الغلومة ، أو قل إنهم تجاوزوا هذه الغلومة إلى حيث قطعوا بالصحافة أول مرحلة من مراحل الشباب .

وإئن كانت المدرسة الأولى قريبة عهد بالعلوم الحديثة ، والأخذ بنصيب من الثقافة الأوروبية الجديدة ؛ بحيث قصروا جهودهم ، أو كادوا يقصرونها على نقل هذه الثقافة . لقد كانت المدرسة الثانية قد تخففت نوعاً ما من هذا الجهد ، وحطت عن كاهلها بعض هذا العبء ، والتفتت إلى لون آخر من ألوان الجهاد القومى ، ونزلت ميادين أخرى من ميادين الإصلاح ، ونعنى به الإصلاح الاجتماعى والإصلاح السياسى ، والإصلاح اللغوى .

وأخيراً — إن كانت المدرسة الأولى تحاول إنشاء المقال الصحفى ، وتجهد عسراً شديداً ومشقة كبيرة فى هذه المحاولة ، لقد كانت المدرسة الثانية قادرة على إنشاء المقال ، باللغة منه ما أريد به .

ومهما يكن من شيء ، فقد أبلى رجال المدرسة الصحفية الأولى فى مصر بلاء حسناً فى نشر الثقافة ، والتمكين لها ، ثم فى إنشاء الصحف ، واقتناع الناس بها ، ثم فى محاولة إنشاء المقال الصحفى بالطريقة التى أملها جو العصر

من جهة ، والإسلوب الأدبي الذى كان من وحي ماضيهم وحاضرهم معاً من جهة ثانية .

ألا ما أعظم الجهد الذى بذله الرعيل الأول فى ميدان الصحافة المصرية ، وما أجل خطر المهمة التى ألقى على عاتقه ، وما أعظم الواجب الذى قام به هذا الرعيل نحو الوطن ، حتى خطا خطوات سريعة إلى نهضة شملته من جميع جوانبه .

ومضى عهد المدرسة الأولى حميداً فى مصر على هذا الوجه ، وأتى بعده عهد المدرسة الثانية ، فوجدنا المقالة الصحفية بالمعنى الصحيح تولد على أيدى رجالها ، ويتمتع القراء فى مصر والشرق بطائفة من المقالات السياسية حيناً ، والاجتماعية حيناً آخر ، وإذا بإعلام هذه المدرسة لهم قدرة على أداء هذه المعانى فى أدق صورها ، وأجل مناظرها وأيسر طرقها . أو قريبها إلى أذهان الخاصة والعامة على السواء .

ألا ما أعظم الوثبة التى وثبها الرعيل الثانى فى ميدان الصحافة المصرية ، وما أسرع الخطا التى خطاها بالمقال الصحفي ، فى موضوعه وفى أسلوبه وفى وقت معاً .

واعنى كل ذلك ، وملأ نفسى إعجاباً ، وقلبي غبطة وسروراً ، ، فكتبت هذا الجزء الثانى فى الحديث عن ثلاثة فقط من رجال هذا الرعيل ؛ وهم أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم . ولا شك فى أن هؤلاء الثلاثة أيسوا إلا أمثلة فقط لكتاب المدرسة الثانية ، وإن شئت فقل لأنهم زعماء هذه المدرسة التى نعلت غيرهم ، ممن لم يتسع الكتاب لذكرهم ، والإشادة بالجهد الصحفي الذى بذلوه فى تلك المرحلة .

وفى ترجمتى لحياة أولئك الثلاثة الكتاب ، انتفعت بطائفة ، من الكتب الحديثة والتراجم الخاصة ، ومنها ترجمة عوفى إسحاق لأخيه أديب إسحاق و ترجمة أحمد سمير لصديقه عبد الله النديم ، و ترجمة رشيد رضا لشيخه محمد عبده . ثم كتاب « زعماء الإصلاح » لأستاذى الكبير أحمد بك ، أمين .

أما أساليب أولئك الثلاثة الكتاب . ودراستها ونقدها وتحليلها وما يتصل

بذلك من أبحاث غايتها استخلاص الطابع الصحفي للمقال . وشرح المنهج الصحفي لكل واحد من أولئك الكتاب وبمجموعى الخاص . الذى أعتقد - فى حدود علمى - أنى لم أسبق إليه

وأنا إذ أقدم هذا الجزء إلى القراء أرجو أن يتنفع به طلبة الجامعة عامة . وقسم التحرير والترجمة والصحافة خاصة . والمتصلون بالصحافة نفسها اتصال حرفة ، أو اتصال بحث وعلم على وجه أخص .

وقد عزمنا على أن نخصى فى الكتابة عن رجال الصحافة طبقة بعد طبقة ، ورعيلا بعد رعيلا . حتى نصل إلى الصحفيين الذين نعيش معهم فى هذا العصر .

والله تعالى نسال أن يوفقنا إلى هذه الغاية ويهدينا سواء السبيل ؟

مصر الجديدة فى فبراير سنة ١٩٦٥

عبد اللطيف حمزة





## الفصل الأول

### ظروف عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية

واجهت الصحافة العربية في مصر في النصف الثاني من القرن الماضي ظروفًا مخالفة لبعض الشيء للظروف التي واجهتها في النصف الأول وهي ظروف أوجبت على الصحافة أن تجول جولات واسعة في ميدان الإصلاح الاجتماعي وميدان الإصلاح الأدبي أو اللغوي ، وميدان الإصلاح السياسي آخر الأمر ، على حين كانت في النصف الأول من القرن الماضي تسكاد تنحصر جهودها كما قلنا في الميدان الثقافي وحده قبل كل شيء . وبعبارة أخرى في نقل الثقافة الأوروبية إلى اللغة العربية من جهة ، ونشر الكتب القديمة المعروفة في الأدب العربي من جهة ثانية .

وإذ أمعنا النظر في هذا النشاط الكبير الذي استغرق جهود المصريين في النصف الثاني من القرن الماضي وجدناه موزعا في الواقع على حركات ثلاث وهي :

- ١ - حركة التنوير .
- ٢ - حركة الدستور .
- ٣ - حركة المقاومة .

### حركة التنوير

فأما حركة التنوير فنحن نعلم أنها بدأت بمجيء الحملة الفرنسية ، ثم بظهور محمد علي وعنايته بنشر التعليم الحديث ، وجذب المصريين إلى الثقافة الأوروبية كما سبق أن شرحنا وذلك في الجزء الأول من كتاب ( أدب المقالة الصحفية ) .

غير أن أسبابا أخرى جدت في النصف الثاني من القرن الماضي وكان من شأنها تقوية هذه الحركة والمضي بها أشواطًا بعيدة المدى . وأهم هذه الأسباب الجديدة مايلي :

أولاً - بقاء المصريين على إصرارهم القديم على التمسك باللغة العربية وإشارتها بالاستعمال على اللغة التركية وذلك في الصحافة والتعليم والتأليف في الدواوين الحكومية المختلفة

أجل - إن هذا الاتجاه نحو اللغة العربية والتعصب لها على هذا النحو كان مسيراً للنهضة المصرية منذ بدايتها إلى نهايتها . وكان هذا الاتجاه من اتجاهات النهضة مؤيداً من المجالس النيابية أو شبه النيابية في مصر تأييداً تاماً وذلك منذ طالبت هذه المجالس بضرورة استخدام العربية في شئون التعليم . وكان قد ظهر منافس جديد للغة العربية منذ الاحتلال البريطاني . وهذا المنافس الجديد هو اللغة الإنجليزية فأصر النواب على أن تحمل اللغة العربية محل هذه اللغة الإنجليزية في جميع مراحل التعليم ولقي المشروع صهوبات جممة . ولكن النواب ورجال الصحف تطلبوا عليها في النهاية على نحو ما هو معروف في التاريخ .

ثانياً - كان من تلك الأسباب التي جددت في النصف الثاني من القرن الماضي وأصبح لها أعقق الأثر في تقوية حركة التنوير مجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر وإقامته فيها بين سنتي ١٨٧١ - ١٨٧٩ ييذر فيها بذور الحرية ، وبشجع المصريين والشرقيين على اليقظة الفكرية واليقظة السياسية . وجمع حوله الشباب العربي على هذه الفكرة . وكان من هؤلاء على سبيل المثال : أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، وإبراهيم المويلحي ، وسفي اللقاني ، وسعد زغلول ، وغيرهم كثيرون .

ثالثاً - ولعل من أقوى الأسباب التي ساعدت على تنمية حركة التنوير أن حركة الترجمة التي بدأت منذ أيام محمد علي واستمرت إلى أيام إسماعيل كانت قد أثمرت وأينعت وبدأت آثارها قوية في الدوائر الثقافية وفي نمو العقل العربي المجديد وهو العقل الذي وجدناه يدين بجزء كبير من تكوينه ونشاطه إلى التيار الأوروبي ممثلاً في ذلك السبيل الضخم من المكتب المترجمة في شتى العلوم المختلفة التي احتاجت إليها النهضة المصرية على النحو الذي فصلنا فيه القول في الجزء الأول من كتابنا ( أدب المقالة الصحفية ) .

رابهاً - ثم من الأسباب التي عادت بالخير على حركة التنوير نهضة الأزهر الشريف أو شعور الأزهرين في تلك الفترة من تاريخ مصر بأن عليهم واجباً هاماً نحو الثقافة الشرقية أو العربية حتى تقف على قدميها بجوار الثقافة الأوروبية . وكان الأزهر إذ ذاك يتأثر تأثراً عميقاً بالنقد الشديد الذي كان يصدر من أحد أبنائه - وهو الشيخ محمد عبده . ولهذا الأخير جهود مشكورة في نشر التراث العربي الإسلامي والعناية بطبع الكتب القديمة التي هي أمهات الأدب العربي . وحذا حذو الشيخ محمد عبده في ذلك عدد كبير من الذين تلقوا دلوهم في الأزهر الشريف وتألفت لذلك جمعيات أدبية كثيرة لهذا الغرض ونحن نعلم أن الحكومة المصرية شاركت من جانبها في هذا المشروع وذلك منذ عهدنا بشيخ الصحافة المصرية رفاعة رافع الطهطاوى وتلاميذه من بعده .

خامساً - من أسباب تقدم هذه الحركة وهي حركة التنوير استمرار تدفق السوريين إلى مصر وعنايتهم إذ ذاك بالصحافة والأدب وبالمسرح وبالقصة المترجمة والقصة المؤلفة . والذي لا شك فيه أن جهود السوريين نجحت نجاحاً كبيراً في تنوير الذهن المصري ، وكانت في ذاتها مشاركة قوية في بناء الثقافة العربية .

سادساً - في ذلك الوقت كانت الحرب الروسية التركية قائمة ( سنة ١٨٧٧ ) وكانت هذه الحرب - كما قلنا في الجزء الأول من أدب المقالة الصحفية - حجر الزاوية من النشاط الذي بدا من جانب الصحافة المصرية ، فقد انقسم الصحفيون المصريون وقتئذ فرقتين :

فريق يؤيد الأتراك ضد الروس .

وفريق يؤيد الروس ضد الأتراك

وبسطت الحكومة المصرية الحبل للصحافة في هذا المجال لأول مرة في حياتها . وكان ذلك من دواعي ظهور ما يسمى بالرأى العام في مصر وظهر فيها لأول مرة على هذا النحو .

غير أن الاتجاه العام من جانب الصحف الوطنية إذ ذاك كان ضد قيام الحرب

من حيث هي . وكان يهدف إلى إشاعة الكراهية لها أو الترويج لدعاتها . وجاءت مقالات أديب إسحق معبرة عن هذه الكراهية ، فقدم السكائب للحرب صورة منفرة ؛ كتبها على طريقة الأدباء ، ولم يكتبها على طريقة السياسة ، ومن ثم جاءت هذه المقالات وهي لوحة فنية لا تقل في كمالها الفني عن أروع قصيدة من قصائد الحرب نظمها شاعر من أكبر شعراء العربية كافي تمام أو المتنبى وغيرهما .

هذه عوامل قليلة من أخرى كثيرة أفضت إلى التحول الصحي من المدرسة الأولى إلى المدرسة الثانية ، كما أفضت إلى ازدهار حركة التنوير ، وكان لها فضل عظيم في الانتقال بالمصريين من مجرد الاكتفاء بالثقافة العربية إلى التطلع إلى المزج بين الثقافتين العربية والأوربية ، وقد كان تلاميذ المدرسة الصحفية الثانية في مصر من دعاة هذا التحول ، وثمر من ثمراته في مصر والعالم العربي .

## حركة الدستور

أما عن حركة الدستور فخلاصة القول فيها أننا نجد الحياة النيابية في مصر تتمخض عن دساتير ومجالس نيابية أو شبه نيابية على النحو التالي :

أولاً — مجلس شورى النواب ( ١٨٦٦ — ١٨٧٩ ) وهو المجلس الذي أنشأه إسماعيل .

ثانياً — المجلس الذي تمخضت عنه الثورة العربية ولو أنه لم يدم أكثر من أربعة شهور ( من ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ إلى ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٢ ) . ثم أتى بعده الاحتلال البريطاني .

ثالثاً — مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ( ١٨٨٣ — ١٩١٢ ) وهو النظام الذي اقترحه الاحتلال البريطاني .

رابعاً — الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ وهي الجمعية التي توقفت عن العمل بنشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

خامساً — مجلس النواب المصرى سنة ١٩٢٤ وهو المجلس الذى كان ثمرة من ثمرات الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ .

فإذا نحن أغفينا النظر عن المجلسين اللذين لم يدوما طويلا وهما مجلس الثورة العرابية من جهة والجمعية التشريعية من جهة — قلنا إن الحياة النيابية فى مصر خضعت لأطوار ثلاثة تمثلها مجالس ثلاثة وهى :

١ — مجلس شورى النواب

٢ — مجلس شورى القوانين

٣ — ومجلس النواب المصرى .

فأما المجلس الأول فكان رأيه استشارياً محضاً . وبالرغم من ذلك ظهرت فيه المعارضة شيئاً فشيئاً حتى بلغت غايتها فى وزارة رياض باشا منذ اصطدم بذاتيين جريئين هما محمد رضى وعبد السلام المويلحى ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الجزء الأول من أدب المقالة الصحفية .

وأما المجلس الثانى — وهو مجلس شورى القوانين — فكان أعضاؤه يتألفون من عنصرين متعارضين كل التعارض وهما :

العنصر التركى أو الشركسى ومنه يتألف حزب السراى ، والعنصر الوطنى وقوامه الأعيان وأصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد ، ومعهم المثقفون فى الأمة . وقد تألف من العنصر الأخير حزب أطلق على نفسه ( حزب الفلاحين ) تمييزاً له عن حزب السراى أو حزب الأتراك أو حزب الشراكسة . وكان الخلاف شديداً بين الحزبين . وكان لهذا الخلاف نتائج فى غاية الخطورة على البلاد ، وسنعود إلى الحديث عن بعض هذه النتائج عند الكلام عن حركة المقاومة .

ولانستطيع أن ندع الكلام عن حركة الدستور دون أن نشير إلى الانتصارات الباهرة التى أحرزها النواب المصريون فى داخل هذا المجلس الأخير ، برغم الظروف العصيبة التى أحاطت بأولئك الأعضاء ، والضغط الشديد الذى عانوه من قبل حكامهم الشرعيين من ناحية ، ورجال الاحتلال البريطانى من أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد من ناحية ثانية .

ومن هذه الانصارات على سبيل المثال ما يقترن بشخصية الأستاذ الشيخ محمد عبده فقد كان له أثر في مجلس شورى القوانين ، وذلك منذ دخل هذا المجلس في يونية سنة ١٨٩٩ ، ومنذ صار عضواً بارزاً في كل لجنة من لجانه وحركة من حركاته . وكان الشيخ محمد عبده يبنى سياسته دائماً على الوقوف موقفاً وسطاً بين الحكومة المصرية والاحتلال البريطانى ، وذلك في كل خلاف يقع بينهما حول مسألة من المسائل الهامة . على أن الشيخ لم يدخسر وسعاً كذلك في بث روح المسؤولية والكرامة في نفوس الأعضاء فيما يتصل بالمصلحة العامة (١) .

## حركة المقاومة

ونتظر كذلك في هذه الحركة الأخيرة فنجد أنها مرت في طورين كبيرين لا يعيننا منهما الآن إلا الطور الأول ، وهذان الطوران هما :

١ - طور التخلص من النفوذ التركى .

٢ - طور التخلص من النفوذ الأوروبى .

والذى لا شك فيه أن جميع حركات المقاومة التى ظهرت في مصر في طور التخلص من النفوذ التركى إنما صدرت عن ( حزب الفلاحين ) وهو الحزب الذى أطلق على نفسه أسماء أخرى منها ( الحزب المصرى ) و ( الحزب الوطنى ) وهو غير ( الحزب الوطنى ) المنسوب إلى مصطفى كامل ، وظهرت معه الأحزاب المصرية الأخرى بين عامى ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ .

من ذلك الحزب الذى أطلق على نفسه ( حزب الفلاحين ) نبعثت جمعيات سرية كثيرة منها :

---

(١) عبد اللطيف حمزة : أجواء فكرية وسياسية عاش فيها الأدب الحديث والصحافة المصرية . بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة : الجزء الثانى ، المجلد السادس عشر بتاريخ ديسمبر سنة ١٩٥٤ .

١ - الجمعية السرية لضباط المصريين سنة ١٨٦٧ .

٢ - جمعية مصر الفتاة التي ظهرت بمدينة الإسكندرية سنة ١٨٧٩ .

والأولى من هاتين الجمعيتين تسمت باسم ( الحزب الوطنى ) . وكانت الحزب  
عوانا بين هذين الحزبين الكبيرين أو التيارين المتنازعين وهما :

حزب السراى أو الشراكسة من جانب ، وحزب الفلاحين أو الحزب المصرى  
من جانب آخر . كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وانظر إلى عبارة وردت فى تقرير أحمد عرابى تعليقا منه على الحادث الذى وقع  
فى الحادى عشر من شهر يونية سنة ١٨٨١ وكان مقدمة من مقدمات الثورة العرابية  
وفىها يقول : (إن حزب السراى المكون من الأتراك والشراكسة عدو للإنسانية .  
فهم يعتقدون أن الله القدير لم يخلق المصريين إلا ليكونوا عبيداً لهم وخدامهم  
الذين يتخذونهم آلهة لشر سلطانهم المطلق وهم فى كل ذلك يعاملونهم بكل قسوة  
واحتقار حتى رأوا أن مجهودات الحزب المصرى بدأت تؤتى ثمارها ، وأن فريقا  
نابها من هؤلاء الذين كانوا يظنونهم عبيداً لهم قد خطوا خطوات شاسعة إلى  
الأمم ، وأصبح منهم وزراء يجلسون معهم على قدم المساواة فى مجالسهم المقدسة  
... الخ ) (١) .

\* \* \*

تلك إشارة عابرة إلى بعض الظروف التى عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية .  
وهى المدرسة التى كان من تلاميذها أديب لإسحق ، ومحمد عبده ، وعبدالله النديم ،  
ولإبراهيم المولىلى .

ومن هنا وجدنا صحافة هذه الطبقة تخوض فى موضوعات اجتماعية ولغوية  
وسياسية . منها على سبيل المثال :

---

(١) عبد اللطيف حمزة : العقدة المركزية عند مدرسة الشيخ محمد عبده وأثرها فى صحافة  
هذه المدرسة ، بحث مستخرج من مجلة كليه الآداب جامعة القاهرة المجلد الثامن عشر الجزء  
الأول بتاريخ مايو سنة ١٩٥٦ هـ عن التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر (لستر بلانت)  
الترجمة العربية ص ٣٧٨ .

موضوع الخلاف بين الباب العالي والحديو إسماعيل ، وموضوع الدستور والمجالس النيابية أو شبه النيابية في مصر ، وموضوع إصلاح اللغة العربية والسير بها إلى الدرجة التي تستطيع فيها مواجهة المطالب الحضارية الجديدة ، وموضوع الثقافة الأوروبية والمنافسة التي بينها وبين الثقافة الشرقية ، وموضوع التبشير والمبشرين المسيحيين ، وهذا كله فضلا عن الموضوعات الاجتماعية الكثيرة التي أثارها الصحفيون وكان لها أكبر الأثر على الأدب المصرى والفكر المصرى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين .

شهدت الصحافة المصرية على يد المدرسة الثانية كل هذه الظروف . وكان وجهاً لوجه كذلك أمام التدخل الأجنبى الذى ظهر بأشكال كثيرة من أهمها الوزارة الأوروبية . ومعناها فى التاريخ المصرى الحديث اشتراك عضوين أوروبيين فى الوزارة المصرية ، أحدهما فرنسى والآخر إنجليزى ، ومن أهم أشكال هذا التدخل كذلك منافسة العناصر الشركسية للعناصر الوطنية فى الجيش ، وفى وظائف الحكومة ، وفى المجالس النيابية كما قدمنا . فامتلات قلوب المصريين شعوراً بالكرهية الشديدة لمولاء الأتراك الشراكسة الذين ظفروا بثقة الحاكم الشرعى ثم نهضوا فى إيفاء صده ضد الوطنين . وكان ذلك سبباً من أهم أسباب الثورة العرابية التى قامت تطالب بحقوق المصريين فى مناصب الجيش . كما قامت هذه الثورة لغرض أهم من الغرض الأول ؛ وهو هنا المطالبة بدستور سليم يكون على غرار الدساتير الأوروبية الحديثة ، ومن ثم ذهب التاريخ إلا أن الثورة العرابية ثورة دستورية فى جوهرها .

وأخيراً شهدت صحافة المدرسة الثانية التى تؤرخ لها فى هذا الكتاب فى أواخر عهدها بداية الاحتلال البريطانى نتيجة لفشل عرابى فتشرد كثيرون من رجال هذه الطبقة كما تشرد الكثيرون من رجال الثورة العرابية ذاتها . واختفى الزعماء الصحفيون فترة من الميدان ، هى الفترة التى أصيبت فيها النهضة المصرية والأقلام المصرية والصحافة المصرية بشلل مؤقت لم يكبد يزيد عن عشر سنوات عادت بعدها هذه الأقلام إلى الظهور من جديد لتقود حركة صحفية كبيرة بدت فى نهاية المدرسة الصحفية التى تؤرخ لها هذا الكتاب . ولكنها بلغت أقصى قوتها على أيدي



المدرسة الثالثة من مدارس الصحافة في مصر . وهي المدرسة التي كان من أعلامها السيد علي يوسف صاحب المؤيد ، والزعيم الشاب مصطفى كامل صاحب اللواء والاستاذ أحمد لطفي السيد محرر « الجريدة » .

\* \* \*

( وبعد ) فأود أن أختم هذا الفصل بما بدأت به ، وهو الطابع العام لصحافة المدرسة الثانية في مصر ؛ فأقول إنه الطابع الاجتماعي لا الثقافي أو السياسي

وتفسير ذلك بإيجاز أنه إذا كانت المدرسة الصحفية الأولى في مصر تمتاز بالطابع الثقافي البحث . وكانت المدرسة الصحفية الثالثة في مصر تمتاز بالطابع السياسي ، فإن المدرسة الصحفية الثانية التي تؤرخ لها هذا الكتاب تمتاز بالطابع الاجتماعي .

فهذا أديب إسحق - من تلاميذ هذه الطبقة - يعلم الناس معاني الحرية والوطن والوطنية ، ويصبح بذلك حلقة الاتصال بين المدرسة الأولى والمدرسة الثانية .

ثم هذا هو الشيخ محمد عبده يقيم من نفسه مصلحاً اجتماعياً لبلاده مصر ؛ حتى إذا نفي إلى باريس والتقى فيها بالسيد جمال الدين الأفغاني انقلب مصلحاً اجتماعياً للعالم الإسلامي كله .

ثم هذا هو السيد عبد الله النديم يصدر جريدته ( التسيكيت والتبكيكيت ) لغرض أساسي هو الإصلاح الاجتماعي .

ثم هذا هو إبراهيم المويلحي من رجال هذه الطبقة الثانية من طبقات الصحفيين في مصر يسلك نفس السبيل ، وينادي بإصلاح الأزهر من جانب ، وإصلاح المجتمع المصري الذي خضع لتيارات أوربية جديدة من جانب آخر .

وهكذا غمرت موجة الإصلاح الاجتماعي جميع الصحف المصرية التي صدرت في تلك الفترة وكانت صدى لاحتياجات الشعب المصري بعد إذ تم تحوله إلى الحالة الجديدة التي وجد نفسه فيها غاضباً لتأثيرات الحضارة الأوربية يصالحها حيناً ، ويخاصمها حيناً ، ثم يعقد الصلح النهائي بينهما في نهاية الأمر .

( ٢٠ - أدب المقالة ج ٢ )

## الفصل الثاني

### حياة أديب إسحاق

( ١٨٥٦ - ١٨٨٥ )

لم تكن في مصر أو الشرق جامعات في القرن الماضي - وذلك باستثناء الجامعة الأزهرية - وكانت هذه الأخيرة من الركود على نحو ما وصفنا في الجزء الأول من هذه السلسلة . ومع ذلك فقد يعجب الباحث من أولئك الكتاب الذين أنجبهم الشرق العربي في ذلك القرن ، كيف نشئوا أنفسهم هذه النهضة الأدبية القوية . بل كيف كشف لهم في أنفسهم عن تلك المواهب ، التي انتفع بها الشرق العربي في أنسب وقت لهذا الانتفاع .

وهذا قتي من فتيان تلك الحلبة ( وهو أديب إسحاق ) ، ولد بدمشق عام ١٨٥٦ للميلاد ، ثم أدخله أبوه مدرسة الآباء العازارين ، حيث تلقى مبادئ اللغتين العربية والفرنسية ، وفي تلك السن المبكرة التي لم تنس بعد عهد الفطام يلفت الطفل نظر أستاذه في اللغة العربية ، حتى يقول أستاذه لأبيه يوماً ما : « إن ابنك هذا سيكون قوياً » ، يريد شاعراً ، لكثرة ما كان يرد من كلام هذا الصبي مسجوعاً عفواً الفريحة . ثم سرعان ما حقق الطفل نبوءة أستاذه ، فتعلق بالشعر ، ونظم القصائد وهو بعد لم يتجاوز العاشرة من عمره .

وقيل أن أسرة الطفل تعرضت بعد ذلك للتعطل ، واحتاجت يومئذ إلى معونة هذا الصبي . فالتحق وهو في الحادية عشرة من عمره بخدمة « الجرك » . وكان راتبه إذ ذاك لا يزيد على مائتي قرش .

فهل كان اضطلاع الصبي بتبعات أسرته في تلك السن المبكرة ، سبباً في حدة المزاج التي وصف بها فيما بعد ؟ أم كانت هذه في مزاجه طبيعة فيه ولدت معه ؟ لست أدري .

مهما يكن من شيء ، فإن هذا العمل الذي اشتغل به الصبي لم يكن يشغله عن صوغ الشعر ، وعمل الموشحات ، ونحو ذلك من الجهود الأدبية التي كان يملأ بها وقت فراغه .

ثم عرض لوالده بعد ذلك السفر إلى بيروت ، والاشتغال بخدمة « البوسطة العثمانية » ، وهناك استدعى الوالد ابنه ليلحق به ويعينه في عمله ، فسافر الصبي في الخامسة عشرة من عمره إلى بيروت ، لتنفيذ لأمر والده ، وهناك تعرف هذا الصبي الشاعر بطائفة من رجال الأدب ، وكانت له معهم مطارحات ومراسلات شعرية .

واشتهر أمر الفتى في بيروت . ولفت إليه أنظار الناس هناك ، ثم نزعته به نازعة العلاء إلى الاشتغال بفتح الكتابة ، فتولى تحرير جريدة التقدم . وذلك بعد نشأتها بزمان قليل ، وجدد في هذه الجريدة ، وملأها بكثير من فصوله الأدبية ، التي كان لها أكبر الأثر في ترويض قلبه ، وإعداده للجهاد الصحفي الذي كان ينتظره في حياته المستقبلية . ثم لم يكتف الفتى بذلك حتى سمع نفسه في بيروت إلى المشاركة في التأليف الأدبي ، كما سذكر ذلك فيما بعد . ولم تلبث بعد ذلك أن رأينا هذا الفتى عضواً عاملاً في جماعة « زهرة الآداب » ، وقد كشفت هذه الجماعة الأخيرة عن موهبة نائلة من مواهبه ، هي موهبة الخطابة ، وأتاحت له مساجلات هذه الجماعة فرصة المran في هذه الناحية . كل ذلك وسنه دون العشرين . وكان موضوع أول خطبة ألقاها في جماعة زهرة الآداب « اليونان والرومان » ، ثم ألقى بعد ذلك خطاباً ومحاضرات كثيرة في موضوع « النعصب والتساهل » ، وموضوع الحرية ، وموضوع « نابليون الأول هل كان خيره أكثر من شره » الخ .

وفي بيروت كان الفتى قد ترجم رواية « أندروماك » لراسين ؛ وذلك بإشارة من قنصل فرنسا هناك ، بل إنه نظم أشعار هذه الرواية ، وقام بتدريب الممثلين على أدائها ، وذلك في مدى ثلاثين يوماً ، ثم مثلت الرواية ؛ وخصص ربحها لمساعدة البنات اليتيمات في المدينة .

وسافر الشاب بعد ذلك إلى الإسكندرية ، بمشورة بعض أصدقائه . وهناك ترجم رواية « شلمان » ، وأعاد النظر في « أندروماك » ، ولقيت الروايتان رواجاً عظيماً .

ثم لم نلبث أن رأينا هذا الفتى بالقاهرة ، وبها رجل الشرق وواحد السيد جمال الدين الأفغانى ، فاقصص به أديب إسحاق ، وحضر كثيراً من دروسه في المنطق والفلسفة ، وتوسم السيد جمال الدين في هذا الشاب النجابة واللسن وحسن الكتابة ، فأوعز إليه يومئذ أن ينشئ جريدة مصر ، فقام بإنشائها أديب إسحاق عام ١٨٧٧ ، وقيل لأنه لم يكن في جيبه يومئذ أكثر من عشرين قرناً .

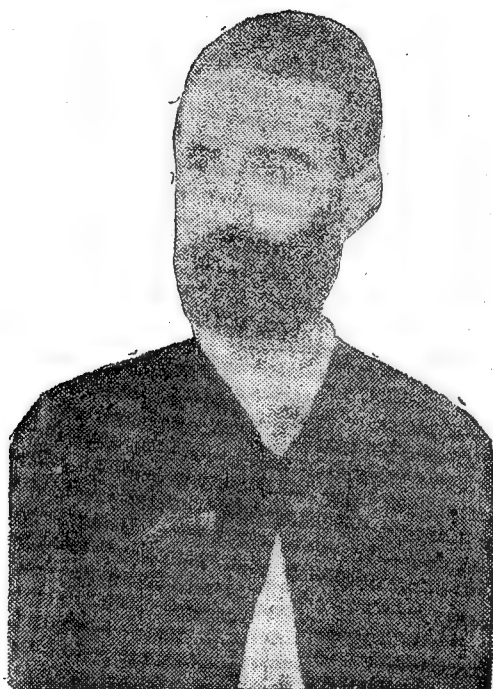
وأقبل الناس على هذه الجريدة ، ومالوا إليها ، وبقيت إدارة الجريدة قائمة بالقاهرة حتى أشار عليه بعض أصدقائه أن ينقل إدارتها إلى الإسكندرية ، فوافقهم على ذلك ، وشاركه في تحريرها يومئذ صديقه « سليم النقاش » ، وبذل الرجلان في هذه الجريدة جهداً لغوياً مشكوراً ، لا يترك مجالاً للشك في عظم الدين الذى لهما في عنق اللغة والأدب . وكان أديب إسحاق - وهو بالإسكندرية - يشترك في تحرير القسم الفرنسى من جريدة « مصر الفتاة » ، وله فيها بحوث قيمة ، أهمها بحث بعنوان « سكون الأمة المصرية بإزاء التاريخ » ، كتبه بالفرنسية ، وترجمه بعد ذلك بنفسه إلى اللغة العربية (١) .

ولم يسكتف الأديبان - إسحاق ، والنقاش - بذلك بل اشتركا معاً في تحرير جريدة أخرى اسمها « التجارة » ، أصدرها أسبوعية ، كما كانت جريدة « مصر » أسبوعية أيضاً . فكاننا في الحقيقة من أقوى دعائم النهضة القومية والأدبية ، ثم دعت شئون وأحوال إلى إلغاء الجريدتين معاً :

وربما كان من أهم هذه الأحوال التى تشير إليها تعرض أديب إسحاق في جريدته « التجارة » لنقد الحكومة المصرية نقداً جارحاً في أمور كثيرة ، كاعتقادها

---

(١) ظهرت هذه الصحيفة بالإسكندرية في عام ١٨٧٩ وكانت لسان حال الجمعية السرية التى أنشئت ذاك باسم (جمعية مصر الفتاة) وكان من أعضائها أديب إسحاق والسيد عبد الله النديم ،



أديب إسحاق

١٢٧٣ - ١٣٠٢ هـ

١٨٥٦ - ١٨٨٥ م



على الأجانب إلى درجة كبيرة ، فقد وصف أديب إسحاق ذلك بأنه « بربرية أوربية لا يجوز السكوت عليها ، لأن القوم نازعونا الأرض المجدولة بنم آباءنا ؛ وأصبحوا أمراء في بلادنا الخ » . ثم عادت الجريدتان فظهرتا ، ومضت كل منهما تناضل عن قضية الوطن ؛ حتى عطلت أولاهما « مصر » لمدة أسبوعين ، وبقيت « التجارة » وحدها في الميدان ، وطفقت تقابل قرارات الإلغاء والتعطيل بازدياد وعناد ، وأمنت في خطتها التي ترى إلى حماية مجلس النواب من نفوذ الوزيرين الأجانبين وهكذا هددت « التجارة » هي الأخرى بالتعطيل فكتبت في عددها الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٩ تقول :

والتجارة تحسب حب الوطن ديناً ؛ والمدافعة عنه جهاداً ؛ فإن عاشت فيه فهي سعيدة . وإن ماتت فهي شهيدة ، ولقد آتاه الله النعمتين وأتاح لها الحسينين ، فعاشت به ، وماتت عليه . وستبعث بعد أسبوعين رافلة في ثوب الشهادة ، مزينة بحلى السعادة ، وعلى رغم أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا بما لم نقصد وحاولوا إطفاء نور الحق ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون .

ولكن أديب إسحاق بعد إذ ألغيت جريدته التجارة ، فكر في السفر إلى فرنسا فسافر إلى باريس مدينه النور ؛ حيث لاذبموطن الحرية ، ويومئذ كان الحديو قد نفي السيد جمال الدين الأفغاني من مصر ، وتخلص منه ، وكان قد أقال الوزارة المصرية ذات الميول الوطنية ، ونعنى بها وزارة شريف . وإذا ذلك أيضاً كان الحديو قد أسند الوزارة إلى رياض باشا ، فقبل هذا أن يتولى رئاسة الوزارة ؛ وكان قبوله لها في تلك الظروف معناه العودة إلى الحكم الاستبدادى . وفي ذلك الوقت ألغيت في حلوان الجماعة المعروفة باسم « الحزب الوطنى »<sup>(١)</sup> ، وقيل إن هذا الحزب فكر يومئذ في أن يرسل على نفقته أديب إسحاق إلى باريس . ليصدر هناك جريدته « مصر القاهرة » .

وكان رياض هو الذى أمر بإلغاء جرائد أديب إسحاق ، فرحل هذا الأديب

---

(١) وهو غير الحزب الوطنى المنسوب إلى مصطفى كامل . وهذا الاسم يقابل (حزب السراى) الذى كان يضم إليه الأتراك والفراسكة ، على حين كان الحزب الوطنى يضم إليه إقلاطين المصريين (راجع التاريخ السرى لاحتلال الإنجليز مصر . للمستر بلافت : ص ٣٧٨ ، راجع برنامج الحزب الوطنى — الدرجة العربية : ص ٤٤٠ ) .

الصحنى إلى فرنسا والفيظ يأكل قلبه ، والثورة تستخدم في نفسه ، والدم يغلى في عروقه والمرجح أن ذلك عام ١٨٨٠ ميلادية . وهناك في باريس صاب الرجل جام غصبه أولاً على رياض باشا ، فلم يكذب مخلو عدد واحد من أعداد صحيفته من سخرية خبيثة ، تناولت كل جانب من جوانب هذا الرجل ، وتعرضت لحلقه وعرضه ، وهذه النقطة الأخيرة هي الجانب الذى فى كتابة أديب إسحاق ، وأخطأه الخبيثة التى لا نواقه عليها ، فإذا صرفنا النظر عن هذه النقطة الأخيرة ، ونظرنا فى صحافة أديب إسحاق ومقالاته التى كتبها فى باريس ، فهنا نبذى إعجابنا به وبقلبه ، على النحو الذى سنشرحه فيما بعد .

والعجيب أن أديب إسحاق بدأ يحرق هذه الصحيفة فى باريس بخط يده ، وينسخ منها نسخاً عديدة بخط يده ، ولم يشأ أن ينتظر حتى يظفر بالمطبعة التى تقوم له بهذا العمل وكان يكتب فى صدر صحيفته دائماً كلمات « مساواة ، حرية ، إخاء » وجاء فى الأعداد الأولى من هذه الجريدة قوله :

« . . . ما تغيرت الحقيقة بتغيير الرسم ، ولا تغيرت الصحيفة بتغيير الاسم ، بل هى . . . مصر خادمة مصر (١) . . . » .

ومنذ يومئذ وهذه الجريدة متنفس لهذا الشاب الثائر ، الذى أحس بحريته فى باريس ، وشعر بأنه أصبح أشبه ما يكون بوحش قد أطلق سراحه . وهناك فى باريس أقام أديب إسحاق قرابة تسعة أشهر ، أفاد فيها من الفوائد السياسية والأدبية شيئاً كثيراً ؛ من ذلك أنه تعرف بكثير من رجال فرنسا ، حتى كتبت عنه بعض الصحف الفرنسية . ومن ذلك أنه شهد مجلس النواب الفرنسى ، ورأى بنفسه كيف يخطب الخطباء فى نقد الحكومة ، وكيف يعارضونها فى حرية وصراحة ، وكيف يوجهونها توجيهاً سليماً فى الساحتين السياسية والاجتماعية . وكان ذهنه فى هذه الحالة ينتقل سريعاً إلى مجلس النواب المصرى ، وكانت تسوؤه الموازنة بينه وبين مجلس النواب الفرنسى ، فكان يعد من المقالات اللاذعة فى نقد نوابنا المصريين ما سنرى أمثلة يسيرة منه بعد قليل .

---

(١) انظر عدد ديسمبر ١٨٧٩ ، وهو مدار الكتب المصرية .



ولم ينس أديب إسحاق في أثناء مقامه بفرنسا أن يكتب المقالات الكثيرة عن الشرق ، ولم ينس كذلك أن يفرغ لتأليف كتاب له باسم ( تراجم مصر ، في هذا العصر ) . والظاهر أن الكتاب الأخير قد من جملة ما فقد من آثاره ، والظاهر أيضاً أنه تعرض فيه لكثير من الشخصيات المصرية ومن أهمها شخصية رياض باشا التي تناولها على عادته بالنقد والتجريح

واتهمز أديب فرصة وجوده بباريس فزار المكتبة الأهلية زيارات كثيرة ، واطلع فيها على طائفة كبيرة من المؤلفات الفرنسية والمخطوطات العربية . ويقال إنه نسخ منها قطعاً ليست باليسيرة . وفي باريس بقى هذا الشاب الممتليء بالحياة حركة دائمة ، ونشاطاً مستمراً ، وجدوة لا تنطفئ . حرارتها ، حتى ظهرت عليه أعراض مرض قديم ، كان قد بدأ معه وهو بالإسكندرية ، وهذا المرض هو مرض الصدر . وحين سافر إلى باريس كان البرد قارصاً ، حتى قيل إن ميزان الحرارة قد سجل فيها درجة الثلاثين تحت الصفر . وكان أديب يستجيب في باريس لدواعي الشباب ، فكان لا يرى إذ ذاك إلا مخوراً . . . . . وأخيراً عاد هذا الشاب المصدور إلى بيروت . وكان عليه أن يأخذ نفسه بالراحة والهدوء ، ولكن أنى له ذلك وهو لم يتعود قط أن يستريح . فهذا هو صاحب جريدة « التقدم » يمرض عليه أن يتولى تحريرها للمرة الثانية ، فيعاوده الحنين إلى أول جريدة عمل بها في حياته ، وسرعان ما يقبل على تحريرها ، فيسكد خاطره ، ويقسو على نفسه في كتابة المقالات الشائقة ، والفصول الضافية سنة كاملة .

ثم دعاه إخوانه وأصدقاؤه في مصر إلى اللحاق بهم ، واتصل دعاؤهم له ولحاحهم عليه ، فلم يجد أديب بداً من الخضوع لهم ، والذهاب إلى مصر ، فخرج من بيروت ، وودعه فيها أصحابه توديعاً حاراً .

ووصل إلى القاهرة ؛ وعين بها ناظراً لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف ، وسعى حتى حصل من الحكومة المصرية مرة أخرى على ترخيص له بنشر جريدته « مصر » فأصدرها أولاً في شكل كراسة ، ثم أعاد مظهرها

الأول في أربع صفحات . وأشارت إلى ذلك جريدة « المفيد » لمحررها  
« حسن الشمسي » وذلك بعددها الصادر بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨١  
— قالت :

« سينشأ في نظارة المعارف قلم تحرير وترجمة ، يكون المتعلمون فيه هم  
التلامذة الذين تمموا الفنون التي تدرس في المدارس العالية ، وصاروا صالحين  
للخدمة في دوائر الحكومة الخ ، وقد تعين لرياسته حضرة الجيهذا الخاذق ، والكاتب  
الماهر ، صديقنا أديب إسحاق . ويقال إنه مع ذلك سيصدر جريدته الملقاة  
« مصر » ، لكن على شكل كراسة تصدر في العاصمة سواء كانت سياسية أو  
أدبية ، تاركة ذكر الأخبار الطارئة الأسبوعية أو اليومية إلى قريبتها : جريدة  
العصر الجديد ، وجريدة المحروسة . ولا شك أن هاتين الخدمتين سيقوم بهما هذا  
الفاضل فوق ما يؤمل ؛ فتروج بذلك صناعة الأدب ، وتتغير عما قليل هيئة  
الكتابة في الدواوين إلى الفصحى ؛ وتنتشر فيما بيننا الكتب العلمية المؤلفة  
بلغة الأجانب . التي تشوقنا إلى رؤيتها لابساً للحلة العربية ؛ ولم يظفر بذلك  
من عهد وفاة المرحوم رفاعة بك ، لفقدان معلمى الترجمة ، فخبذا المشروع ،  
ونعم الغرض . »

ثم أضيفت إلى أديب إسحاق وظيفة أخرى إلى جانب الوظيفة الأولى إذ  
عين كاتباً لأسرار مجلس النواب . وإذ ذاك منحه الخديو رتبة البسكوية من الدرجة  
الثالثة . قال أخوه عوني إسحاق في ذلك :

« وما اتفق له — رحمه الله — أنه لما التمت له الرتبة المشار إليها . سعى  
أحدهم في إيفار صدر الخديو عليه . ليحول دون صدور البراءة . فاتصل نبأ  
السعاية بأديب إسحاق — وكان مريضاً ملازماً فراشه — فهب على الفور متأثراً  
منفعلاً ؛ يغالب المرض والضعف ؛ وجاء إلى إدارة المطبعة التي كانت تطبع فيها  
جريدة « مصر » ؛ فرأى الجريدة تحت الطبع ؛ فاستوقف طبعها . وكتب في  
بضع دقائق مقالة عنوانها « الجاسوسية » . جاء فيها قوله : « أو ما رأيت فيمن  
رأيت دميماً قميئاً مسيخاً ضائع نور الحياء ناضب ماء الوجه زانق إنسان العين

عجلول هفدة اللسان . سريع حركة القدم ، جرباوى لون السحنة . كلبي الطباع فيما  
عدا الامانة ، خنزيرى النفس ؛ يرى في الساعة الواحدة على عشرة أبواب ،  
وينطق في اليوم الفرد بمائة لسان . ساعيا إلى زيد بما يقول عمرو . وإلى عمرو بما  
يفعل زيد . وإلى خالد بما يقول ويفعل الإثنان . متجسسا لكل في الكل على الكل  
كاذبا مداهنا مواربا ، مختالا مختالبا ، مختالا مناقبا ، مقتالا أعراض الكل ، كاسبيا  
مستترنا ؛ سالبيا غاضبا ضاحكا من الكل . فهذا المسخ من تنزلات إبليس أخزاه  
الله بين عباد الله . فإن رأيت بين أقدامك ، فارفع أطراف الثوب عنه ، وإن مسه  
فطهره من رجسه تطهيرا ، ثم ارمه بحجر الاحتقار ، إنه السكب الأجرب ، فلا تحش  
منه هديراً . . الخ (١) .

تلك حادثة بسيطة ، وهى مع بساطتها تصور لنا جانبيين من جوانب أديب  
إسحاق : أحدهما العنف الذى جبل عليه وأضر به . والثانية الموهبة الكتابية التى  
كانت تطاوعه . وتعمده أحيانا بقوة غريبة ، يتغلب بها على المرض والضعف .

وهكذا كان أديب فى الواقع قاسياً على نفسه طول حياته . ومن الناس  
من يحملون على أنفسهم ، ويتكشون على أعصابهم ، إلى حد يودى  
بحياتهم ، ويصورهم للناس بصورة النار التى تأبى إلا الإحراق ، أو يتم  
إنحادها ، أو تصير رمادا .

وأخيراً فكر أديب إسحاق — أو على الأصح أشير عليه بذلك من الجهات  
العليا — أن يترك العمل فى الجريدة ، ليتفرغ لمهام منصبه ، فأحال امتيازها لأخيه  
عوفى إسحاق ، وكتب يومئذ يودع جريدته ، فقال :

« قفى ودعينا قبل وشك التفرق »

وإن كنت أرجو الحياة إلى حين نلتقى ، فما باعدتك اختلافاً إلى سواك ، وما  
فارتكت انحرافاً عن هواك ، فإننى :

---

(١) انظر الدرر لعوفى إسحاق طيروت ص ٢٤١

خلقت ألوفاً لو رجعت لصحتي لفارقت سقوى موجد القلب باكياً (١)  
فكيف وأنت الحديقة التي غرست فيها غصون آدابي ، وبذلت ماء شبابي ،  
وأنفقت دينار قوتي ، وصرفت مدخر صحتي ، حتى نمت هاتيك الأغصان ، وصار  
عليها من كل فاكهة زوجان ، وأنت الطريقة التي أدعيت في سلوكها الليل ، وثمرت  
لها الذيل ، وعودت بها التقدم خوض الأهوال ، وعلست النفس اقتحام الأوحال ،  
حتى سهل الصعب عندها وهان ، فلحقت بمنزلة أهل العرفان وأنت الصديقة التي  
واستنى في الضراء ، وزادتنى فرحاً في السراء . وصرفت عني العنجر في الوحدة ،  
وأزالت عني الكدر في الشدة ، حتى اجتبتني صروف الحدان ، ولم يبق للخوف  
في القلب مكان ، وأنت الرفيقة التي ألفتها والعمر في نضرتي ، والشباب في مبدأ  
قوته ، فلزمتني في الإقامة ، مع الهناء والكرامة ؛ وصحبتني في الغربة ، أيام العناء  
والسكبة ، حتى عاد لنا الزمان ، بعد البعد والهجران .

ولكنها خدمة حبست بقية العزم عليها ، والتزمت الانقطاع إليها ، وهي من  
لازم الوفاء ، وهي حق واجب القضاء ، على أنها من تجلياتك في المقدود منها ،  
ومن مظاهرك في الناشئ عنها ، فهي أنت ولكن تغير الاسم ، وأنت هي ولكن  
تبدل الرسم . قبلني - يارعاك الله - أولياءنا المحسنين ، ونسراءنا الخيرين ،  
سلام محب يذكر نعمتهم ، ولا يهمل إن شاء الله خدمتهم :

وإن تذكر أياماً بها سلفت يقول بالله يا أيامنا عودي (٢)

وقامت الثورة العرابية في مصر ، وكان أديب إسحاق يتصل بجريدته من حين  
لآخر ، ويحرر فيها مقالات شتى ، وهنا قد يجب الباحث من أن أديباً كان إذ  
ذاك من أصحاب الدهوة إلى الاعتدال في طلب الحرية ، وأن ذلك أسخط عليه  
رجال الثورة العرابية ، ومنع جريدته من أن تكون لسان حالها : واستعاض  
الثوار يومئذ . . . بصحف أديب إسحاق صحفاً أخرى أهمها : جريدة «المفيد»

(١) حبث الكاتب بيت شعر المتنبي يقول فيه :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبى موجد القلب باكياً

(٢) انظر الدرر من ٣٨٦ - ٣٩٠

وجريدة « الطائف » . بل إن جريدة المفيد كتبت في عددها الصادر بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢ بعنوان « الجرائد الشامية » تقول :

« وكل من جريدة الأحوال والمحروسة ومصر أنانا أصحابها وجيوشهم أفرغ من قوادهم من الوطنية التي ادعوها ترويحاً لمقاصدهم ، فأنشئوا بين أيدينا جرائدهم ودعوا باسم الوطنية والخدمة الإنسانية والحال في سكون . فلما ارتبكت الحال قطعوا ألسنة جرائدهم ، ورجعوا إلى بلادهم بمر الحفائب (١) . فنعيم الأحباب لازمونا في الهناء . وفارقونا في الشقاء . » وهكذا أخذت جريدة المفيد تتهاجم الصحافة السورية في مصر ، فاضطر كثيرون من السوريين إلى الهجرة من مصر . وساء ذلك جريدة « الطائف » . فراحات تعالج الموقف وكتبت مقالا بعنوان « المصريون والشاميون » ، سمت فيه هجرة السوريين إلى بلادهم نزوحاً سيمودون بعده إلى مصر بسلامة الله (٢) .

وكان من أثر هذه الحوادث أن قطع أديب إسحاق — وهو موظف بالحكومة المصرية — كل صلة له بجريدة مصر . ولم يبق من الصحف السورية يومئذ غير جريدة ( المحروسة ) لصاحبها سليم النقاش . إذ بقيت هذه الجريدة الأخيرة موالية للحكومة (٣) حتى عطلها عرابي حوالى ثلاثة أشهر . وأخيراً هاجر أديب إسحاق إلى بيروت في جملة من هاجروا إليها من السوريين . وهناك تولى تحرير جريدة ( التقدم ) للمرة الثالثة في حياته . وهناك أيضاً قام أديب إسحاق بطبع رواية « الباريسية الحسنة » . وكان قد ترجمها في أوائل صباه .

وبعث أديب إسحاق وهو في بيروت بقصيدة طويلة إلى شريف باشا وهو رئيس الوزارة المصرية التي أسقطها الثوار . وتلتها وزارة محمود باشا سامى

---

(١) كناية عن امتلاء جيوشهم بالمال .

(٢) جريدة الطائف في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

(٣) كانت المحروسة لـ أنجال شريف ثم عمر لطفى التي كان عاقلاً للاسكندرية عند حدوث الاضطرابات بالإسكندرية في ١١ يولية سنة ١٨٨٢ وهي الاضطرابات التي أثبتت خيانة عمر لطفى وأنه كان ضالماً مع الحديو والإنجليز .

البارودى . وفي هذه القصيدة يصف لنا أديب إسحاق حوادث الثورة العراقية . وخاصة ما وقع منها في عام ١٨٨٢ . ونعني بذلك ضرب الإسكندرية في الحادي عشر من شهر يوليو من تلك السنة . ومن هذه القصيدة قوله :

هـ صج بي على تلك الطلول وناد  
هل صادم شرك الردى فأبادم  
ما غادروا الأوطار في أوطانهم  
أنى تحمل أهل هذا الوادى ؟  
صرف أناخ على ثمود وعاد ؟  
مذاذروا غدر الزمان العادى  
ومنها .

يا وارد الإسكندرية طامعا  
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت  
كانت مرائع نعمة ففدت وما  
فأبادها جمل غنى ما بدا  
جمل الذى رام الأمانى وهى فى  
وغدا وما لقي الثالب عمره  
وسمى إلى الشورى ولكن خالها  
شقيت بزلة الجشوع وطالما  
وتلاه فى سبل الفوابة معشر  
غرسوا الجفانية فى الجنون فما جنوا  
خلعوا الشعار المستعار من الحيا  
فأنامهم رعد المدافع مبرقا  
وسطوا على المستأمنين خيانة  
ورموا بنارهم الديار وبددوا  
نكر عرفنا منه أن لبعضهم  
وقيصة يسعى بها أبنائهم  
إلى أن قال :

يا هولها من ساعة مرت بما  
ذهقت به الأرواح من الأجساد

نثروا عراة واجفين فيومهم يوم الميعاد أتى بلا ميعاد  
والنار موقدة سرت من خلفهم فكأنها حيات بطن الوادى  
والجند شردهم قتال عدوهم فرقا فلم يتجلدوا لجلاد  
فهم اللصوص وإنهم قد أوهموا أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد  
وبلادهم قد نالها من عارهم ما لم يحق في عهدنا ببلاد

والقصيدة طويلة نكتفى منها بهذه الأبيات التى وصف فيها الشاعر هذا الحادث  
وبكى مدينة الإسكندرية بعد إذ تعرضت لقنابل الإنجليز ، وسخرية الشاعر سافرة  
فى أكثر قصيدته من الرايين حيث قال :

جهل الذى رام الأمانى وهى فى قم الجبال وكان دون الوادى  
كما أظهر الشماة بهم وبرعيمهم حين قال :

شقيت بزلته الجموع وطالما أشقت جموعا زلة الأفراد

كما وصف الشاعر هول تلك الساعة الرهيبة ؛ التى فر فيها جند عربى من وجه  
الإنجليز ، وأساءوا فى طريقهم إلى كل من اتهم من المصريين :

والجند شردهم قتال عدوهم فرقا فلم يتجلدوا لجلاد  
ونضوا على هذا السبيل بواترا فى الحرب ما نصبت من الأغداد

وأخيراً قذف الرايين بقوله وقد أساء فى حقهم إساءة بالغة :

فهم اللصوص وإنهم قد أوهموا أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد

ومهما يكن من شئ فهو رأى رجل سورى فى الثورة العرابية ، ولسنا  
فى مقام المحاسبة له أو لرجال الثورة ، ولكننا فى مقام العرض لهذه القصيدة التى  
نظمها يومئذ ، وهى كما رأيت قصيدة رجل محقق شديد الغيظ قد شنى بعد غيظه  
إخفاق هذه الثورة ، والقبض على رجالها ، وإن كان قد آلمه ما انتهت إليه من  
احتلال الإنجليز مصر ، واحتلال الأمن بها ، لولا حرم نفر من عقلائها  
كشريف باشا الذى أهدى إليه هذه القصيدة وقال له فى نهايتها :

عيت فلولا السابقون ومجدهم وبقساء من ولوا من الابداد  
ومؤيد ملك امير عادل اربى بمفرده على الاعداء  
وعصابة كانت قلائد فضلم أبهى من الاطواق في الاجياد  
لم تلق في مصر ومصر عزيزة من قائل : هاذى البلاد بلادى

واشتدت علة الصدر على أديب إسحاق وهو في بيروت ، فأشار عليه أطباؤه  
بالذهاب إلى مصر مستشفياً ، فالتس الإذن بذلك من الحكومة المصرية ،  
فأذنت له ، وأقام بالقاهرة أياماً قليلة ، ثم عاد إلى الإسكندرية وأقام فيها أياماً  
بمحطة الرمل ، لالتس العافية ، ولكن ضاقت عليه سمة العمر ، فلما لم يرج  
الأطباء له شفاء أقنعوه بالعودة إلى أهله في نغرة بيروت . فعاد إليها . وذهب إلى  
مصيفه في الحدث « بجبل لبنان » ، ولم يمض على عودته ثلاثون يوماً حتى توفاه  
الله غير متجاوز من العمر تسعة وعشرين ربيعاً ، « كان رحمه الله طويل القامة  
والعنق مع انحناء قليل ، أبيض اللون . براق العينين ، عريض الجبهة بارزها ،  
جمهورى الصوت ، طلق اللسان ، نبت الجنان ، لطيف الحديث ، ذكياً نبهاً ،  
مقدماً حاد الذهن « أبى النفس ، سليم القلب ، حسن الطويلة » .

« كان زهرة الأدب في الشام ، وريحانة العرب في مصر ، لو فسح الله في  
عمره لخدم الأوطان خدمات قل أن يستطيع سواه مثلها الخ » .  
قالت مجلة الهلال في نهاية تأييده :

« وإنما يؤخذ عليه رحمه الله تساهله في طرق معاشرته ، وإطلاق هوى  
النفس فيما تسوق إليه الشهية حتى أثر ذلك في مزاجه ، وعجل منيته ، فقصفت  
غصناً وطيباً لم يبلغ ثلاثين ربيعاً ، ولا ريب عندنا أنه لو عمل بالقانون ، وأصنى  
لنصيحة الشيخ الرئيس ، لعمر طويلاً ، وخدم الأوطان خدمات قل أن يستطيع  
الناس مثلها ، والله في عبادة حكمة لا تدركها العقول .

وهكذا رثته الصحف في مصر والشام ، ورثاه رجال الأدب على اختلافهم  
رثاء حاراً لا يتسع المجال هذا لوصفه ، أو للإلمام به .



## الفصل الثالث

### أسلوب أديب إسحق

من قراءة حياة أديب إسحاق نعلم أنه كان مثقفا بالثقافتين العربية والفرنسية ، تعلم مبادئهما بالمدرسة ، ثم ترك وشأنه فيهما ، لخدمتهما بمجده الشخصي ، وذلك بأسرع مما لو كان بالجامعة حيث المنهج والاساتذة ، وبحسبنا أن نعلم أن أديب إسحاق قام بترجمة روايات فرنسية كثيرة ، كراوية « أندروماك » ورواية « شلمان » وهو بعد لم يتجاوز العشرين من العمر .

والحق أن بينه وبين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فروقا من نواح عدة : منها الثقافة ، والخلق ، والمزاج . فأما من حيث الثقافة فأديب إسحاق يحذق العربية والفرنسية ، وله كتابات ومؤلفات فيهما معاً ، على حين أن الشيخ محمد عبده لا يعرف غير العربية ، وأما من حيث الخلق فأديب إسحاق أدنى إلى التحلل من القواعد الدينية ، في حين أن الشيخ محمد عبده رجل ورح القلب نقي النفس شديد الغيرة على الدين وآدابه كما سنعرف . وأما من حيث المزاج فأديب إسحاق رجل تائر الأعصاب ، سريع الهياج ، في حين أن الشيخ محمد عبده هادئ بطبعه ، لا يحتاج إلا إذا انصل بأستاذه السيد جمال الدين الأفغاني كما سنشرح ذلك فيما بعد .

على أن هناك فرقاً أهم في نظرنا من جميع الفروق المتقدمة ، وهو فرق من ناحية الأسلوب . ويمكن أن يتلخص هذا الفرق في كلمة واحدة لها تفصيلها فيما بعد ، وهي أن أسلوب أديب إسحق أكثر جمالا من أسلوب الشيخ محمد عبده . وهما بعد يتفقان في قوة التأدية . ومصدر الجمال في أسلوب أديب إسحاق أشياء كثيرة ، منها سرعة الانفعال عند هذا الشاب ، مما يجعل أسلوبه إلى طبيعة الشعر أدنى منه إلى طبيعة النثر ؛ ومنها تلوين الكلام عنده بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، مع قدرة ظاهرة على هذا التلوين في غير تكلف محقوت ولا صناعة مرذولة ومنها الثقافة الأجنبية ، وهي التي زودت أديب إسحق بالمعاني التي لا سبيل للأستاذ الإمام (م - ٣ أدب المقالة ج ٣)

إليها . وباختصار نرى أن أسلوب أديب إسحق يلد الأديب أكثر من الصحفي . وربما كان الأمر على عكس ذلك بالقياس إلى أسلوب الشيخ محمد عبده . وما تقدم أيضاً في ترجمة أديب إسحق نعلم أنه كتب في الصحف الآتية :

( ١ ) صحيفة التقدم ببيروت (١) .

( ٢ ) صحيفة مصر الفتاة الصادرة بالإسكندرية عام ١٨٧٩ (٢) .

( ٣ ) صحيفة مصر الصادقة بالقاهرة ثم الإسكندرية .

( ٤ ) صحيفة التجارة بالإسكندرية .

( ٥ ) صحيفة مصر القاهرة . الصادرة بباريس سنة ١٨٨٠ .

### جريدة النفرم :

فأما جريدة التقدم فلم تسكن له ، وإنما تولى تحريرها ثلاث مرات في حياته : الأولى قبل سن العشرين يوم أثر العمل في الصحيفة على المضى في مزاولة العمل بالجرم . والثانية بعد عودته من باريس وإنشائه جريدة ( مصر القاهرة ) فيها . والثالثة بعد عودته من مصر عقب قيام الثورة العراقية ونشوب الفتنة بين المصريين والسوريين . ولم نستطع نحن للأسف أن نحصل على نموذج لأديب إسحق من مقالاته في صحيفة التقدم حين كان يتولى تحريرها للمرة الأولى ، وإن كنا نرجح أن أسلوبه في هذه المرحلة كان أميل إلى السجع ، وأكثر تكلفاً للمحسنات اللفظية .

ولكنه حين تولى تحرير التقدم للمرة الثانية كان أسلوبه قد تكون وتكامل في مصر ، وازداد في باريس قدرة على توضيح أفسكاره ، ومسايرة انفعالاته . فلما أتى إلى بيروت كان يشارك في إصدار الجريدة مرتين في الأسبوع . وإذا ذاك قال في مقدمة العدد الأول من أعدادها :

### النموذج الأول

« تتعدد مظاهر الوجود في السكائن الموجود ، فيتدرج في مراتب الكمال بما له

(١) انظر منتخبات جريدة التقدم في كتاب الدرر ص ٢٧٢ .

(٢) انظر منتخبات جريدة مصر الفتاة في كتاب الدرر ص ١٢٤ .

من معدات الكون والبقاء ، والحركة والنماء ؛ فلا تأسف على الحبة مدفونة في الأرض شتاء ، إنها ستنبث نامية تتوجا (١) ، ولا تبك على الشجرة مجردة في الخريف ، إنها ستبدو في الربيع خضراء تسر الناظرين ، ولقد أتى على هذه الصحيفة حين من الدهر دفنت فيه حبة قصدها ، وجردها غصن نفعا بما طرأ عليها من حوادث الأيام ، وعاديات الحداث . ثم تجلت بهذا المظهر ، ولم تنشأ من العدم البحت ، ولم تبد بعد المحو المطلق ، ولكن تقيمت من الحياة ثوباً جديداً فهي الآن رسوا ، رجائنا إلى الذين عرفنا من أحياء الأدب ؛ تصدر إليهم يوم الإثنين ويوم الخميس من كل أسبوع ، مشتملة على المهم من أخبار السياسة ، والراجع من آراء ذوي النقد ، والنافع من شذور الأدب ، والمأثور من خطرات الآلباب ، نجمع فيها السياسات تحصيلاً ، ونبسط الأدبيات تفصيلاً ؛ لانسود منها بالرياء وجهاً ، ولا نملأ لها بسفاسف القول وطاباً . وإن سطرأ بما يؤلف بين القلوب خير من فصل ؛ ما تختلف عليه الآراء ، وإن كلمة بما تدعو إليه الحكمة ، لأنفع من كتاب بما تبعك عليه الأهواء . وقد اخترنا لها ما يرى في هذا المثال من الترتيب والتبويب ، معولين فيه على عذوبة المورد ، وسهولة المقصد ، وجودة الإيضاح ؛ لا تتكلف لجميع ذلك إلا الإفهام ، ولا نعتد غير تقدير المعاني في الأفهام ، من أقرب وجوه الكلام . وما ندعى في هذا الأسلوب كالا ولا إحساناً . إن هو إلا جهد مقل ينطق عن غيرة وإن فاته العلم . ولو فعل كل امرئ ما يستطيع من منفعة لما رأينا على سطح الأرض شقياً . فإذا بلغنا المأمول من القبول ، فتنك يد عندنا لذوى الفضل والحلم ، من أهل العدل والعلم . ولا نحسبنا من العذر بذل الجهد ، ومن التأساء (٢) حسن القصد ، مقضياً علينا بالعجز ، ولا نرجم محكوماً علينا بسوء النية ، نعرف بالضعف في جملة كثير من الأنام ، ولا نوى بنقص القادرين على التمام ، على أننا في أيام ليست كالأيام ؛ وموقف ضحك المقام .

« نعم . إن دولتنا العلية ، حقق الله بها آمالنا وأصلح بعنايتها أحوالنا ، قد وضعت للطبوعات قانوناً لينأى في غير ضعف ، ووازعا في غير عنف ، يؤمن

(١) التوج : إلى جان فجاجها .

(٢) الاقتداء .

المستمع بعروة الحق والصدق ، ولكنتنا بين أمور عظام ، ومشاكل جسام ،  
لا يفتنى في مباحثها حسن النية ، ولا تكنى سلامة القصد ؛ فربما انحبس عنا القول  
من حيث لانعمد فعلا ، وربما ضاق علينا المجال من حيث نرى مجالا ،

« بل لا ينحبس القول ، ولا يضيق المجال إن للتقدم أنصاراً من أهل الغيرة  
العلمية ، وأولياء من أهل النجدة الأدبية ، لا يرضون عليه بما يجدون من فرائد  
فوائدهم ، وفواضل أفضالهم ، وليس ما يجدون من ذلك قليلا .

فانظر كيف بدأ مقاله الافتتاحى بقوله « تتعدد مظاهر الوجود في الكائن  
الموجود » معبراً بذلك عن عودة ( التقدم ) للظهور .

ثم انظر إليه كيف ساق هذا التشبيه المحسوس الذي يدل على أنه أديب ،  
وهو قوله « فلا تأسف على الحبة مدفونة في الأرض شتاء ، إنها ستنبث في الصيف  
نامية تتوجأ ( أى كثيرة الإنتاج ) الخ .

ثم انظر إلى الكلام الذي يورده الكاتب موارد الحكم كما في قوله « إن  
سطراً بما يؤلف بين القلوب لحير من فصل ما تختلف عليه الآراء » ، وقوله « إن  
كلمة ما تدعو إليه الحكمة لأنفع من كتاب ما تبعث عليه الأهواء » ، وإلى قوله  
« ولو فعل كل امرئ ما يستطيع من منفعة لما رأيت على سطح الأرض شقيماً » .

وانظر كذلك إلى التضمين في قوله « ولا نرى بنقص القادرين على التمام »  
وإلى ختامه في قوله « نرحم مقضياً علينا بالعجز ، ولا نرحم محكوما علينا  
بسوء النية » .

مهمل يمكن من أمر فإن مقالات الكاتب التي كتبها في جريدة التقدم ببيروت  
لا تعيننا كثيراً بقدر ما تعيننا مقالاته التي كتبها في صحفه بمصر ، وأهمها فيما نعلم  
صحيفتان ، هما : ( جريدة مصر ) التي قلنا أن مقرها كان بالقاهرة ، ثم انتقل بها  
إلى الإسكندرية ، و ( جريدة التجارة ) التي جعل منها رداً لجريدته الأولى  
وأختاً لها . غير أن هذه الأخيرة لم تدم لصاحبها كثيراً إذ عطلت بعد العدد  
الخامس عشر من أعدادها ؛ بسبب المقالات الثورية التي كان يكتبها أديب بعنف  
في هذه الجريدة .

ولقد كان الموضوع السياسي الهام الذى يشغل بال الصحافة المصرية فى تلك الفترة ، ذا شقين : الشق الأول يتصل بالسياسة الخارجية ، وأهم ما فيها الحرب الروسية التركية ، والشق الثانى يتصل بالأحوال الداخلية المصرية ؛ وأهم ما فيها مسألة الدين ، وهى المسألة التى جعلت بتدخل الدول الأجنبية ، ومكنت إنجلترا وفرنسا من الإشراف على مالية البلاد ، وجاءت روسيا تزايد الطين بلة ، وطلبت خراج مصر رهناً تسدد منه تركيا غرامة الحرب . فكتبت الصحف المصرية فى كل ذلك ، وكتبت فى موضوع الحرية ، كل بطريقتها الخاصة ، وكانت طريقة أديب إسحق فى ذلك الوقت تقوم على وصف الحريات التى تتمتع بها الدول الغربية ، وكانت ثمرة لجهادها فى سبيل الحصول عليها .

جريدة مصر<sup>(١)</sup> : سنة ١٨٧٧ ( ٣٠ يوليو : تاريخ صدور العدد الأول ) من أجل هذا كتب أديب إسحق فى جريدة مصر عام ١٨٧٨ — أعنى بعد مرور سنة تقريباً على إنشاء هذه الجريدة مقالاً بعنوان ( الملك والرعية ) تحدث فيه عن الملك الاستبدادى والملك الشورى ، ليصل من ذلك إلى السخرية بنوع الحكم الروسى ؛ ثم قال :

#### النموذج الثانى

« ولم يكف الروسية بقاؤها مستبدة على حين تحول سائر الدول إلى الشورى ، حتى كانت سبباً فى توقيف غيرها عن ذلك القصد النبيل ، فإنها قد منعت الدولة العثمانية حيناً عن إنجاز ما شرعت فيه من إصلاح دخليتها وتنظيم شوراها بهذه الحرب العنيفة التى دعا إليها الغرور . على أن الدولة العثمانية لم تكن لينعما من ذلك مانع ، فإنها لم تهمل ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها الخ » .

إلى أن قال « وغاية ما أرجوه أن أرى حكومة الدولة العثمانية حكومة شورية ، والله أسأل أن يؤهلنى لصنع الخير فى قومي ، ويجمع على محبى قلوبهم ، ويمينى على أن أقم فى بلادى بعد هذه الحرب الظلمية ، حكومة جيدة تضمن لها مستقبلاً حسناً » .

---

(١) كانت جريدة مصر أسبوعية . وأما شقيقتها ( التجارة ) فكانت يومية ، ومصدر أول عدد من أعدادها بتاريخ ٢٣ مايو سنة ١٨٧٨ .

وأثنى أديب إسحق في هذه المقالة ثناء مستطاباً على السلطان . وكان يصدر في جميع مقالاته في الواقع عن ولائه له ، ونظره إلى كل مصرى وسورى على أنه عماني .

ثم كتب أديب إسحق بعد ذلك في ( الحرب ) ، وفي ( جرحى الحرب ) ، وفي ( إغاثة الجرحى ) ووشى هذه المقالات بالأشعار والمقابلات ؛ فن الأشعار التي استشهد بها قوله .

### النموذج الثالث

الحرب أول ما تكون قتية      تسمى بريتها لكل جهول  
حق إذا حبت وشب شرارها      عادت عجوزاً غير ذات خليل  
شطاء جزت رأسها وتنكرت      مكروهه للشم والتقييل  
ومن هذه الكلمات في وصف جرحى الحرب قوله :

في معترك أومضت فيه بروق المرفعات ، ولعلمت رعود المدافع قتلها غيوت  
السكرات ، وسكرت السيوف بخمر من الدم ، فمر بدت في الرؤس . وعقد العشير  
ملك الموت سرادقا مطنيا بالقنا والحيل ساغبة تقبل ثقلا ، وتعود خففا ، وكأنها  
وقد أعيأها الفارس حيا غضبت على الإنسان قداسه هامة انتقاما . وقد  
استحييت الشمس من خشوة الإنسان فاحتجبت بحجاب الضباب ، وتعلمت  
الأرض من أعماله قولول ذلالها ، وكادت تخرج أثقالها ، فارتمد الرعديد ، وثبت  
الصنديد ، ونادى منادى الحرب من فر من الموت وقع ، ومن كان ينوى أهله  
فلارجع ، طريح على الأرض جريح ذو كبد حرى ، يستجير بإحدى يديه وفوق  
السكبد اليد الأخرى ، يذكر خليفة أو خليفة ، ألمه فراقها مع أمل الرجوع ،  
فما الظن به وقد اختفى نور ذلك الأمل ، ووالدة تألمت به حينا وأرضعته طفلا ،  
وربته يافعا ، وسهرت عليه حالما . ووالدا واساء في كتابته ، وسلاه في حزنه ،  
وتوجع له في مصابه ، ثم تنجلي له الدنيا بزخرفها وزينتها . فيرى مرير عذابها  
حلوا ، وكدر مشاربها صفوا . فهذا هو الإنسان الجريح بسلاح الإنسان ؛  
المطلوبة مساعدته من الإنسان (١) .

### النموذج الرابع

ثم كتب أديب إسحاق فصلا بعنوان ( الأمة والوطن ) . وآخر بعنوان ( حرية الأفكار ) والآخر موضوع الثورة الفرنسية ، بدأه بقوله :

أرى خلل الرماد وميض نار      ويوشك أن يكون لها ضرام  
بل هي شعلة إصلاح كانت في كمن الدهر في عالم الضياء والنور . فساقها  
يد الحسكة بمعدات الحركة إلى عالم الظهور ، وسرت في أوربا من جانب الغرب  
الأقصى ، وكنت في ما وراء المانش أياماً وأعواماً ، منتقلة من صورة إلى صورة ،  
ومن كيفية إلى كيفية ، حتى أعدت لها طريق البروز ، فظهر ضرامها بعد الخفاء ،  
وانبعث منها جرائم الضياء ، فنيرت هيئة الأرض ، وحالة الناس . وطهرت ذلك  
الجانِب من الأرجاس : تلك ثورة الفرنسيين الخ إلى أن قال وإنا

نرى خلل الرماد وميض نار      ويوشك أن يكون له ضرام  
فإن النهلست في الروسية ، والسوسيلست في ألمانيا ، طائفتان قد  
استفحل أمرهما وعظم شأنهما ، وحسبك أن فتاة من النهلست يقال لها  
( ساسولتش ) قد تجاسرت وهي في أرض السلطة ، تحت سماء السطوة ، أن ترمي  
والى الشرطة بالرصاص عمداً . وأنه قام لها بين قومها نصراء وعامون ، وشفعاء  
ومدافعون ، وأن فتي من الطائفة الثانية يسمى ( لمان ) قد تجرأ وهو في أرض  
القوة تحت سماء العظمة ، أن يرمى الملك الفاتح الكبير بالرصاص ثلاثاً ... الخ ...

ثم أراد السكائب أن يقول إن الشعلة التي استضاءت بها الثورة الفرنسية  
قد انتقلت إلى الشرق موطنها الأول ، ولكنه عبر عن ذلك بطريقة أدبية شاقة  
هي طريقة التكسنية ، التي اضطرته إلى الشرح في غضون المقال ، وذلك حيث قال :

د ثم ذكرت تلك الشعلة وطنها القديم ، فحث إليه ، ولا غرو أن يحين  
الغريب إلى وطنه ( نفى الشرق ) مقر جرائم الحركات الدينية والسياسية التي  
غيرت هيئة الأرض ، وأحوال الإنسان ، فسرت إليه تنبه غافله ، وتفقه جاهله ،  
وظهرت في بلاد ( أهورا مازدا ) بين أبناء ( زرودشت ) تحت سماء التقاليد  
( نريد بلاد الفرس ) فإن مذهب البابين نسبة إلى السيد علي محمد الملقب ( باب

المهدى) قد ظهر في تلك البلاد منذ نحو ثلاثين سنة ، وعلق بقلوب الناس قمتذهب به جمع كثير منهم ، وأثاروا الفتنة على الحكومة .

وظلق أديب إسحق يذكر ما يعرفه عن أخبار هذه الثورة الأخيرة ، قائلا إنه إنما يستمد جميع ذلك من بحر معارف أستاذنا الكبير الفيلسوف الشهير ، درة تاج الحكما ، وواسطة عقد العلماء الفضلاء ، السيد جمال الدين الأفغاني نزيل المحروسة .

ومعنى ذلك إذن أن هذه المقالة الأخيرة إنما هي من وحي السيد جمال الدين . ورأينا له - أى لأديب إسحق - بعد ذلك مقالات أخرى في جريدة مصر بعنوان ( أمانى وطنية ) وبعنوان ( توفيق مصر ) وأكبر الظن أنه قصد في هذا العنوان الأخير إلى التورية ، وفي هذا المقال أثنى أديب إسحق كثيرا على ولي العهد الأمير توفيق ، وأتى بهذه العبرة التاريخية التى تفسر له حقيقة العظمة في نظره حيث قال :

#### النموذج الخامس

« فن لنا بنى همة عليية . ونفس ذكية ، ينصب قسطاس العدل في محسنة الإنسانية ، ليعلم الناس على اختلاف مراتبهم ، وقنوع ، وشاربهم . أن من أصلت سيفه ، وأعلن شره ، وقاد الرجال ، وسلك بهم مسالك الأهوال ، لحطام ينتهزه ، أو تار يدركه ، أومقت يقوده ، لجعل رؤوسهم صوامع تصلى عليها وهبان الغربان ، وأجسامهم مطاعم للعقبان ، لا يقاس بمن أصلح من قومه ما فسد . وروج من أحوالهم ما كسد ، ورضى من الأجر ، بحصول الخير ، ومن المغنم اندفاع الشر . وإن الإسكندر بجده اللامع ، وصيته الشائع ، لا يقاس بسنسناتوس الأكار الرومانى الذى انتخب قسلا لجمهورية رومه عام ٦٤٠ قبل الميلاد ، فنهض بأعباء الخدمة ، وحمى أطراف الدولة والأمة ، ولما أتى من ذلك على ما فى الرغبة والنية ، عاد إلى مهنته يطلب منها رزقه . ثم ألت بقومه الأخطار ، فانتخبوه لحكومتهم رئيسا . وذلك عام ٤٥٨ قبل الميلاد ، فدفع الأذى عنهم ، ورد الراحة لإيهم ، ورجع إلى شأنه الأول ستة عشر يوما من رياسته . وفي عام ٤٣٨ انتخب مرة ثالثة لرياسة الجمهورية . وقد مر من عمره يومئذ ثمانون عاما . فنهض بأعبائها ،



وأصلح خلها . ووجد بها نظام الأمن والراحة ، ثم استقال منها لواحد وعشرين يوماً من عهده بها . ومع ظهور فضله ومزيتة في ما أجرى ، لم يقبل عنه مكافأة ولا أجراً ۱۱۱

فما أجدر مثل هذا الرجل بالثناء والإكرام ؛ وما أولاه بالإطراء والإعظام ، بل ما أظهر الشبه بينه وبين ولي العهد توفيق مصر أعزه الله ، في ظل الجنباب الوالدى الخديوى ، حفظ الله وجوده وصان علاه .

إلى أن قال : وكيف لا يحمدون الله وقد خصهم بمليك :

”ذكر الانام لنا فكان قصيدة“ وهو البديع الفرد من أبياتها  
وأخير :

رأيت جميع الناس دون محله فأيقنت أن الدهر للناس ناقد  
ثم قال :

وقد علم قراء صحفنا أن ليس من شأننا الإطراء استجداء ، ولا الوقعة افتراء . وإنما ننظر إلى الفعل لا إلى فاعله ، وإلى القول لا إلى قائله . فإنه ليس وراء الصدق رفعة ؛ وليس بعد الكذب ضعة ، والحق ملك لا ينكسر لواژه ، وإن قل أولياؤه ، فإن لم يشرب هذا الماء على صفائه . ولم يلبس هذا الثوب على بهائه . قرب نفيس رعى به من حائق ، ورب حسناء طالق . . . . . وقد جاء في الأثر الكريم ( من نشر معروفًا فقد شكره ، ومن ستره فقد كفره ) .

إذا أنا لم أشكر على الفضل أهله ولم أذم الوعد اللئيم المذمما  
فقيم صرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامع والفم ؟  
وفى جريدة مصر أبل أديب إسحاق بلاء حسناً فى الدفاع عن المصريين  
ضد الامتيازات الأجنبية . وما كتب فى ذلك فصل قيم عنوانه ( أمانى ) وجاء فى بعض هذا المقال .

#### النموذج السادس

ولا ريب فى أن امتياز بعض الناس عن بعض فى وطن واحد ، يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حساً ومعنى . ووجه الضرر الأول أن معاملة سفلة الإفرنج

بما لا يعامل به وجوه الوطنيين ، من الإكرام لغير علة ؛ والعفو عن الذنب الواضح ، قد بعثهم على التردد ، فاعتسفوا وأفسدوا ما شاءوا ، بحيث لم يحض علينا يوم لم نسمع فيه بأن فلاناً الإبطال أو المايطى ضرب وطنياً بخنجر ، فحمل الجريح إلى المستشفى ، والمجروح إلى دار قتله ، فأودع فيه غرفة رفيعة يأكل بها عيشه رغداً هنيئاً . ثم لم يلبث فيها أن أطلق ، فإزداد بما أكل شرهاً ونهماً . وعاد إلى مثل حاله السابقة ، وأما وجه الضرر المعنوى فهو أن انحطاط منزلة الوطنيين ، وانخفاض جناح ذلمم بالنسبة إلى الأجانب ، يولد فيهم الحسد والكسل ويشرب قلوبهم التهيّب والخوف ، فلا يحتملون الرعائب ، في طلب الرغائب .

وقد حان لهذه البلاد أن تتعش من عثرتها ، وتفلت من ربتها ، بعد أن ضربت عليها الذلة ، وتطامن أهلها للرق صاغرين ، مئات بل ألوفاً من السنين ، حتى ضربت الأمثال بطاعتهم العمياء ، للأمراء والرؤساء ، وكيف لا — وهم الذين احتملوا ظلم الفراعنة ، وقوة الرعاة . وعسف اليونان ، وجور الحاكم بأمره الذى لعب بهم لعبة الكرة والصولجان . . ثم صبروا بعد ذلك على عتو الممالك وجندهم ، وناهيك به صبراً لا تحمله الجمال ، بل لا تقله الجبال ولا نعمدهم على ذلك .

فغاية المفرط في سلسه كفاية المفرط في حربه وأنا لنجلهم عن أن يكونوا قد ألغوا الدل فرضوا به ، أو غافوا أن يكون الإكداء مع السكد ، والخفية مع الطلب ، فقالوا إن رزقنا سوف يأتينا نسعى له فيجهدنا ، ثم نسكن قياتى ولا يعنيانا الخ . . .

والظاهر إن هذا المقال الأخير الذى كتبه أديب إسحاق كان من وحى السيد جمال الدين ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، لأنه من معينسه ، وعلى طريقته في تأدية هذا المعنى .

وحين انتقل أديب إسحق بمجريدة ( مصر ) إلى الإسكندرية ، سار على هذا النهج ، وكتب بهذا الروح ، وصدور عن هذه الثقافة الأوروبية الواسعة .

### ميريرة مصر القاهرة :

ثم انتقل الرجل بميريدته ( مصر القاهرة ) إلى باريس وهو على الحال النفسية التي أشرنا إليها ، فأخذ يكتب المقالات الحادة التي منها مقال له بعنوان « السعادة بعد الشهادة » ، جاء فيه قوله :

#### النموذج السابع

« الحمد لله وحده ، هذه صحيفة مصر ، طواها الاستبداد فثابت شهيدة ، ثم أحيتها الحرية فعاشت سعيدة . ترسل إلى المريدن والأولياء ، ونهاه القراء ، منبهة إليهم أن قد آتاني الله نعمة الحرية ، ومن أوتي هذه النعمة فقد أوتي شيئاً كثيراً ، وسوف ترون مني رواية الصادق ، في رأى الآمل ؛ في عزم الآيس .

« حاول رياض باشا المتصدر في بلاد مصر إطفاء نوري ، وأنى الله إلا أن يتم نوره وإن كره الظالمون ! أماتنى بدعوى الحرص على الخواطر أن أثيرها إلى الفتنة ، بل خاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله ، فزعم أنى ناصبته الشر ، نفرة منه وتشيعاً لسواه ، وما أنا فى شيء من ذلك ، فإنى أعز نفساً ، وأنبى قصداً ، من أن تستميلنى الأشخاص . وإنما أميل مع المقاصد ، فساكن منها ملائماً للشرب الذى أحسبه حقاً :

فذلك من دون المشارب مشربى وذلك ما بين المذاهب منهجى  
وما كان منها مغايراً للمبدأ الذى أراه عدلاً .

رميت به من حائق رعى حائق متى يرم لم يخطئ . وإن ينج يدأب  
« على أن ذلك شأن لا ترتفع إليه مدارك ظالمى ، فقد انحطت نفسه عن درجات المعالى ، فلم ير فى جهادى غير التصد الذاتى ، فأخذنى أخذ المعتدى القاسط :

وكان كذئب السوء إذ قال مرة للمعروسة (١) والذئب غرثان مرم (٢)

أأنت التى فى غير ذئب شتمتنى قتالت متى ذا ؟ قال ذا عام أول

قالت :

ولت العام بل رمت غيرة قدونك أكلنى لاهنى لك ما كل

(١) المعروسة النجدة . (٢) مرم ملتصق بالرمل أوريقي الجلد من الجوع .

بل دون أكلى خرط القتاد ، بل دونه عرين الآساد ، وسترى منى ناراً ،  
شير شراراً تناديه جهاراً :

من أى وجهه تحترق أم أى سوء تستحق  
فالشر للشر خلق

على أنى لا أقصد الانتقام ، وإنما أروم مقاومة الباطل ، ونصرة الحق ،  
والمدافعة عن الشر وآله . والفضل ورجاله .

فسلكى أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً بجانب التصريح ، متجافياً عن  
التعريض والتلميح ، وأن أجلو مبادئ الحرية ، وآراء ذوى النقد ، وأن أبين  
ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ، ومقاصد أهل الحل والعقد ، وأن أوضح  
معاييب النصوص الذين نسميهم اصطلاحاً ( أولى الأمر ) ، ومثالب الخونة الذين  
ندعوهم وهما ( أمناء الأمة ) ، ومقاصد الظلمة الذين نلقبهم جهلاً ( ولاية النظام ) ،  
وأن أعين واجبات الإنسان الشرقى بالنسبة إلى نفسه ، وإلى قومه ، وإلى بلاده ،  
وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق ، وقصدى أن أثير بقية الحية الشرقية ،  
وأهيج فضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيى الغيرة  
فى قلوب العارفين ، ليعلم قولى أن لهم حقاً مساوياً فيلتمسوه ، ومالاً منوهاً  
فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف ، وينبذوا عنهم كل موالس (١) يشتري  
بمقوقهم ثمناً قليلاً ، وينيقوا الخائنين عذاباً ويبلوا ويستصغروا الأنفس والنفائس  
فى جنب حقوقهم ، ويستमितوا فى مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم  
بما يطعمون فيه من رفعة المقام فن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله  
فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن عاش بعد أولئك الشهداء  
فهو سعيد .

هذه الحدة البالغة ، والثورة الجارحة ، كان الشاب يكتب مقالاته فى باريس ،  
لا يخشى بطش حاكم يردده إلى المهدوء والاعتدال ، ولا يحسب حساباً  
لقانون المطبوعات .

---

(١) الموالسة الخداع والحياة ، ووالس الحديث مرض به ولم يصرح : المحيط

وقد اشتمل هذا العدد على مقالات أخرى بعنوان ( أوروبا والشرق )  
« سياسة الإنكليز » ، و « الوزارة الفرنسية » ، و « المفتشان العموميان بمصر » ،  
و « المسألة السككية (١) » في مصر ، ومقالة بعنوان « خرقاء ذات  
نيقة (٢) » موضوعه التهم برياض باشا ، ومقطعات أخرى .

وبودي لو استطعت أن أنقل للقارى جميع المقالات التى اشتمل عليها هذا  
العدد . إذ هى فى حقيقة الأمر تستحق أن نبذل فى نقلها هذا الجهد ، ولست فى  
مكتف هنا بفقرات قليلة من المقالتين الأولى والأخيرة على سبيل المثال ، وسأعود  
إلى المقالات الأخرى عند الحاجة إلى ذلك ، فمن مقالة بعنوان ( أوروبا والشرق ) :

#### النموذج الثامن

« قضى على الشرق جمل عامته ، واستبداد خاصته ، وخيانة زعمائه ، وتعصب  
رؤسائه ، أن يهبط بعد الارتفاع ، وبذل بعد الإمتاع ، ويكون هدفا لسهام  
المطامع والمطالب ، تبعث به أيدي الأجانب ، من كل جانب فمنهم من يغير عليه  
بحجة الغيرة على الإنسانية ، ومنهم من يتطرق إليه بدعوى إقامة أمر المدينة ، ولم  
تر منهم من صدق فى دعواه ، بل كلهم تابع فى ذلك قصده وهواه .  
ثم قال بعد فقرات :

« فإذا لم يتببه الشرقيون من غفلتهم ، ولم ينبذوا عنهم التقاليد الموجبة لتفريق  
كلمتهم . ولم يغذوا ألباب صغارهم بغذاء الحرية ، ولم يرسموا على ألواح صدورهم  
رسم الوطنية ، ولم يعرضوا عن وعيد الخائفين ، ولم يقوموا بأمر السراة الصادقين  
ولم يفضبوا لوطنهم أن يفسب ، ولما لهم أن ينهب ، ولحقهم أن يسلب ، ونجدهم  
أن يذهب ، فما يابثون أن يصيروا عبيد أعدائهم ، وأسراء نزلاتهم . لا ترى فيهم  
بعد حين غير البواب يرفع الصنارة ، ويسدل الحجاب ، والفراش ، يضع الوسادة ،  
ويمهد الفراش ، والسكناس يزيل الغبار والأرجاس ، والسائل ، يطلب الصدقة

---

(١) ضاع لفصل أجنبى فى مصر كلب قامت الحكومة وقعدت ، فأنخذ أديب إسحاق  
من هذه المسألة موضوع مقال سفر فيه من الحكومة المصرية سفرية مرة « انظر الدرر  
ص ١٨٠ » .

(٢) النيقة ؛ بوزن ربيعة : اسم من التنوق فى الأمر ، وهو التألق فيه . وهو مثل  
يضرب للجاهل بالأمر ومع ذلك يدمى المعرفة .

بالدمع السائل ، أما الأمراء فيحرقون ، وأما الأغنياء فيفتقرون ، وأما النبهاء فيهجرون .

« أفليس الموت ، خيراً من هذا الفوت ؟ أيلقى بذى الدم الشرقى أن يصبر على هذا العسف ؟ أم يحسن بذى النفس الزكية أن يرضى بهذا الخسف ؟ أم لا يعلم قومنا أنه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

### النموذج التاسع

وأما المقال الأخير الذى ( عنوانه خرقاء ذات نيقة ) فبدأه بقوله يخاطب رياضاً :

خلا لك الجو فيضى واصفرى      وتقرى ما شئت أن تنقرى  
لا بد من صيدك يوماً فاصبرى !

وختمه بقوله :

ولذا ما خلا الجبان بأرض | طلب الحرب وحده والنزلا  
ومضى ( أديب إسحق ) يحرر الأعداد الأخرى من جريدته على هذا الفرار ، وهو يتحدث عن الشرق وآلامه وعن الوطن وحقوقه ، وعن الاحتلال وسياسته وعن رياض وحكومته ، وعن المسألة الشرقية وغيرها من المسائل الأخرى . وكانت مقالاته لا تخلو من رصانة فى الأسلوب ، وحلاوة فى التعبير ، وقدرة على التحكم ، وقصد إلى التناول على الرئيس رياض بنوع خاص .  
ثم فى هذه المدينة الأوربية التى كان أديب إسحق ينعم فيها بالحرية وهى مدينة باريس ، طفق يكتب الفصول الرائعة والمقالات الدائمة ، فى موضوع الشرق وذله ، والغرب وعزته ؛ كما أخذ يندد بالاستعمار وجبروته ، والظلم وسطوته ، ويتحدث إلى المصريين وغيرهم من الشرقيين عن المجالس النيابية الأوربية ، ويوازن بينها وبين المجالس النيابية المصرية والعثمانية ، ويسخر فى أثناء ذلك سخيرة مرة من الحال السيئة التى وصل إليها المصريون والعثمانيون ، ولا يكتفى الكاتب هنا بإيراد الأمثلة على الحياة النيابية السليمة فى فرنسا ، بل يرجع بذنه وبقرائنه إلى التاريخ اليونانى أو التاريخ الرومانى القديم ، فيستمد منها أمثلة حية يبحث المصريون على

اقتدائها والسعى وراءها ، وبلغت هذه المقالات غايتها من الحاسة والقوة في فصل له بعنوان « نفثة مصدور » سنأتى على طرف منه .

ثم في أوقات قليلة كان هذا الصحفي الثائر يخلو إلى نفسه ، ويمجنح إلى شيء من الراحة والهدوء . ويشغل بأبحاث هادئة ، موضوعها تاريخ العرب حيناً ، وتاريخ المصريين وحدهم حيناً آخر ، وتاريخ جمال الدين الأفغانى حيناً ثالثاً ، ثم تاريخ السكتابة الإنشائية وهكذا .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نقبس شيئاً مما كتبه أديب إسحق في هذه الفترة لنعرض منه نموذجاً كاملاً للقارىء . والحقيقة أننا لا نجد في هذه الفصول قطعة أبلغ من الأخرى ، فنحن مضطرون إلى الاكتفاء هنا بجزء يسير مما كتبه تحت عنوان :

#### النموذج العاشر

##### نفثة مصدور :

« وأنا تحت سماء الإنصاف ، على أرض الراحة ، بين أهل الحرية ، أسمع  
الحانا في مجالس العدل ، فأذكر أنين قوى في مجالس الظلمة ، وتحت سياط  
الجلادين ، فأنوح نوح الثاكلات ، وأرى علام النعمة ، في معاهد المساواة ،  
فأذكر شقاء سربي في ربوع الظلمة ، فأذرف الدمع بترجاء بسواد القلب ، فأكتب  
به إليهم .

« يا قوم ، ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير  
مشكورين ، فهلكتم غير مأسوف عليكم . تصبرون على الظلم حتى يحسبه  
الناظر عدلاً ، وتبتسمون للقيد حتى يظنه الناقد حلياً ، وتحفصون للظالمين جناح  
الذل حتى يقول من يراكم ما هؤلاء بشر إنهم إلا آله سخرت للناس فيفلحون بها  
الأرض ويذرعون .

« يقلب الجائرون عليكم أنواع المكاييد ، وأصناف الحيل ، وألوان  
الخداع فيما يحتلسون ، كما تقلب المشعوذة لدى الأطفال أوجه الودعات في

استخراج ما يضرهم ، فتارة يضرهم المغارم ، تهديد المسالك ، وإنشاء المنافع ،  
وأمره يفرضون الإتاوات ، لإصلاح الشئون ، وإعزاز الدولة ، وحينما يرسمون  
بالضرائب لصيانة الحقوق . وتأيد الاستقلال ، وآونة يجلبون المسال قرضاً  
يحفظونه لكم على سبيل الأمانة ، حتى إذا ملئت بأموالكم الخزائن ، ولم يبق  
على أبدانكم ما يباع ولا في دياركم ما يرهن . سلم الظلة المنافع التي أنشأتم ،  
وباعوا الممالك التي مهدتم . وأذلوا الدولة التي عززتم ، وأضاعوا الاستقلال الذي  
أيدتم ، وأكلوا الأمانة ، فهي في أحشائهم نار يصلون سعيها وهم في جحيمها  
خالدون ، إلى أن قال :

« ولقد رأيت من نواب الفرنسيين من يصعد المنبر فيقول لرجال الدولة  
ترومون وضع هذا القانون ، وإبرام ذلك الحكم ، وتقض هاته العادة ، فاعلموا  
أن هذا القصد مخالف لمصلحة الزارع ، مباين لمنفعة الصانع ، مغاير لحقوق التاجر ،  
وإني أعارضكم فيه وأنكره عليكم . فإن كان ما يقول حقاً أيده غالبية الآراء ،  
فيعدل أهل الدولة عما عزموا عليه . امثالاً لإرادة الأمة ، فتذكرت زارعكم بين  
شيخ يأمره وعميده إنهاء ، ومأمور ينهيه ، ومدير يجلده ، ووزير يتصرف في ماله  
كيف شاء ، وصانعكم بين شرطى يسرقه ، وضابط يصادره ، وحاكم ينفسه .  
وتاجركم بين مكاس يظلمه ، وجاب يسرقه ، وناظر لا ينصفه ، فقلت :

« ورأيت فلاحهم في حقله الصغير يتناول الطعام أكلاً مريضاً ، وينام القبولة  
نوماً هنيئاً ويأوى إلى البيت قياً كل بين عياله ، ويتلو عليهم صحيفة النهار ، ثم  
ينام ملء عينيه لا يحلم بصوت المأمور . ولا يتصور عصا الشيخ ، ولا يذكر حبس  
المدير ، فتخيلتكم بين السواق والأنهار ، تشتغلون سحابة اليوم لتجتمعوا على  
القصة السوداء ، قتلتموها فئات الثمير ، وتسكبوا على التربة ، فتشربوا الماء  
الكدر ، ثم تعودون إلى الأرض المريضة تزرعونها والغلة الوفيرة تحصدونها ،  
لتنصرفوا إلى أكواخ بالية ، تشبه قبوراً توالى عليها السنين . فيجتمع من حولكم  
صغار لا تعرف أبدانهم الوفا ، ونساء تعوضن الأقدار عن الكساء . ثم يأتيكم  
المأمور سالبا ، والشيخ غاصبا ، والمدير ناهبا ، فأتم في بلاء مستقر ، وعناء مستمر



تحدسون البر ولا تأكلون . وتماكون الأرض ولا تسكنون ، فقلت ما علة هذا الفرق بين الطائفتين :

والناس من جهة المثال أكفأ والأصل فيما يقال الطين والماء . فأجاني لسان الحال دع الطين والماء . في صحف القدماء ، فهو العلم يعز طلابه ، ويذل أربابه والأقدام ترتفع به النفوس ، والوهن تنخفض معه الردوس . ورأيت دولتهم تسكأ بالمال رفع الشأن من أئقذ المستهلك . وأجار الخائف ، ورد المقتال ، فتصورتم على ضفة النهر تبصرون الغريق في اللجة ثم تصرفون عنه وجوهاً لا تجهل الحياء ، وتعصون فيه قلوباً لا تنكر الرحمة ، تخافة أن تنغذوه فيأتيكم المأمور سائلاً من الرجل ، وفيهم غرق وكيف لم تخرجوه حياً ، ثم لا يسمع من المنقذ جواباً ، ولا يطلق له سبيلاً ، حتى يقرع باب مسمعه برنة الدينار ، ويحل عقدة ظلمه برقية الرشوة ؛ أو تشد رجله بيده ، ويده بعنقه ، وعنقه بالقيد ، وقيدته بوتد السجن ، فقلت ما نقومنا يظلمون أحياء ، ولا يأمنون العسف أمواتاً فأجاني لسان الحال : هو الذل أمات أنفسكم فصرتم أشباحاً بغير أرواح تنطقون ، ولكن بحكم العادة ، وتسعون ، ولكن بحركة الاستمرار ، ذلك بأن رضيتكم بموت الذل حرصاً على البقاء ، ولم تعملوا أن وجود الدليل عين الفناء ، فعدت إلى الدمع أذرفه ، والهة أرددها ، والزمان أعاقبه ، ثم نظرت إلى السماء نظرة آيس يوشك لولا العقيدة أن يقول : أى قضاء ظالم قدر علينا هذا الخسف ، وأى حكم قاسط أنزل بنا ذلك البلاء ، فغشيتني نور الرجاء ، وخاطبني لسان الأمل ، من وراء حجاب الإخلاص ، بما سأبديه في كتابي الثاني إن شاء الله .

\* \* \*

وهكذا طفق هذا الطائر الفرد — وقد أحس نفسه طليقاً في مدينة النور — يردد شجوه وشكواه من الظلم الذي يرسف فيه المصريون والشرقيون ، ويتغنى بالحرية التي ينعم بها الفرنسيون والأوربيون ولقد شجاء هذا النوح ، واهتزت أوتار قلبه لهذا النغم فاستمر في شجوه ونغمه وهو يقول :

( م ٤ — أدب المقالة ج ٢ )

« لقد آليت أن أبكي الحق في مصر حتى يعود غنصر العود ، فإن عاد فلا أسف على البقاء ، وإن لم يعد فعل الدنيا العفاء » . وفي قوله :

« على أنكم لم تأتوا من منكر يوجب هذا القصاص الآليم ، بل استغفر الله ، فقد أتيت منكر لا يغفر » في صبركم على المنكر ، ومن أغضى عن المنكر على علم به ، ومقدرة على إزالته ، قد شارك أصحابه ، واستحق عقابه ، وأهملت ما حق عليكم ، فلا غرو أن تحرموا ما حق لكم ، (١) ،

وبقي هذا الكاتب الشاعر في باريس يهتف بالحرية ، ويسبح بحمدها في صحيفته ، وهو كلما جرى على لسانه لفظ الحرية ذكر الثورة الفرنسية ، ورد إليها الفضل في إطلاق الإنسان من الأسر والعبودية ، وانظر إليه قد بدأ فصلا من فصوله في هذا المعنى بقوله (٢) .

#### النموذج الحادى عشر

« أبدأ مقالى بالثناء على جرائم الضياء التى بعثتها يد العزمة ، من أفق الحكمة ، فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال ، كلها الحسن بتاج السكال ، فجرت على هام الأوهام مطارف ثوب نسجته يد الصبح ، بغزل شعاع الشمس ، فانبهرت بها مقل الظلام ، ورأها نبهاء الناس نوراً على نور ، فرفعوا لها بينهم مناراً ، وأوقدوا من حولها ناراً تهدى قوماً وتحرق آخرين ، وما يحترق بها إلا المكابرون ، الذين يقاومون الحق بسيف الباطل وبئس ما كانوا يفعلون .

« ثم سرح طرف المقلة . في روضة تلك الطلعة ، وأجعل ثلوى استهلالي ، في رقعة إهلالي (٣) غزلاً أرق من الصبا ، وأحن من عود الصبا ، في قد لا يحاكيه النقص ، وطرف لا يماثله الزجس ، وخد لا يعادله الورد ؛ ونغر لا يقارنه البرق ، وفرق لا يباريه الصبح ، وفرع لا يحار به الليل ، من صورة من تعشقها النفس ، ولا يدركها الحس . فهى مفردة بصفاتها ، لا تشبه إلا بذاتها . يموت في حبها

(١) الدرس ١٦٧ .

(٢) الدرس ١٨٧ — ١٨٨ .

(٣) الإحلال رفع الصوت بالتكيد ونحو ذلك .

العشاق غيرة عليها . ثم لا يمتنعونها عن المشتاق إليها فهي المورد يراه الظمان ،  
والمأمن يجده الخائف ، والسبيل يلقاه النائه ، بل مقصد الساعي يناله بعد اليأس ،  
وكلمة العفو يسمعها من كان على النطع . بل هي فوق ما يصف الواصفون ، وينعت  
العارفون ، بل هي « الحرية » ، وكفى بذلك وصفا لقوم يعقلون . الخ . .

ثم أنبع ذلك بأبيات من الشعر ، أكبر ظنى أنها من نظمه هو ، لا من  
نظم شاعر سواه . وهي قوله :

إذا غاب وجهي عن حماكم لعل	قلبي لديكم كل يوم يسلم
وما عاقني إلا عدو مسلط	بذل ويقص من يشاء ويرغم
ولم يستقل إلا بكم وبحولكم	ولا ينبغي أن يمنع العز مجرم
فكستموه فاستطال عليكم	وكدت بنا نيرانه تضرم
وجمع خوانا لصوصا أسافلا	ومنام أن يقتلوكم ويغنموا
فصار له في كل يوم جباية	جباية آلاف تمهد وتختم
وصار لأهل الشر روح وراحة	به ولأهل الخير صاب وعظم
وأتم عليه صابرون لتؤجروا	ولكن صدم الشر بالشر أحزم ،

وعلى هذا النحو راح الرجل يتغزل بالحرية غزلا هو إلى الشعر أقرب منه  
إلى النثر ، وذلك لما في هذا الغزل من شتى التشبيهات المتلاحقة ، والاستعارات  
التي يتلو بعضها بعضا ، والصور البيانية التي ازدحمت في عبارته ازدحاما قل أن  
يحتمله النثر الأدبي ، بله الصحفي . على أن أسلوبه في هذه العبارة لم يخل من تكلف  
سنشيره إليه في موضع آخر .

وأخيرا عاد الكاتب إلى مصر حيث أذن له — كما قلنا — بالعودة إلى  
جريدة ( مصر ) ، فأخذ يكتب فيها فصولا عليها طابع الهدوء ، كما شرع يعالج  
فيها أمورا أخرى غير السياسية البحتة ، كأمير التعليم وأمر السفور ، وبقي على  
ذلك حتى اضطرت الظروف إلى مغادرة مصر إلى بيروت حيث التقى للمرة الثالثة  
بجريدته القديمة ، ونعني بها جريدة ( التقدم ) كما رأينا .

من هذه النماذج القليلة التي استعرضناها لأديب إسحق نستطيع أن نقول في صراحة بالغة : إننا لا نبالغ كثيراً إذا نظرنا إلى هذا الصحفي الشاب على أنه من رواد النهضة الحديثة في النثر والرسالة . بل إننا لا أتدرب في أن أضغه على رأس الصف الأول من صفوة الأدباء الذين نهضوا بالنثر العربي من عقابه . وأضافوا على الكتابة الصحفية هذا الجمال ، ونهضوا فيها ذلك الروح وهبوا لها تلك الحياة والحركة .

والحق أن أديب إسحق رجل عامي في نشأته الأدبية ، فقد نبغ في الأدب في سن مبكرة كما رأينا ، يدل على ذلك كثرة ما وضع من الكتب الأدبية ، وما ترجم من الروايات الأجنبية ، فلم يسكد يتم الثامنة عشرة من عمره حتى كان له ديوان شعر يزيد أبياته - فيما قيل - على ألف بيت ولقد طبع ديوانه هذا باسم ( أنيس الجليل ) وبعد هذا الوقت بقليل رأينا يترجم قسماً من ( معجم المعاصرين ) وإن عجز عن تقديم ما ترجمه من هذا المعجم إلى المطبعة . وألف كتاباً باسم ( نزهة الأجداد ، في مصارع العشاق ) وترجم لصاحب جريدة التقدم كتاباً ( في العادات والأخلاق ) واشترك مع سليم الخوري في إنشاء كتاب ( آنا الأدهار ) وكان ذلك في التاسعة عشرة من عمره تقريباً . وفي باريس - كما رأينا - اشتغل بتأليف كتاب ( تراجم أهل مصر : في هذا العصر ) وذلك كله عدا الروايات التي ترجمها كرواية ( أندروماك ) ورواية ( شلمان ) أو الروايات التي ألفها كرواية ( الحادثة الصينية ) ورواية ( غرائب الاتفاق ) وإن شاباً يشتغل بهذه الكتب جميعاً ترجمة وتأليفاً وتصنيفاً ، ثم هو لا يقف عند هذا الحد حتى يروض نفسه على صوغ الشعر . ليعتبر أعجوبة من أعاجيب عصره ، حتى ولو لم تسكن هذه الجهود التي أفق فيها وقته قيمة إلى هذا الحد يرضى عنه ناقد أدبي ينظر إلى المثل الأعلى .

على أن شيئاً آخر يدلنا على ميول هذا الشاب الأدبية من جهة . ويزيدنا اقتناعاً بأنه من رواد النهضة الحديثة في النثر من جهة ثانية . وهذا الشيء هو أن ( أديب إسحق ) كان من أكثر الصحفيين في القرن الماضي عناية باللغة . وبسلامة

الأساليب . وانظر إلى أديب إسحق يقول في جريدة التقدم (١) .

« وأما مقصدنا الأدبي فهو تعميم التعليم بتقريب المعاني الأدبية ، والقضايا العلمية لأفهام العوام ، وإيصالها لأذهانهم من طريق الصراحة المطلقة في الكلام ، بحيث تكون عباراتنا الأدبية والعلمية قريبة المأخذ ، بعيدة من مواضع الأشكال » .

وإلى قوله في جريدة مصر (٢) .

« ومنها . أى من الأمور التي التزمنا الجريدة — تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة ، وتنقيح الكلام ، وتقرير المعنى في الأفهام ، وإطراح ما يشجى من اللفظ عن مضاجع الرقة ، وما كان منه غريباً تنفر منه الجواهر ، وتشتد النفوس ، فإنه لا عذر لمن يقول عققل ، وفي اللغة كثيب ، وقدموس ، وفيها قديم ، والشهر المنصرم ، وفيها الماضي والسابق ، والغابر . والمنسلخ ، والمنحسم وكثير غيرها ، وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ، وأطراحنا فاسد التركيب وعامية فإنه داء إذا سرى في عامة الناس ألمات اللغة ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم » .

وإلى قوله في جريدة مصر أيضاً بعد انتقالها من القاهرة إلى الإسكندرية (٣) ، رأيت من الواجب على :

أولاً : أن أصرف العناية والاجتهاد إلى تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة ، لتقرير المعنى في الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ؛ وانتقاء اللفظ الرشيق ، للبعث الرقيق ، متجنباً ما كان من الكلام غريباً وحشياً ، أو مبتذلاً سوقياً ، فإن التهافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى في القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم ، والتنازل إلى ألفاظ العامية يقضى بإماتة اللغة وإضاعة محاسنها ، وأن في لغة القوم لدليلاً على حالهم » .

---

(١) العدد من ٣٧١

(٢) من ١٠٨

(٣) من ١٤٠

بل إن ( أديب إسحق ) لم يكتف بذلك حتى قام بطائفة من البحوث الأدبية في صناعة الكتابة ، على النحو الذي نراه في كتب النقد القديمة فكتب بعنوان « مطلب في صناعة الكتابة » (١) عن حد الكتابة وأقسامها ، وعن النثر المسجوع ، وعن رأى ابن خلدون في السجع والمرسل ، وأورد أمثلة من بليغ الكلام في كل ذلك ، وبحث في نشأة السجع في اللغة العربية ، ثم بحث في صفات الكاتب وما يحتاج إليه ، وتكلم في الأسلوب وما يراد بهذه الكلمة عند إطلاقها ، وبحث في اختلاف الأساليب باختلاف أصحابها ، إلى آخر هذه البحوث التي تنهض دليلاً قانعاً على تأصل الميول الأدبية في نفس هذا الفتي ، وعلى أنه كان من أصلح من رآه القرن التاسع عشر للقيام بهذه المهمة الشاقة في ذلك الوقت ، وهي مهمة تقويم الأساليب العربية وإقالتها من عثرتها .

\* \* \*

ونعلم أن منهج أديب إسحق السياسي قائم على تقوية الدولة العثمانية ، والعمل على توحيد الشعوب التي تألفت منها ، ورغم أن أديب إسحق كان عصبي المزاج ، فإنه كان في ميدان السياسة من دعاة الاعتدال . ولتلك الأسباب المتقدمة كانت عناية أديب إسحاق بأخبار الدولة العلية وبالشام لا تقل عن عنايته بأخبار مصر . وانظر إليه حيث يقول في جريدة التقدم حين تولى تحريرها للمرة الثالثة (٢) :

« وأما مسلكنا في الرواية فهو نقل الأخبار عن نطاق الصحة ، ومواضع الرجوع ، والنشبت فيها قبل النشر ما أمكن ذلك في صحف الأخبار بحيث لا نخطئ إلا معدودين . ثم إننا نتخذ منها ما كان بمصلحتنا أمس ، ولبلادنا أقرب ، وباهتمامنا أحق مبتدئين بأخبار بلادنا العثمانية ، ثم بأخبار سائر الممالك الشرقية ، ثم بأخبار البلاد الأوروبية ، أقربها قبل القريب ، وأهمها قبل المهم ، معولين في كل ذلك على الصحف الخطيرة المشهورة بصدق الرواية ، واعتدال الرأي ، .

وهذه العبارة وإن كان قد صدر بها جريدة التقدم ببירות إلا أنها توضح لنا السياسية التي كان يسير عليها بمصر .

(١) ص ١٤٠

(٢) الدر ص ٣٧٦ — وانظر مقالاً له بعنوان (الإصلاح) — الدر ص ٣٣١ — ٣٣٨

وأما من حيث منهج أديب إسحق الاجتماعي فإننا نرى له عناية عظيمة بالأخلاق والتعليم العام ، ووجوب عمله إجبارياً وفي متناول الجميع على السواء . فالجهل — في رأيه — ضعف ، والضعف يؤدي إلى الرذيلة (١) وكان يرى أن التعليم حق من حقوق المرأة . ولهذا كان من أكبر المدافعين عن حقوقها ، والداعين إلى رفعها .

واعتمد أديب إسحق في الإصلاح النيابي بمصر على طريقته التي أشرنا إليها ، وهي الموازنة بين حالة الأوروبيين وحالة الشرقيين في ذلك . وقد رأينا كيف كان أديب إسحق يندد بالصريين ؛ بل يتهم بهم تنكها لاذعاً ؛ ويسخر سخريه مرة من خوف المصريين الشديد من الأجانب . ويكفي أن نقرأ له في ذلك كلمة عنوانها ( المسألة الكليية في مصر ) (٢) حكى فيها أن أحد رؤساء الإنجليز في مصر فقد له كلب ، وجعل من هذه الحادثة اليسيرة مسألة خطيرة ، قامت لها الحكومة المصرية وقعدت ، ولم يقر لأحد قرار فيها حتى عثر على كلب الرئيس الإنجليزي ١١

وانظر إلى أديب إسحق يبدأ كلمته هذه بقوله :

« لقد ضربت العرب الأمثال بالمناعة . فقالوا أمنع من عقاب الجو ، وأمنع من لمة الليث ؛ وأمنع من حمى كليب . ولكن ما كل كلام يصلح لكل عصر ؛ فأنا في الزمن الذي يقال فيه : أمنع من كلب الأجنبي في مصر . »

ثم سرد الحادثة التي حدثت سرداً أدبياً ؛ ووصف كيف انطلق القنصل بلباس الصيد إلى وزير الخارجية يطلب رجوع الكلب إليه أو يجعل أمره مسألة سياسية ؛ فاهتز الوزير لذلك اضطراباً ؛ وعد فقد الكلب مصاباً ؛ وكتب إلى مأمور الضبطية يقول . . الخ .

ولأديب إسحق في هذا الباب مقالة بعنوان ( المقيم والمقعد ) (٣) لولا أننا في مقام التلخيص لذكرناها كاملة .

\* \* \*

### خصائص الأسلوب عند أديب إسحق :

(وبعد) فقد كان علينا أن نأتى بمقال كامل لأديب إسحق أو مقالين كاملين . ولكننا قد اكتفينا بالقطع التى اقتبسناها من أسلوبه ، ونستطيع بعد ذلك أن نلخص مزايا الأسلوب فيما يلي :

أولاً : فى أنه أكثر الكتاب الصحفيين جنوحاً إلى الزينة اللفظية ، يصطنعها فى صفحه ولا يكتفى بها فى رسائله الإخوانية وكتبه الأدبية ، كما فعل غيره من أدباء عصره . وهو يحب السجع ويميل إليه . فإن فاته السجع فإلى صنو السجع فى النثر العربى وهو الأزدواج ، وكان هذا السجع أو الأزدواج يشبع رغبة ملحة فى أعماق نفسه ، ويربح أعصابه فى الكتابة ، ويتمشى مع حركاته العصبية التى لا يجد مفرأ من الخضوع لها ، وذلك رغم أنه صرح بأن النثر المرسل من كل قيد أفضل من النثر المقيد بالسجع وغيره ، ولم يكن فى هذا رأى الأخير إلا مقلداً لابن خلدون وأمثاله من الكتاب ، الذين لم يجدوا فى أنفسهم قدرة على التزام هذه القيود . وكما كانت مدرسة البديع فى الأدب العربى تميل إلى ثلاثة أنواع متلازمة من أنواع البديع هى : السجع والجناس والطباق ، أو المقابلة ، فكذلك وجدنا أديب إسحق يميل إلى هذه الأضرب الثلاثة المتلازمة ، ومن الأمثلة على جناسه قوله : « حتى صارت مدارسنا دارسة ، لا دارس بها ولا دارسة » (١) .

وقوله : « وقلوبنا تحترق فى بلاد تحت رق » (٢)

وقوله « وإلا فما الحجاز محجوز الأنوار ، وما للشام مشغوم الأحوال » (٣) .  
ومن الأمثلة على الطباق عند قوله .

« فنفرنا إلى لقائه خفافاً وثقالاً ، وعرضنا للأخطار والعناء أرواحاً وأموالاً ، وقابلنا سواد ذلك العدو الأزرق ، بببيض خضبتناها بالدم الأحمر » (٤) . ولكتاب البديع المسرفين فى اتباعه سقطات لا نغنى على الناقد ، ولكن من الحق أن يقال عن « أديب إسحق » أن سقطاته البديعية أقل من أن يعدها عليه النقد ، أو يطعنه من أجلها الناقد الأدبى .

(٢) ص ١٩٤

(٤) ص ١٢٨

(١) الدور ص ١٢٠

(٣) ص ٢٠٢



وربما كان من هذه المفوات البديعية - في نظري أنا على الأقل - تلك العبارات التي وصف بها الكاتب أعضاء مجلس النواب المصري حيث قال :

« تقتطق أوتار أفواههم بما يضع لها الرئيس من توافيع المآرب ، وألحان المطامع ، ليثبت ما يعربون عنه بالحن المقصود في سفينة أنغام الرياء ، والمعروفة بالوقائع المصرية » .

والشاهد عندى في قوله « سفينة أنغام الرياء » ، فلست أرى في لفظ « سفينة » أية مراعاة للنظير تتفق والألحان والأنغام والتوافيع<sup>(١)</sup> ؛ وأمثلة هذا التعقيد قليلة كما قلت في أسلوب أديب ، وهي إنما تأتي من طبيعة هذا الشاب وقصده دائماً إلى أن يشق على نفسه في الأداء ، وأن يقرب التعبير الصحنى من الأدب الصرف ما استطاع .

ومن هفواته كذلك الإسراف في حشد ألوان كثيرة من البديع في جملة واحدة كما فعل ذلك بالجملة التي ذكرنا نصها وهي قوله :

« أبدأ مقالاً بالثناء ، على جرائم الضياء التي يبعثها يد العزمة ، من أفق الحكمة ، فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال ، كللها الحسن بتاج السكال ، فخرت على هام الأوهام مطارف ثوب نسجته يد الصبح ، بغزل شعاع الشمس ، فانبهرت بها مقل الظلام الخ » .

فهى عبارة وإن كانت جميلة إلا أن بها ضرباً من التعاضل في الكلام ، وانظر معى إلى جرائم الضياء ، ويد العزمة ، وأفق الحكمة ، وستر الظلام ؛ وهام الأوهام ، ويد الصبح ؛ وغزل شعاع الشمس ؛ ومقل الظلام ، كيف اجتمعت كلها في صعيد واحد ، وركب بعضها بعضاً في جمل لا تستغرق من المقال أكثر من ثلاثة أسطر .

ذلك ما قصدنا إليه من وصف أسلوب هذا الشاب في تلك الفقرة بالتعاضل ، أو اجتماع الصور البيانية وازدحامها على هذا النحو .

---

(١) كان الأولى بالكاتب أن يستبدل بلفظ سفينة لفظاً آخر مثل صندوق . أو لوحة أو غيرها مما يفتق وأدوات الموسيقى .

ثانياً : لأديب إسحاق كلف ما يبراد كلامه مورد الحكمة ، وصوغه في قالب المثل وأكثر ما يكون في ذلك في نهاية الفقرة أو نهاية المقال . حتى تكون الحكمة بمثابة تلخيص جميل لما في هذه الفقرة . أو ذلك المقال ، فوق أنها تقوم فيهما مقام الاستشهاد بالشعر ، أو التسلق على كلام غيره من الكتاب والشعراء .

وقد مررت بنا أمثلة كثيرة من أمثال هذه الكلمات لأديب إسحق . كما في قوله . « ولو فعل كل امرئ ما يستطيع من منفعة لمارأينا على وجه الأرض شقياء » وقوله « أن كلمة بما تدعو إليه الحكمة لأنفع من كتاب بما تبعث عليه الأهواء » . « وأن سطرأ ما يؤلف بين القلوب لخير من فصل مما تختلف عليه الآراء » .

ثالثاً : على أن ذلك لم يمنعه من الاعتماد اعتماداً يوشك أن يكون تاماً على الاستشهاد بالأشعار . وقد أظهرنا أديب إسحاق من ذلك على مهارة فنية خليقة بالإعجاب ، وعلى ثروة أدبية كنا نستكثرها على هذا الشاب حتى عرفنا كيف تعب في تنشئة نفسه على النحو الذي شرحناه .

والأشعار التي استشهد بها أديب إسحاق كثيرة . منها على سبيل المثال :

الحرب أول ما تكون فنية تسمى بزيتها لكل جهول (١)

وما حب الديار يهيج وجدى ولكن حب من سكن الديار (٢)

أرى غل الرماذ وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام (٣)

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد (٤)

إذا أنا لم أشكر على الفضل أهله ولم أذمم الوغد اللئيم المذموم (٥)

فقيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامح والنما

وغيرها كثير . وهذا كله عدا الأشعار التي هي من نظمه لامن نظم سواء من الشعراء أو الأدباء .

رابعاً : ولشدة التحمس الذي كان يبدو من أديب إسحاق ولازدحام قلبه

(١) الدرر ص ٩٨ : (٢) الدرر ص ١٠١

(٣) الدرر ص ١٠٣ : (٤) الدرر ص ١١٣

(٥) الدرر ص ١١٦

بشقي المشاعر والأفكار جاء أسلوبه خطايا في كثير من المواضع . كما في قوله يخاطب المصريين في مقالة ( نفثة مصدور ) (١) .

« يفتنون ألبابكم بأساليب الرياء ، ويضعفون قلوبكم بصور المخاوف والأوهام ويقتلون أذهانكم بسموم الخداع ، ثم يمحون عنكم الحقائق . وبطفثون من حولكم الأنوار ، حتى إذا رأوكم في ظلمات الجهل لا تبصرون ما بين أيديكم ، ولا تهتدون مسالك النجاة . تداعوا إليكم وتساقطوا عليكم ، ينجبون الأموال ، ويهتكون الجرم ، ويسلبون الحقوق ، ثم يمزقون الأبدان جلداً بالسوط ، وضرباً بالحرارة ، وطعناً بالحرية ، وقطعاً بالحسام . »

خامساً : وكانت لأديب إسحاق مقدرة كذلك على الاقتباس من القرآن ومن الحديث ؟ بل كان يستطيع في بعض الأحيان أن يصطنع ألفاظ القرآن وأن يصطنع طريقة تذكر بطريقته في الأداء ، وإن كان الفرق عظيمًا جدًا بين العريقتين وانظر قوله (٢) :

« لقد أتى النباه في مصر شيئاً إذا ، يكاد يزلزل ربا الحيف ويهدد حصون الظلم هداً ، (٣) .

وكما في قوله (٤) :

« والعصر ، إن الظالم لفي خسر ، فإذا الخواطر ثارت ، وإذا الألباب استنارت ، وإذا روائد الأخبار سارت . فبشر أهل الظلمات بعذاب الأنوار ، لأنها لتبهر الأبصار وتشرذم الأفكار ، ثم قال :

« سمعت يابن الاجتهاد ، وجاهدت في الحق خير جهاد ، وتلوت علينا من آي الحرية ، ما أوحى إليك الإنسانية ، قلنا ذلك البيان لا ريب ، فيه هدى للشرقيين .

---

(١) الدرر ص ١٥٦ (٢) الدرر ص ١٧٥

(٣) يلاحظ القارئ هنا أن قوله يكاد يزلزل ربا الحيف تساوى بالضبط قوله يزلزل الظلم هذا ، وما هكذا يكون الإسهاب .  
(٤) الدرر ص ٢٠٦ .

سادساً : لأديب إسحاق خيال واسع ، فقرأ يبدأ مقالاته وفصوله أحياناً بحركة تشبه حركات المسرح ، وخیال كإخيلة الشعراء ، حتى يجذب إليه ذهن القارئ بقوة كما في قوله في مطلع مقال له كتيبه تحت عنوان ( البنت ) (١) ،

« إما ترى في الحجرة مقعداً خشناً عارياً ، وقابلة أو طيبياً منأملاً مراقباً ، ورجلاً مغبر الوجه يدعواقه فتم امرأة على وشك الولادة ، وإما تسمع من تلك الحجرة صوتاً غريباً ، يليه من جانب الحضور اهتمام وارتباك ، فهناك مولود جديد يتساءلون عنه ، فيقول قائلهم بنت . وإطالما اسودت الوجوه بمثل هذا القول في المصور الحالية ، بل سل اليوم عنه فلاحاً ما ، يجهك بما أجبني مزارع يرتوني حين سألته كم ولدك ؟ فقال « آه ياسيدي لا ولد لي ، وليس عندي غير بنات ، ١ .

وكما في قوله في مطلع كلمة لها عنوانها ( إحسان الحسان ) لمناسبة جمعية خيرية تألفت من بعض السيدات المحسنات في بيروت (٢) :

« أأعرك البدر بحياه ، وحيالك الروض برياه ، فسرت منك نسيمات الربا ، سحراً تحمل شيخاً وثماماً ، وتمشت فيك أرواح الصبا ، يتأرجح بأنفاس الخزامى ، أم أنت غيبرى بمسكارم الكرائم ، ومبشرى بإحسان الحسان ،

وأديب إسحاق إذا قورن بالأستاذ الإمام من حيث استخدام الألفاظ يظهر بوضوح أن ألفاظه أدنى من ألفاظ الإمام إلى الجزالة والفحولة . والجمال . ولتأصل هذا الميل في نفس هذا الشاب ، تراه لا يرضى لنفسه قط النزول بمقالاته الصحفية — مهما كان لونها — إلى مرتبة الحديث العادي ، أو مرتبة قريبة من الحديث العادي .

وآية ذلك أنك تقرأ في صحف أديب إسحق كثيراً من المحاورات الفكاهية ، التي يجريتها على لسان رجل عاى ، ورغم ذلك تأتي نفس هذا الشاب أن ينزل في هذه المحاورات الفكاهية الشعبية إلى اللغة العامية ، مع أنه لو فعل لكان له

(١) الدر ص ٢٩٩

(٢) الدر ص ٣١١

العذر كل العذر في ذلك ، فقد سبقه إليه تحول الكتاب في الأدب العربي ، كالجاحظ وغيره . ولكن قلباً مثل قلم أديب إسحق بكبر عاياه أن يجرى على الصحف بلفظ مما يدور على ألسنة العامة ، ومن هنا كان الفرق عظيمًا في ذلك بين رجل كأديب إسحق ورجل آخر سيختص بفصل من فصول الكتاب ، وهو - السيد عبد الله النديم - والآخر - كما سنرى - كاتب شعبي بكل ما في هذه الكلمة من معنى (١) .

وباختصار نرى أنه قد اجتمع في يد ( أديب إسحق ) من الأسباب ما لم يجتمع مثله في يد غيره ، ليكون رجلاً تشرحين تقرأه أنه أديب يتعالى في لفظه ، وكاتب يباهى بصناعة الكتابة ، ويعرف لها قدرها . وصحفي ذو قدرة على الأداء ، وفي أدائه تسام إلى درجة من الفن والجمال قلما تنهيا لغيره من الناس .

أجل ، كان لأديب إسحاق من المميزات ما يؤهله لأن يكون أديباً هذا شأنه : فن تنوع في الثقافة ، إلى استيعاب للأدب العربي والقرآن وبعض الحديث ، إلى معرفة جيدة جداً بتاريخ الشعوب والحضارات ، إلى علم واسع بأصول هذا الفن الذي نبغ فيه منذ الصغر ، وهو فن الكتابة ، إلى رقة في الإحساس ، وإرهاق في المشاعر ، لا يظفر بهما إلا شاعر ، إلى خيال عجيب لا يجد مشقة في إبداع الصور الخيالية الراقية في أكثر الأحيان إلى غير ذلك من الخصال الأدبية الفنية الخالصة .

والحق أن كتابة أديب إسحاق ليست إلا ذوب قلبه ، وعصارة عواطفه ،

(١) انظر « محاوره فكاهية » بكتاب الدرر ص ٣٧٧ بدأها بقوله : « جاءنا في مكتب الجريدة أمس قبل الظهر في خالق الثياب ، مقطوع اليد ، حان القدمين ، في كفه شيء من الخصار والبقل والفاكهة غيا بتردد وخوف ، ثم أدخلنا في المحاوره الآتية على مسمع من الزائرين »

ثم ساق أديب إسحاق المحاوره التي جرت بينه وبين هذا الفتى ، فجاءته هذه المحاوره كلها باللغة العربية الفصحى ، لا باللغة العامية التي لا يحسن الفتى غيرها ، بحكم أنه أمي ،

(٢) الدرر ص ٢١١

ولو لم يكن (أديب) كاتباً ممتازاً لكان شاعراً ممتازاً . ولو تقدم به العصر لكان لنا فيه رجل كابن الرومي رقة حس ، أو كأي تمام دقة صنعة . ولكنّه عاش في عصر غلبت فيه الصحافة على كل شيء ، وأصبحت اللون السائد على غيره من ألوان الأدب ، فكان لابد له من أن يكون ذلك الصحفي ، الذي إن قلنا أنه كان ديب الشرق الأدنى في الربع الثالث من القرن الماضي ، لم نبعد عن الحق ، ولم نسرف في المقال .

والحق أيضاً أنك مهما ذهبت تقسو على هذا الرجل ، أو تتكلف الدقة في الحكم عليه ، ليقول الناس إنك عادل في رأيك تزيه في نقدك ، لم تجد له غير عيب واحد هو أنه شديد الاعتزاز بأسلوبه ، وإن لم يقل للناس صراحة أنه يعتز به . وإذا وافقتك على ذلك ، فإنما مصدره عندي أن هذا الكاتب شاب ، وأنه مأخوذ بفتوة الشباب . وعندي أنه لو عاش هذا الأديب المغتر بأسلوبه عشرين سنة أخرى ، لتغير في أثنائها أسلوبه بتغير أخلاقه ، فكنت ترى فيه نواضعاً يحل في أدبه محل الاستعلاء ، وكنت ترى آثار هذا التواضع واضحة في تركيب الجملة من ناحية ، وفي اختيار الألفاظ نفسها من ناحية ثانية .

ألا ما أشد الصلة - في نظري - بين الطبع التي تميز الأدباء ، وما يلششون من أدب هو عندي صورة لهذه الطباع .

## الفصل الرابع

### حياة الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ

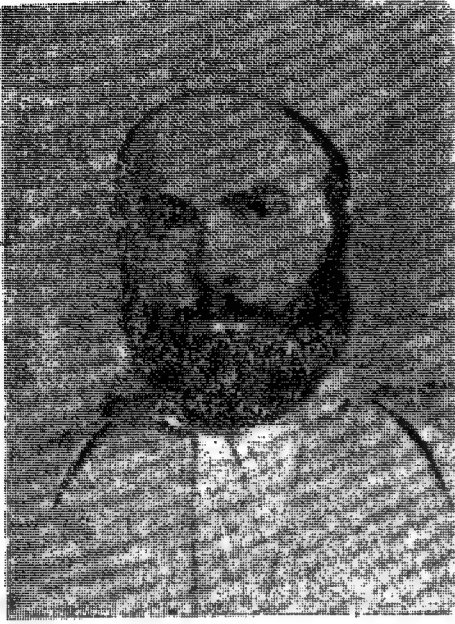
١٨٤٩ - ١٩٠٥ م

توحي قراءتنا لتاريخ أولئك الرجال الذين وعدنا بالحديث عنهم في هذا الكتاب بأشياء ، منها أن حياة كل واحد منهم يمكن أن تلخص حياة مصر كلها ، من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية ، حتى ينجل إلى الباحث أنه كان هناك شعور عام بضرورة الإصلاح ، وأن هذا الإصلاح لا ينجح في نظرهم إلا إذا شمل هذه النواحي كلها في وقت معاً .

وشيء آخر توحي به قراءة التاريخ المصري من خلال التاريخ الخاص بأولئك الرجال هو أنه في القرن الماضي كانت بذور الإصلاح السياسي والأدبي والاجتماعي قد بذرت ، وتمهدا أولئك الرجال بالصق والقاء ، حتى كان القرن الذي نعيش فيه . قلم يزد رجاله على أن جنوا مازرعه الذين من قبلهم .

فالرفق السياسي ، والإصلاح الاجتماعي ، والنهضة الأدبية . والجامعة المصرية ، وغير ذلك من نواحي النشاط المصري في الوقت الحاضر ، إنما هي أثر من آثار الجهود التي بذلها عظماء القرن الماضي ، وثمرة من ثمراتهم ، لا أكثر ولا أقل .

غاية الأمر أن كل جماعة منا اليوم تخصصت في ناحية من نواحي الإصلاح بعد أن كان رجال القرن الماضي لا يعرفون هذا التخصص ، فإذا ذهبت تترجم حياة رجل من رجال القرن العشرين ؛ لم تجد أن حياته تلخص حياة مصر كلها ، كما تجد ذلك في كثير من تراجم القرن التاسع عشر ، ومن هذه الأخيرة



الاستاذ الإمام محمد عبده

ترجمة الأستاذ الإمام الشيخ  
محمد عبده وهو كما تعلم من  
أبناء الفلاحين ، وقد أشرنا  
من قبل إلى أنه إذا كان عصر  
محمد علي يمتاز بأشياء ، فأولها  
أنه اعتمد اعتماداً تاماً على هذه  
الطبقة ، فتألف منها الجيش  
الذي أعان الباشا على الفتح ،  
وتألف منها الجيش الذي  
حارب به الجهل في مصر ؛  
وكان محمد عبده من أولئك  
النفر الذين أعدتهم العناية  
الإلهية لهذه الغاية الأخيرة .

## سيرة الأستاذ الإمام

نشأ محمد عبده بقرية « محلة نصر » من قرى مركز شبراخيت بإقليم البحيرة .  
وهنا نجد الأستاذ العقاد يعظم من شأن هذه القرية فيقول : « قرية محلة نصر هذه  
إحدى القرى الصغيرة في إقليم الريف . ولكنها على صغرها كانت من تلك  
القرى التي يصح أن يقال فيها إنها موصولة التاريخ بتاريخ القطر كله . ذات كيان  
اجتماعي مكن تتمثل فيه أحداث اليهود ويحس أهل فيه طواريء الزمن من عهد  
إلى عهد ، بل من ولاية إلى ولاية . . . ولا يخضر لنا أن هذا شأن عام مشترك  
بين جميع القرى في هذه الأنحاء . الخ .

أننى العقاد على هذه القرية وأنى بشيء من أخبارها التاريخية وأشار إلى رحلة  
معروفة قام بها الرحالة الشهير عبد الطيف البغدادي إلى هذه الجهة وقال إنه رأى



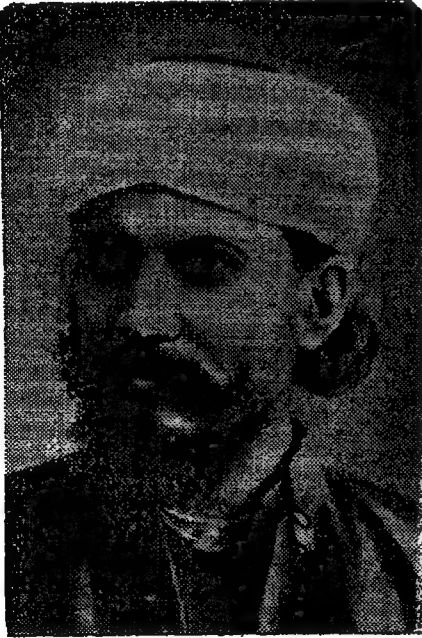
فيها بيوتا ثلاثة كبيرة وهي : بيت الشيخ محمد عبده ، وبيت خير الله ، وبيت  
الفرثواني .

في تلك القرية نشأ محمد عبده يركب الخيل ويشغل بالفروسية ، وذلك أنه عاش  
في هذه القرية بمعنى من العمل وكسب الرزق . وتعلم الكتابة والقراءة في منزل  
والده . ثم عهد به إلى رجل من الصالحين في القرية لتحفيظه القرآن الكريم . ثم  
بعث به أبوه إلى طنطا ليتلقى العلم في الجامع الأحمدى حيث قضى سنة ونصف سنة  
وهو لا يفهم شيئاً كما يقول لرداءة طريقة التعليم وهي بعينها طريقة الأزهر الذي  
التحق به الفتى فيما بعد . فاقطع عن العلم برهة ، ثم كان الفضل في عودته إليه بعد  
ذلك للشيخ درويش وهو رجل من الصالحين وأرباب التصوف .

### مع جمال الدين الأفغانى

في ذلك الوقت أى في الثلث الأخير من القرن الماضى كانت الصلة بين الأزهر والعالم  
الحديث توشك أن تكون مقطوعة . ولكن الله تعالى قبض للأزهر من بعض طليعته بهذا

العالم الحديث - قبض لهم جمال الدين  
الأفغانى الذى التفت حوله كثيرون  
من الطلبة ومنهم محمد عبده فوصلهم  
ببعض العلوم الرياضية والفلسفية ،  
وخلقهم بذلك خلقاً جديداً بكل ما  
تحمل هذه الكلمة من معنى . وفي  
ذلك يقول الشيخ محمد عبده في براءة  
وإخلاص :



« إن أبى وهبى حياة يشاركنى فيها  
على ومحروس - وهما أخسواى  
المزادعان - أما جمال الدين فقد وهبى  
حياة أشارك فيها محمد وإبراهيم وموسى  
وعيسى وغيرهم من الأولياء والقديسين . »

السيد جمال الدين الأفغانى

( ٥٢ - أهم المقالات ٢ )

ومعنى ذلك أن محمد عبده ولد مرتين ، وأنه في الأخيرة ولد من أب روجي عظيم هو السيد جمال الدين الأفغانى .

حسبنا ذلك حديثاً عن نشأة محمد عبده لننتقل إلى الحديث عن :

### المعلم الثانى والعقدة الشركية :

هناك ظاهرة نفسية طبعت العصر الذى عاش فيه الشيخ محمد عبده . وقد جاءت هذه الظاهرة النفسية من أن ذلك العصر — والشيخ محمد عبده خير من يمثلها في الحقيقة — شهد نوعين قاسيين من أنواع النفوذ الأجنبي وهما :

النفوذ التركى من جهة ، والنفوذ الأوروبى من جهة ثانية ، أما النفوذ التركى فيتمثل في الطبقة الحاكمة من لدن محمد على إلى عهد إسماعيل فتوفيق فعباس حلمى الثانى .

وهؤلاء الثلاثة هم الحكماء الشرعيون الذين اتصل بهم محمد عبده في حياته ، وأما النفوذ الأوروبى فيتمثل في الاحتلال البريطانى الذى منبت به البلاد فور انهزام العرايين للانجليز كما هو معروف في التاريخ .

والمهم في نظرنا الآن هو النفوذ الأول ونعنى به النفوذ التركى :

كان محمد عبده يكره من أعماق قلبه جميع أفراد الأسرة الحاكمة . ويعتقد في قرارة نفسه أنها قد أساءت إلى مصر إساءة بالغة ولا يستثنى منهم أحداً حتى (محمد على) نفسه . فينكر عليه كل شيء ، ولا يعترف له بشيء . وكان يرى أن من الخير لمصر أن تتخلص من هذه الأسرة في أقرب وقت .

وكان يرى هذا رأى نفسه كذلك أصحاب الإمام وتلاميذه من أمثال : عبد الله النديم ، وأحمد عرابى ، ولبرهيم القافى ، والشيخ أبى خنيرة ، والشيخ عبد الكريم سليمان وحسن عاصم ، وسعد زغلول ، وقتحى زغلول ، وقاسم أمين والسيد رشيد رضا ، وأحمد لطفى السيد .

وكان أكثر هؤلاء يؤلفون في الواقع مذهباً في السياسة المصرية أو حوياً من

أحزابها كان يسمى « بحزب الفلاح » ، أو « حزب الفلاحين » ، ومعهم عرابي وسائر ضباط الجيش ، وكان يقابل ذلك مذهب آخر أو حزب آخر ، هو « حزب الشراكسة » .

وكان حزب الشراكسة هذا يضم إليه كثيراً من الباشوات ورؤساء الوزارات ومعهم رجال القصر والقواد الأتراك في الجيش وغيرهم . ولذا كان يطلق عليه « حزب السراي » ، وكان هذا الحزب الأخير يتمتع بالمناصب العالية ، والحياة المريضة والإقطاع الوافر . على حين كان رجال الحزب الأول - وهو حزب الفلاحين - يعانون الحرمان ، والظلم ، والاحتقار ، والسخرية من جانب الأتراك الشراكسة ، والنظر إلى المصريين على أنهم عبيد أيّ عبيد !!! ومن هنا نشأ في نفوس المصريين ما يمكن أن نسميه « بالعقدة الشركسية » ، التي ظهرت آثارها أقوى ما تكون في أصحاب النفوس الأدبية من أمثال الشيخ محمد عبده وتلاميذه والمحاطين في حبله من رجال الحزب الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو حزب الفلاحين » .

### مواهب العقلية والنفسية

كان لابد لنا من الإشارة إلى هذه العقدة الشركسية قبل أن نخوض في الحديث عن مواهب الشيخ الأستاذ العقلية والنفسية والخلقية ، وأما هذه المواهب فيمكن أن تلخص في ثلاث :

الأولى منها المواهب : أن عقلية الشيخ محمد عبده كانت عقلية تطورية إذا قورنت بعقلية السيد جمال الدين الأفغاني ، وهي عقلية ثورية .

والثانية من هذه المواهب أن الشيخ محمد عبده كان معلماً بطبعه شديد الإيمان بالترقية والتعليم وبقدرتهما على تشكيل الشعوب وخلقها من جديد . وبأنه لا شيء غير التربية في نظره بقادر على الوصول بالآمة إلى هذه الغاية ...

والثالثة من هذه المواهب هي جرأة الشيخ وشجاعته النفسية إلى الحد الذي أزعج الحكام الشرعيين ، وأدهش الإنجليز أنفسهم ، وكان بسببه موضعاً لاحترام

التلبيح من أصدقائه وأعدائه في وقت مما وسنحاول أن نشرح كل واحدة من هذه المواهب على حده .

### الموهبة الأولى أو العقلية التطورية :

كان الشيخ محمد عبده من أكثر الناس إيماناً بالتدرج ، وكان يرى أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة . ولذلك لم يكن من المؤمنين أول الأمر بالثورة العرابية ، ولكنه انظم إليها بعد ذلك لكي يحمي الدستور الذي طالبت به هذه الثورة .

كان محمد عبده إذا فليس إلى أستاذه السيد جمال الدين يبدو مخالفاً له كل المخالفة فإذا كان الشيخ ذا عقل تطورى - كما قلنا - فإن السيد جمال الدين كان ذا عقل نورى بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . واجتمع الأستاذ والتلميذ في باريس في فترة من فترات حياتهما ( بل حياة الأمة العربية ) وفكر الرجلان في أمثل الطرق لإصلاح البلاد الشرقية الإسلامية ، فكان من رأى الإمام الشيخ محمد عبده أن ذلك لا يكون إلا بإنشاء ماسماه « مدرسة الزعماء » لتخريج المصلحين والقادة ممن يحملون عبء الإصلاح في كل بلد من بلاد الشرق ولكن هذا رأى أسخط عليه السيد جمال الدين الذى لا يعرف الإبطاء سبيلاً من سبل الإصلاح أو التجديد . فقال لتلميذه يومئذ إنك لمثبط . واقترح عليه أن يشرعاً في الحال في إنشاء مجلة « العروة الوثقى » .

### الموهبة الثانية أو طبيعة المعلم :

نعم - كان الشيخ يؤمن إيماناً راسخاً أن إنهاض أمة من الأمم لا يكون إلا على أساس قويم من التربية والتعليم . كان يؤمن بأن عمل السنين في تربية الأمة وتعليمها لن يضيع سدى ولن ينتم عليه العاملون ، وإن تقدم عليه الأمة نفسها . فإذا أريد لأمة من الأمم المغلوبة على أمرها أن تال استقلالها فما على قادتها والمصلحين من أبنائها إلا أن يزودوا هذه الأمة بأدوات الاستقلال . وما أدوات الاستقلال هنا إلا التربية والتعليم ، وقد أثر الشيخ بنظرية هذه في تلاميذه من بعده . وكان من نتيجة ذلك أن تألف في مصر حزب سيمى يدعى « حزب الأمة »

ولهذا الحزب صحيفة خاصة به هي « الجريدة » التي كان يتولى تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد . وكانت سياسته فيها تقوم على نظرية الأستاذ الإمام . وهي النظرية القائلة بتزويد الأمة بأدوات الاستقلال . وهي هنا العلم والخلق وتربية الكرامة والشعور بالمسؤولية ، وسنزيد هذه الموهبة توضيحاً عند الكلام عن جهود محمد عبده الصحفية .

### الموهبة الثالثة أو شجاعة الشيخ النفسية :

يبدو أن السبب الحقيقي في قوة نفس الشيخ وجرأته كما قال الأستاذ العقاد هو « التصوف » . والتصوف في ذاته قوة هائلة تميل بصاحبها إلى احتقار الماديات مهما كان شأنها وتقدير المعنويات التي يخفى على الإنسان للعادى قدرها . وبسبب هذه القوة كان أسلافنا من علماء الدين مصدر خطر كبير على الملوك والأمراء والسلاطين .

سئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام أحد علماء الماليك في ذلك ، فكان يقول : « إنني حين أستحضر هبة الله تعالى في نفسي وأنا في حضرة السلطان يتمثل لي في صورة لا تزيد على القطر » .

وشبيه بذلك تماماً ما حدث لسكندر من السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده . حكى عن جمال الدين أنه كان يعبث بحبات سبحة في حضرة السلطان عبد الحميد ونهيه رئيس الديوان إلى قواعد التشريفه فأجابه جمال الدين ساخرأ : « صه يا هذا .. إن السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليوناً من بني آدم . أقلل يلعب جمال الدين بثلاثين حبة من حبات هذه السبحة ؟ » .

أما الشيخ محمد عبده فكان الخديو عباس حلي الثاني كثيراً ما يشكو من مسلكه في حضرته ويقول عنه ، إنه يدخل على كآته فرعون ، وكان الشيخ محمد عبده يضحك من هذه العبارة ويقول « أين فرعون أنا أم هو ؟ » .

ثم إن شجاعة الأستاذ الإمام كانت هي الشجاعة التي يمتدحها للفلاسفة والأخلاقون فهم يقولون « إن الفضيلة وسط بين طرفين » . أي أن شجاعة الشيخ كانت وسطاً بين الخوف والتهور وبين الجبن والانقطاع .

وكما يقول الأستاذ العقاد : الواقع إن تاريخ الشيخ محمد عبده في خدمة القضية القومية هو تاريخ الإقدام إلى أقصى حدوده . ولكنه لم يكن قط تاريخ الاندفاع أو الخفة أو العجلة ونحو ذلك . كان أشد أصحابه إقداماً في معارضة الثورة العرابية حين عارضها . وكان أشدهم إقداماً في تأييدها حين أيدها . ولما وقع المحذور ودخل الإنجليز مصر محتلين ، ونفى محمد عبده عن الوطن كان هذا المنفى عن وطنه أسبق أصحابه إلى عاصمة الدولة الإنجليزية ليعلمن الحرب على الاحتلال في عقر داره ، فإذا ذلك طالب الشيخ في لندن بجلاء الإنجليز . وقال لهم يؤمئذ : لقد شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا . لكننا الآن نعلم أن هناك ما هو شر من الأتراك وليس في مصر من بلغ به الظلم حداً يرجو معه مساعدتكم . إن لنا إليكم رجاء واحداً وهو أن تقادروا بلادنا حالاً وإلى غير رجعة .

وفي عاصمة الإنجليز لم يأل الشيخ جهداً كذلك في الجهر بعداوته لتوفيق فقال عنه إذ ذاك :

« إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة . لأنه مهد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله انضم إلى أعدائنا في الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعجل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه .

إننا لا نريد خونة ؛ وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » ، قال ذلك في المنفى وهو لا يخشى أن يطول به النفي إلى أبعد مما قرره المحتل ، إلى هذا الحد ( وأكثر منه ) بلغت شجاعة الشيخ وهي شجاعة تذكرنا — كما قلت — بمواقف أسلافنا من علماء الدين ممن كانت تهاجم الملوك والسلطان .

ولمحمد عبده حياة رسمية . وأخرى غير رسمية ، ولا تمننا الأولى ، وإنما تمننا الثانية ، ومع ذلك فيكفي أن نعلم عن حياته الأولى أنه اشتغل بالتدريس في الأزهر ، والتدريس بدار العلوم ثم عينه رياض باشا رئيساً لتحرير الوقائع المصرية الرسمية وذلك في أكتوبر سنة ١٨٨٠ وكان ذلك بتوصية من محمود سامي البارودي ، رئيساً لإدارة المطبوعات في نظارة الداخلية ، ثم قامت الثورة



العراية ، ونفى عن الديار  
المصرية ، ثم عاد إليها ،  
وعين قاضياً بالمحاكم الأهلية ،  
مع أنه كان يرغب أن يعود  
مدرساً كما كان ، ولكن الإنجليز  
خافوا من اتصاله بالطلبة ،  
وآخر ما وصل إليه من  
الوظائف الحكومية وظيفة  
مفتي الديار المصرية ، وفي  
الأزهر الشريف قام الشيخ على  
تدريس المنطق والفلسفة  
والتوحيد ، وفي دار العلوم

رياض باشا

قام على تدريس التاريخ . قرأ على طلبتها مقدمة ابن خلدون ، وعمل عن قراءة  
كتب التاريخ المعروفة . وكان الشيخ في هذه الاتجاهات كلها يتأثر بأستاذه السيد  
جمال الدين ، غير أن تأثره به لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى الكتابة في  
الصحف ، فبدأ الشيخ بجريدة الأهرام وهو بعد طالب في الأزهر ، ثم نال شهادة  
العالمية واتصل برياض باشا فعهد إليه في تحرير الوقائع المصرية . ثم قامت الثورة  
العراية وبلغت الغاية منها ، وقبض على زعمائها وفيهم محمد عبده ، فنفي إلى بيروت  
حيث قضى ثلاث سنوات إلى أن دعاه السيد جمال الدين إلى باريس . وهناك  
اشترك النسبي والحواري في تحرير «العروة الوثقى» . ثم عادت الظروف بالشيخ مرة  
أخرى إلى بيروت ، فاشتغل فيها بالتدريس بالمدرسة السلطانية ، وبالتحرير في  
جريدة يقال لها «ثمرات الفنون» .

وبمعنى ذلك أن الشيخ كتب في هذه الجرائد الأربع ، وهي : الأهرام ،  
والوقائع المصرية ، والعروة الوثقى ، وثمرات الفنون .

فماذا كان له دعوته في هذه الصحف وما الأهداف التي كان يرمى إليها ؟

## دعوة الأستاذ الإمام إلى الإصلاح

لخص الشيخ دعوته إلى الإصلاح بنفسه ، فقال : « ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى بنيانها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خطئه وخطئه ، وإنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم ، باحثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل .

والأمر الثاني : إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء كان في المحاضرات الرسمية . أو في المراسلات بين الناس ، وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يجه الذوق ، وتنكره لغة العرب :

الأول : ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم - لا في صورته ولا في مادته .

والنوع الثاني : ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامعات الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان بارداً ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس ، وإن كان رديئاً في الذوق ، بعيداً عن الفهم . ثقيلاً على السمع ، غير مؤد المعنى المقصود .

وهناك أمر آخر كنت من دعاة ، والناس جميعاً في عمي عنه ، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذلل لا يخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ،



وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، نعم — كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد على عشرين قرناً ، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته — هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا لنصح الأمة له بالقول والفعل ، جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه ، والظالم قابض على صولجائه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أى عبيد .

ولم أكن في ذلك الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة ، وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى في الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة ، وقد قارب .

أما أمر الحكومة والمحكوم ، فتركه للقدر بقدره . وليد الله بعد ذلك تدبيرة ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس تفرسه ، وتقوم على تنميته السنوات الطوال ، لهذا الغراس هو الذى ينبئ أن معنى به الآن ، والله المستعان (١) .  
ومع هذا وذاك فالثابت في التاريخ أن محمد عبده حاول الاشتراك في الحوادث التى أفضت إلى خلع إسماعيل . وفي ذلك يقول الشيخ في مذكراته :

أما ما قاله عرابى بصدد خلع إسماعيل وأنه اقترح ذلك فأقول إنه من المؤكد أننا كنا تسكلم سراً في هذا الشأن . وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع . واقترح على أنا أربأقتل إسماعيل . وكان يمر في مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاماً تهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل إسماعيل . لكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه الحركة . ولو أننا عرفنا عرابى في ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكن عمله وكان يمنع تدخل أوروبا .

ولم يكن من المستطاع في ذلك الوقت تأسيس جمهورية إذا نظرنا إلى حالة الجهل

الذى كان سائداً على العقول<sup>(١)</sup> .

ومن السهل علينا بعد قراءة هذه العبارة أن نرى أن لدعوته هذه ثلاث شعب :

شعبة دينية ، وشعبة أدبية ، وشعبة سياسية . وهى مرتبة هنا بحسب ميول الشيخ واستعداده ، وبحسب استئثار هذه الشعب بعنايته ورعايته . أى أن الهدف الأول من أهداف الإمام كان هو الإصلاح الدينى ، وأن الهدف الذى يلى ذلك فى الأهمية هو الإصلاح اللغوى أو الأدبى

وأما الهدف السياسى فلم يكن له ميل كبير إليه ، ولا احتفال كبير به . ومن ثم كان الشيخ لا ينشط نشاطاً سياسياً حاراً إلا حين كان يتصل بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى .

وقد كان السيد رجلاً سياسياً بطبعه قبل كل شيء . وكان إذا التقى بتلميذه الشيخ دفعه بقوة إلى الميدان السياسى . وكان الشيخ نفسه يسير بقوة هذه الدفعة ، حتى تحول الظروف بينه وبين أستاذه ، فإذا الشيخ يعود إلى هدوئه وسكونه ، ويخوض فى أمور تتفق وميوله المتأصلة فى قرارة نفسه . وهى الرغبة فى الإصلاحين الدينى والأدبى .

وذلك ما يفسر لنا الخصومة العنيفة التى كانت بين الشيخ وبين عرابى أولاً ، ثم بينه وبين مصطفى كامل والحزب الوطنى ثانياً ، ثم بينه وبين الخديو عباس الثانى آخر الأمر .

فأما العداوة بينه وبين عرابى فصدها أن محمد عبده لم يكن يرضى أن يكون زعماء الثورة من العسكريين غير المثقفين ، غير أن محمد عبده أكره إكراهاً على الدخول فى الثورة ، حتى انتهى الأمر بنفيه إلى بيروت .

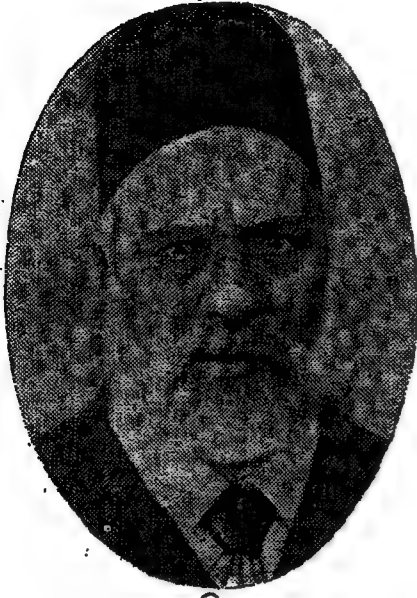
وفى ذلك يقول محمد عبده :

« ولكن الثورة لم تكن من رأى . وكنت قائم بالحصول على الدستور فى ظرف خمس سنوات . فلم أوافق عرابى على عزل رياض فى سبتمبر سنة ١٨٨٠ . وقبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام التقيت بعرابى فى دار طلبه عصمت وكان قد

---

(١) راجع كتاب ( سر احتلال الإنجليز لمصر ) دلفى السزى بلات الترجمة العربية من ٣٥٤ .

جاء مع عرابي لطيف بك سليم . وكان هناك عدد كبير من الوائرين : فنصحت لمرابي بالاعتدال وقلت له :  
إني أرى أن بلاداً أجنبية ستحتل بلادنا ، وأن لعنة الله ستقع على رأس من يكون السبب في ذلك . فأجابني عرابي بأنه يرجو ألا تقع هذه اللعنة عليه . وقال إن سلطان باشا وعده بأن سيحضر له مسرائض لطلب الدستور بمضاء من جميع الأعيان وكان هذا صحيحاً . . . ولكن لما منح الدستور انضممنا إلى الثورة لكي نحمي الدستور ، (١) .



أحمد عرابي

وأما عداوته لمصطفى كامل والحزب الوطني ، فصدرها الخلاف بين الرجلين في وجهة النظر السياسية ، فقد كان محمد عبده عن يؤمنون بالتدرج في الإصلاح السياسي ، وعن يؤثرون اللين ومسايرة الواقع من الأمور ، حتى يكسب المصريون من الإنجليز الأثرياء عن هذا الطريق أضغاف ما يكسبون منهم بطريق الشدة التي لا تجدى شيئاً . وكان مصطفى كامل يرى على العكس من ذلك أن الإصلاح السياسي لا يبدأ في مصر إلا بزوال الاحتلال الإنجليزي .

وأما عداوة الشيخ محمد عبده للخديو عباس الثاني فصدرها محاولة الشيخ المحافظة على علاقته الطيبة بالإنجليز ، وعلاقته الطيبة بالخديو في وقت معاً . وكان الخلع بين هذين الأمرين يومئذ من الأشياء التي توشك أن تكون مستحيلة ، فإذا أضيف إلى ذلك معارضة الشيخ محمد عبده معارضة قوية وشريفة في رغبة الخديو في أن يستبدل نفسه أرضاً من الأوقاف عرفت السبب الذي من أجله

(١) راجع كتاب ( سر احتلال الإنجليز لمصر ) مؤلفه المستر بلات الترجمة العربية من ٢٦٠

اغتاظ الخديو ، وهم بعزله من وظيفة مفتي الديار المصرية لولا اعتراض اللورد كرومر على ذلك ، مما اضطر الخديو إلى العدول عما عزم عليه

وما دمتنا بصدد العداوة التي منى بها الشيخ محمد عبده ، فلا نفسى أن تذكر أنه كان من أعدائه كذلك الأزهر منذ استعان به الخديو عباس الثاني في السكيد للشيخ محمد عبده ، مع أن الشيخ عاش يجاهد في إصلاح الأزهر . وسلك في سبيل ذلك كل طريق حتى طريق الإنجليز ، وذلك في وقت ضاقت فيه بالشيخ الحيل ، وسدت أمامه الأبواب ، وكان الخديو يخاصمه ، والشعب من جانبه لا يفهمه ، فليجأ إلى كرومر عملاً بالحكمة القائلة ( الغاية تبرر الوسطة ) ، ومع ذلك فإن الأزهر لم ين في لحظة من حياته عن قذف الشيخ ، ورميه بأشنع التهم التي من أيسرها يومئذ اتهامه بالكفر والخروج عن الإسلام .

ولم لا يكون الشيخ كافراً في نظر الأزهرين ؟

أليس هو الذي ألقى بلبس القبة ؟ ثم أليس هو الذي ألقى مسلمي الترنسفال في بحر يضرب على رأسه حتى تضعف مقاومته ثم يذبح دون أن يذكر اسم الله عليه ، فأحله لهم ؟

ثم أليس هو الذي يدعو الأزهر أن ينكر قديمه ، ويلبس للعالم الإسلامي ثوباً جديداً غير الثوب الذي أبلاه ؟

ألم يعترض عليه أحد أعضاء المجلس الأعلى للأزهر ، وهو الشيخ البهيري بقوله مستكراً « ألم تعلم أنت في الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟ » فأجابه الإمام بقوله « إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر ، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغى ما علق به من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة » .

والخلاصة أن الشيخ محمد عبده لم يصادف من التوفيق في الميدان السياسى ما كان يؤمله ، وذلك معنى قوله :

« وأما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر بقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره . . إلخ » .

ولكن ليس معنى ذلك أننا نعطيه حقه ، ونشكر عليه جهاده في هذه الناحية ، أو نظن أنه كان يمحض الإنجليز حبه ، ويؤثرهم بصداقته . كلا — فلقد كان الشيخ يبني علاقته بهؤلاء على المداراة . وكان لا يطمع في أكثر من أن تصل دعوته بالشعب المصري ، لا يحول دون وصولها إليه حائل سياسي أو اجتماعي . سافر الشيخ مرة إلى لندن لإقناع الإنجليز بالقضية المصرية وهناك أنهى إلى مراسل جريدة إنجليزية بقوله في حق الخديو :

إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم إلى أعدائنا في الحرب لا يمكن أن نشمر نحوه بأذى احترام . ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه ، وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه . إننا لا نريد خوثة ؛ وجوههم وقلوبهم إنجليزية<sup>(١)</sup> .

فليس من المعقول أن يكون هذا كلام رجل يتهم بحب الإنجليز ، أو الرضا ببقائهم في أرض مصر يشربون فيها من ماء النيل<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

وأما الهدف الديني من أهداء الأستاذ الإمام ، فقد توصل إليه بأمور شتى ، منها الدروس التي كان يلقيها في الأزهر الشريف في بدء حياته ، ثم في فترات متقطعة تهاداً فيها العاصفة .

ومنها الكتابة في الصحف ، وبنوع خاص صحيفة الوقائع المصرية — كما سنرى بعد ، ومنها الرد على الفلاسفة مثل هانوتو ، وعلى الكتاب مثل فرح أنطون<sup>(٣)</sup> .

---

(١) زعماء الإصلاح ص ٣١٦ .

(٢) للدكتور بحث بعنوان « العقدة المركزية عند مدرسة محمد عبده وآثرها في صحافة هذه المدرسة » وضع فيها سياسة محمد عبده نحو الخديو ونحو الإنجليز . راجع مجلة كلية الآداب عدد ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

(٣) رد الأستاذ الإمام على هانوتو في مقاله لعدد أواخر سنة ١٩٠٠ . ومن مجموع ردوده على هانوتو تألف له كتابه ( الإسلام والنصرانية ) ورد الأستاذ الإمام كذلك على فرح أنطون في مقاله لعدد في مجلة الجامعة عن ابن رشد ذهب فيه إلى أن المسيحية كانت أوسع صدراً للفلسفة من الإسلام .

ومنها الفتاوى التي كان يصدرها بين الحين والحين ، قتدل على فهمه الصحيح للدين ، أو على الأقل على رغبة صادقة في الاجتهاد الذي أغلق الأزهريون بابه منذ زمن قديم .

ومنها جهاده المبرور في إصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وهو جهاد اقترن بالاضطهاد الذي لقيه الشيخ من جانب الأزهريين أنفسهم تارة ، وجانب الحديث تارة أخرى ، وجانب الشعب عن طريق الجرائد المردلية آخر الأمر .

غير أن الوسيلة الأولى من هذه الوسائل كلها تبين أنها الوسيلة السليمة المأمونة العاقبة . ونعني بها الدروس التي اتصل فيها اتصالاً مباشراً بطلبة العلم في الأزهر الشريف . وهناك كان يلتقي الأستاذ الإمام عليهم درساً في « التفسير » . فاعتمد الشيخ على هذا الدرس اعتماداً تاماً في شرح عقائد الدين ، ومحاربة البدع التي أقبلت هذا الدين ، ثم في التوفيق بينه وبين العلم الحديث والمدنية الحديثة .

ولقد وفق الأستاذ الإمام في هذه الدروس توفيقاً وصل به إلى النروة من مراتب المصلحين الدينيين ، وكان لدروسه أثر عظيم في نفوس كثير من المتدربين ، وفي نقض الغبار الذي تراكم على قلوبهم منذ قرون .

\* \* \*

وأما الإصلاح اللغوي أو الأدبي ، وهو ثاني الهدفين اللذين كتب فيهما النجاح التام للأستاذ الإمام ، فننظر الطرق التي سلكها فيه : طريقة إحياء الكتب القديمة ، وذلك بنشرها وشرحها من الوجهة اللغوية . ونشر لذلك مقامات الحريري ، وكتاب نهج البلاغة ، وكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني . وفي عام ١٣١٨ أسس بمصر جمعية برياسته سميت بجمعية إحياء الكتب العربية . وبدأت عملها بالفعل فلشرت كتاب المخصص في اللغة لابن سيده « وعهد بتصحيحه إلى اللغوي المشهور الشيخ محمد محمود الشنقيطي .

ولانفسي كذلك أن الأستاذ الإمام إذ عينه رياض باشا محرراً للوقائع المصرية ، وجعل له حق الإشراف على جميع ما يصدر في مصر من الكتب والصحف ، كما جعل له الحق في انتقاد إدارات الحكومة . قد انتهز هذه الفرصة الثمينة « فكان

أول ما بدأ باقتاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والإدارات ، فأخذ يبين وجه الخلل بها وأضرارها . بفهم المعاني المطلوبة ، ثم يرسم الطريقة المثلى التي يجب السير عليها فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة . وحضهم رؤسائهم على مكتبة الجريدة الرسمية . واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير (١) ، وقد أنذر محمد عبده مرة مدير جريدة مشهورة بتعطيل جريدته إذا لم يغير لها محرراً صحيح العبارة في مدة معينة .

ثم من الطرق التي سلكها في ذلك طريقة التدريس بمعاهد العلم . ونحن نعرف من تاريخ حياته أنه قام بتدريس الإنشاء في المدرسة النظامية ببغروت ، وأنه عهد إلى الأستاذ الموصفى بتدريس كتاب الكامل للبرد وكتاب ديوان الحماسة ، لطلبة الأزهر . ولم يكن ذلك معروفاً من قبل .

وأخيراً كان من أنجح الوسائل التي اتخذها الإمام لإنهاض اللغة العربية من عثارها ، وإمدادها بالعدة اللازمة لها في مسامرة العصر الحديث ، الكتابة والتحرير في الصحف العامة ، وهو هنا يبت القصيد من هذا التاريخ . فسرى أن مشاركة الإمام في الصحافة المصرية يمكن أن تعتبر تاريخاً لهذه الصحافة من الوجهة اللغوية أو الأدبية ، وسرى أن قلم الشيخ محمد عبده كان من الأفلام التي راضت اللغة العربية في مصر رياضة حسنة قيمة ، عادت بالخير على هذه اللغة ، وذلك الأدب من جهة ، وعلى العقل المصرى من جهة ثانية

\* \* \*

وإن الشيخ لمشتغل بإصلاح الأزهر ، غارق في تفكيره في هذا الإصلاح ، وإذا بمحركة تظهر بغتة في داخل الأزهر ، ويثور فيها بعض رجاله على مجلس إدارته ، وكان من أثر ذلك أن استقال السيد على البيلاوى من المشيخة ، وعين الخديو مكانه الشيخ عبد الرحمن الشربيني ، وخطب الخديو في حفلة الإنعام عليه

خطبة كشفت عن سحته على الشيخ محمد عبده ، فلم ير الشيخ بدأ من الاستقالة من مجلس إدارة الأزهر ، ومرض بعد ذلك ، وثقل عليه المرض ، فأت في الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٩٠٥ م .

وشيعت جنازته في احتفال رسمى مهيب ، اشترك فيه مجلس النظار ، وكان الحدیو نائباً عن مصر ، فلما عاد إليها أنحى باللائمة على وزرائه الذين احتفلوا بجنازة الشيخ الإمام .

ليت شعری ما أشقى المصلحين في كل زمان ومكان ! إنهم لكالشمعة التي تحرق نفسها لتضيء الطريق للناس . ومع ذلك لا يكون نصيبها منهم غير اللعنة والاحتقار والجحود والإنكار ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

هكذا حرمت مصر يومئذ شخصية فذة هي من أعظم شخصياتها وأقومها في القرن الماضى ، بل ربما كانت في عظمتها تلى مباشرة شخصية جمال الدين الأفغانى .

---



## الفصل الخامس

### أسلوب محمد عبده

لقد كان للعجم فضل كبير على الكتابة العربية وهي في مهد طفولتها ، وقد أتى القرن الماضي دليلاً على أن للعجم فضلاً كبيراً على الكتابة العربية بعد إذ جاوزت دور شيخوختها .

كان النثر الفنى منذ القرن الثانى للهجرة ريب الفرس وصنعتهم ، ودليلاً ثابتاً على سابق مجدهم وحضارتهم . فقد نشأ هذا النثر العربى نشأة عربية خالصة منذ ظهور الإسلام ، ثم تأثر هذا النثر العربى بالحضارات الأجنبية التى اشتركت فى بناء الحضارة الإسلامية ، وبعد أن كان ذلك النثر العربى أميل إلى البساطة والسذاجة التى طبع عليها العرب ، أصبح أميل إلى المنطق والزخرف اللذين اقتضتهما الحضارات الأجنبية .

أما فى القرن الماضى فقد وجدنا السيد جمال الدين الأفغانى - وهو رجل من الأفغانستان غريب عن اللغة العربية ، أجنبى عن الأدب العربى ، لم يحصل عليهما إلا بطريق التعلم - يترك فى الأسلوب الأدبى أثراً لا يمحى من حيث يقصد السيد أولاً يقصد . بل وجدنا ظهور السيد فى مصر يعتبر نقطة تحول عظيم فى الحركة الأدبية ، كما كان نقطة تحول كبير فى الحركة السياسية .

وكذلك العظيم فى الأمة يهتدى الله به من الخلق ، ويغير به من أوضاع الكون ما لوعرفه العظيم من نفسه لهاله الأمر ، وعجب من قدرة الله تعالى حين يريد بالناس الخير . ولقد كان من أنجب تلاميذ السيد جمال الدين رجل مصرى المولد ، أزهرى النشأة ، هو الشيخ محمد عبده . تحركت فى نفسه الرغبة فى الكتابة الصحفية

منذ كان طالباً في الأزهر أو على الأصح منذ كان يختلس من وقت الأزهر ساعات يقضيها في الاستماع إلى السيد جمال الدين . وقد شهد الشيخ يومئذ ميلاد صحيفة كانت من أعظم صحف مصر والشرق فيما بعد ، وهي صحيفة الأهرام . فبعث إليها بتقرير تقبلته الصحيفة منه شاكرة ومقدرة ، ومنذ يومئذ والشيخ يكتب في الأهرام ، فأتيحت له بذلك فرصة من أئمن الفرص ، حملته على التجرّد للكتابة في الصحيفة ، وترويض قلبه على هذه الصناعة الجديدة في وقت كان فيه الأزهريون لا يحسن أقومهم طريقة أن يكتب أربعة سطور باللغة العربية السليمة . ونحن إذ ننظر في مقالات الأستاذ الإمام منذ ذلك التاريخ إلى أن توفاه الله ، نرى أن هذه المقالات تجري — كما يقول الأستاذ الشيخ رشيد رضا — في أربع مراحل :

أولاً : ما كتبه الشيخ محمد عبده في عهد طلب العلم بالأزهر ، وذلك بإرشاد السيد جمال الدين الأفغاني في الغالب .

والثانية : ما نشره بعد دخوله في طور العمل وتصديه لإصلاح الحكومة والأمة . وهو ما نشر في جريدة الوقائع المصرية الرسمية .

والثالثة : ما كتبه بعد نفيه من مصر بالاشتراك مع أستاذه جمال الدين الأفغاني ، وهو ما نشر بإريس في جريدة « العروة الوثقى » .

والرابعة : ما نشر له بعد ذلك ، أي بعد عودته من المنفى ، من شق المقالات في الصحف السورية والمصرية .

ولتقف وقفة قصيرة عند كل مرحلة من هذه المراحل

### المرحلة الأولى

ويمكن أن يقال إن المرحلة الأولى من هذه المراحل كانت للتهيئة والإعداد ، وفيها — كما سنرى من ثنايا النماذج التي سنعرضها من كتابات الشيخ — نجسده أسلوب شاب مبتدئ يحاول في أول أمره أن يقلد طريقة المتأدبين في زمانه ،

فيتجرى السجع في الكتابة ، ويملا مقاله بطائفة من الألفاظ اللغوية الغريبة ، والتشبيهات التي ربما لا يستريح القارئ الحديث إلى الكثير منها ، كما يصطنع التعبيرات التي حارل فيها الأخذ من العلوم الحديثة ، وإن كان لم يحسن بعد هذا الأخذ على الوجه الذي يرضى النوق .

ومع هذا وذاك كان الشيخ المبتدىء في المرحلة الأولى من الكتابة طويلاً النفس في العبارة ، يحاول أن يقلد أسلوب الكتاب المفتونين بالسجع في القرن الرابع الهجري . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حسن استعداد الرجل للكتابة ، أضف إلى ذلك أن معاني الشيخ في مقالات المرحلة الأولى كانت غزيرة ، لأن أكثر هذه المعاني كان مأخوذاً من السيد جمال الدين — فإن دل ذلك أيضاً على شيء ، فإنما يدل على حسن استعداد الشيخ للإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي

وخير لنا بعد ذلك أن نعرض للقارئ نموذجاً لكتابه في هذه المرحلة ، وأن نشير بعد ذلك إلى البقية من مقالات هذه المرحلة إشارة موجزة .

كان الشيخ مجاوراً في الأهرام حين انصل بجريدة الأهرام الأسبوعية ونشر مقاله في العدد الخامس من السنة الأولى لهذه الجريدة ، وذلك في سبتمبر سنة ١٨٧٦ م الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ؛ وكان موضوع المقال تقرّظ جريدة الأهرام ، قال :

### النموذج الأول

#### في تقرّظ الأهرام

إنه لما ظهر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بني نوع الإنسان ، أن يملكه مصر كانت في سالة الزمان ، يملكه من أشهر الممالك ، وكمية يؤمها كل سالك وناسك ، إذ كانت قد اختصت بنشر العلوم ، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة في الصنائع ، والابتكار في أنواع البدائع ؛ فكان أبناء العالم إذ ذاك يلتدون نداها ، ويستجدون جداتها ، يستمطرون من الغيث

قطراً ، ويستمدون من المحيط نهراً ، فكان التمدن فيها كهلاً ، حين كان عند غيرها طفلاً . ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن . ولا حجب ، إذ رأى الطالبين تنسل إليه من كل حذب ، وأن ملوك الأرض خدام عتبه ، وتيجان السكيانيين تحت قبضته فاستكبر واعتلى ، ولكشوس الراحة اجتملى ، فأقصته إلى ممالك الغرب . ليندوق مرارة السغب أو اللغب ، ويتربى بذلك ويتأدب . فبدأ بتلك الممالك غريباً ، ونادى معلماً فوجد مجيباً ، وتناوشته أيدي الجاحدين ولفحته أقوال المنكرين . ولا زال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقامى مستعصيات المصاعب ، إلى أن بلغ بها أشده وملك رشده ، وسار فيها شرقاً وغرباً ، وغامر ألباب القوم حباً ، فهم انتشاره ، وهدت آثاره . وتلاّلات أنواره ، ولذا تحلى بحلل الجلال وتتوج بتاج السكّان ، وقضى مدة السباحة ، وباء بغاية الراحة ، استدار الزمان كهينته ورجع الأمر إلى بدايته ، وقفل التمدن إلى مسقط رأسه ومقر تربته ، فورد ديار مصر ورود الأهل ، وتمكن بها تمكن الأصل ، فاستقبلته الديار بغاية المبرة ، وأكرمت مشواه وأعظمت أمره ، واستردت ما كانت فقدت ، وأدنت ما كانت أنأت ، وأحلت عمل القرب ، وأنزلته سويداء اللب ، فقام يؤدي حق خدمتها ، ويوفى شكر كرامتها ، فنظر إلى ما كان أبداه في تلك الأزمان ، من شواحق البليان ، التي كم بلغت الأسباب ، وحيرت الألباب ، وأنبات بما فيها من براعة بانها ، ونطقت بفيها ، أن آيات السكّان فيها . فلما أعجب بالثال ، حداه حادى السكّان ، لأن ينسج عن هذا المنوال ، فأنفأ لنا ( جريدة الأهرام ) ، المؤسسة على أحكم قواعد الأحكام ، الكافلة بإرشاد المسترشدين وتنبيه الغافلين ، بما فيها من المباني الرقيقة ، والمعاني الدقيقة ، والأفكار العالوية ، المؤيدة بالبراهين الشافية ، القائمة بنشر العلوم بين العموم . قبالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادى بمقالها وحالها : حتى على الفلاح ، واهلوا إلى موارد النجاح ، لا تقفوا عند صورة المبنى ، ولكن تتجاوزوا عنه إلى المعنى تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح . تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سر السماوات . نعم أين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذي قد سطعت فيه شمس المرفان ونشأ فيه

بنو الإنسان نشأة أخرى ، وتقلب في فنون الحقائق بطناً وظهراً أن تكون أيامنا غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم وأين الذي تغنيه الرياح والأمطار ؛ من الذي لا يوهنه توالي المدد والأعصار ، فإن مفره العقول العاليات ، والنفوس الزكيات ، التي لا يتناولها الفناء ولا يبتذلها العناء . فيخرج بمنشئها ، وطوبى لقارئها . ومن الواجب على ذوى الألباب أن يحتنوا جناها ، وأن يستطلعوا سر معناها ، فيبوءوا بأنوار الحكمة ، وينقلبوا بفضل من الله ونعمته ، فإنه ليس شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا ألد من حكمة يصادفها .

هذا إيجاز في مزاياها ، بسم الله مجراها ومرساها . آه

والقارئ لهذا المقال يلاحظ — كما قدمنا — أنه بنى على سجع متكلف ، من أوله إلى آخره ، وأن فيه إشاراً للتراكيب القديمة مثل قوله بخ بخ ، وقوله . . تنادى بمقالها وحالها حتى على الفلاح ؛ كما يلاحظ أنه بنى كذلك على التخييل إذ فيه يتخيّل الكاتب رحلة التمدن من مصر إلى أوروبا ، ثم عودته إلى مصر مرة أخرى حيث لقي من الإكرام ما انطلق لسانه بالشكر لها ، والإعجاب بأهرامها ، فآلى على نفسه أن يبنى فيها أهرامها أخرى ، هي هذه الجريدة التي جاءد الشيخ يقرؤها بأسلوب المبتدىء ، حتى لكأنه شاعر في غرزمته (١) يطمح إلى مج أدبي لم يتح له بعد .

وهكذا مضى الشيخ يمد جريدة الأهرام بمقالاته من العدد الخامس إلى العدد الواحد والأربعين . ونال في أثناء ذلك شهادة العالمية من الدرجة الثانية ، وذلك عام ١٢٩٤ هـ ونشر في أثناء ذلك أيضاً مقالين له في جريدة (مصر) لصاحبها أديب إسحاق ، أولاهما بعنوان (فلسفة التربية) والثانية بعنوان (فلسفة الصناعة) وهما خلاصة درسين من دروس السيد جمال الدين الأفغانى لا أكثر ولا أقل . ومن ثم لم يلتزم الشيخ السجع فيهما طويلاً ، لأن حرصه على نقل أفكار أستاذه كان يستأثر بجهد كله .

(١) الترخمة أول ما يقوله الشاعر من الشعر على سبيل المحاولة .

وبما كتبه بجمريدة الأهرام في هذه المرحلة مقالة بعنوان ( القلم والكتابة ) ومقالة بعنوان ( المدبر الإنسان والمدبر العقل الروحاني ) ومقالة بعنوان ( العلوم الكلامية والعلوم المعاصرة ) .

وبنه الشيخ رشيد رضا بعد ذلك إلى مقالة للأستاذ الإمام نشرت له بإحدى الصحف في آخر يوليو عام ١٨٧٩ انتقد فيها الدولة العثمانية في عيبتها باستقلال تونس الإداري ، ومحاولتها كذلك العبث بحقوق مصر وامتيازاتها عقب سقوط إسماعيل وتولية توفيق . والشيخ في جميع هذه الفصول الأدبية السابقة يميل إلى السجع ويأخذ نفسه بالتزامه . ويحاول الأخذ عن العلوم الحديثة على سبيل ( التوجيه ) . والتوجيه نوع بلاغي يصطنع فيه الأديب بعض المصطلحات العلمية ، وكان الشيخ يحشو بعض كلامه بالحكم والأمثال ، وينزل أحيانا إلى استخدام الأسماء العامة .

والشاهد في قوله ( طلعات الشرايين ) فليست الحاجة ماسة إلى ذلك ، أما من حيث الموضوع فالشيخ في كل ما كتب إلى الآن يوضح للناس فوائد الصحف تارة ، وقيمة العلوم الحديثة تارة ، ويسخر من افتقار الأذهار للمنطق تارة ثالثة ، وينقد سياسة الدولة العلية آخر الأمر ، وذلك فضلا عن تلخيصه دروس جمال الدين .

### المرحلة الثانية

وانتقل الشيخ محمد عبده بعد ذلك إلى الكتابة في الوقائع المصرية الرسمية كما رأينا ؛ بتاريخ ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٧ هـ ، ١٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠ م كتب مقالاته الأولى بعنوان ( حكومتنا والجمعيات الخيرية ) ، ثم بعنوان ( احترام قوانين الحكومة وأوامرها من سعادة الأمة ) . ثم بعنوان ( حب الفقر وسفه الفلاح ) وهكذا حتى المقالة السابعة عشرة ، وكان عنوانها ( خطأ العقلاء ) ثم قامت الثورة العرابية فتحول الشيخ من المقالات الاجتماعية إلى المقالات السياسية ، وكتب مقالته الثانية والثلاثين بعنوان ( الحياة السياسية ) والثالثة

والثلاثين بعنوان ( الشورى ) ثم قبض عليه فيمن قبض عليهم من زعماء الثورة .

ولقارىء هذه المقالات ملاحظات على الأسلوب ، وأخرى على الموضوع . فأما من حيث الأسلوب فقد عدل الشيخ عدولا ظاهرا في هذه المرحلة عن السجع ، ولكن إلى ما يسميه النقاد ( بالازدواج ) أو ( الترادف الصوتي ) وهو نوع من السجع لا تلزم فيه القافية ، كما عدل الشيخ عن الألفاظ الغريبة التي كان يأتي بها أحيانا في مقاله من قبيل المباهاة ، إلى الألفاظ السهلة التي لا يجهد القارئ العادي في فهمها أدنى صعوبة ، كما توخى البساطة أيضا فيما أتى به من تشبيهات ، وفي مقاله ( حب الفقر وسفه الفلاح ) شبه المرفق بمن يصب ماء في حوض فتحت في قاعه بالوعة كبيرة لا تبقى شيئا عما يصب في الحوض<sup>(١)</sup> وإذ يقول : ومثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأت أن الأوزة تبيض بيضا كبيرا فطلبت أن تبيض مثلها فأجهدت نفسها في أن يكون ذلك ، غير عارفة أن ذلك لا يكون إلا باستعداد - أي بأن تكون أوزة - فخبست نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشقت منها ما انشقت وتمزق منها ما تمزق الخ<sup>(٢)</sup> وهكذا حاول الكاتب تبسيط أفكاره وتبسيط أسلوبه وألفاظه وتشبيهاته إلى درجة كبيرة ليفهمه جميع الناس .

وكان الشيخ في أثناء ذلك لا ينسى إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآيات الشعرية في غضون كلامه - غير أنه كان مقتصدا كل الاقتصاد في هذه الناحية .

وأما من حيث الموضوع فقد وقف الشيخ في هذه المرحلة من حياته الكتابية موقف المعلم للشعب المصري ، واتخذ من الوقائع المصرية منبرا يعظ الناس من أعلاه ويرشدهم ، ويوقظ فيهم شعورا بضرورة الإصلاح . ومن ثم جاءت جميع مقالاته في هذه المرحلة دروسا اجتماعية ودينية لا أكثر ولا أقل ؛ فدرس في

(١) ص ٦٠ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام الطبعة الثانية .

(٢) ص ١٢٦ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام الطبعة الثانية .

تعليم الناس القانون ، ودرس في حقوق الوطن ، ودرس في كيف يستفيد الناس من المتديبات العامة . وكيف ينفقون أوقاتهم فيها ؟ ودرس في حاجة الإنسان إلى الزواج ، وفي حكمة الشريعة في تعدد الزوجات ، ودرس في عاربة البدع السيئة كبدعة الازدحام في المساجد أيام الحضرات ، وبدعة ( الدوسة ) وهي أن ينطرح الناس على الأرض متلاصقين ، ثم يمر أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم جميعاً ، ثم درس في الحذر من المبشرين الذين يديرون طائفة من المدارس يأوى إليها نفر من أبناء الشعب في مصر ، ودرس في وخامة الرشوة ، ودرس في الشورى والقانون ، وهكذا .

ولا بأس من أن نسوق للقارىء نموذجاً واحداً فقط من مقالات الشيخ في هذه المرحلة ، وليكن المقال السابع عشر ، بعنوان :

### خطأ العقلاء (١)

إن كثيراً من ذوى القرائح الجديدة ، إذا كثروا من دراسة الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة ، تولد في عقولهم أفكار جلية ، وتنبعث في نفوسهم همم رفيعة ، تندفع إلى قول الحق ، وطلب الغاية التي ينبغي أن يكون العالم عليها . ولكونهم اكتسبوا هذه الأفكار وحصلوا تلك الهمة من الكتب والأخبار ، ومعاشرة أرباب المعارف ، ونحو ذلك ، تراهم يظنون أن وصول غيرهم إلى الحد الذي وصلوا إليه ، وسير العالم بأسره ، أو الأمة التي هم فيها بتأملها على مقتضى ما علوه ، هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم ، والألفاظ من أسماعهم . فيطلبون من الناس طلباً حائثاً أن يكونوا على مشاربهم . ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم وإن كانت الأمة عدة ملايين . وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين . ويظنون أن أفكارهم العالية إذا برزت من عقولهم

---

(١) هذا المقال يدل على عقلية الشيخ الإمام . وعلى أنها عقلية تطورانية لا ثورية حكمانية . استأذنه السيد جمال الدين الأفغاني .



إلى حيز الكتب والدفاتر . ووضعت أصولاً وقواعد لسير الأمة بتأملها . ينقلب بها حال الأمة من أسفل درك في الشقاء إلى أعلى درج في السيادة . وتبديل العادات وتحويل الأخلاق ، وليس بين غاية النقص والكمال إلا أن ينادى على الناس باتباع آرائهم .

تلك ظفونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتتبية من الكتب والمطالعات . وإنهم وإن كانوا أصابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعاث الفيرة ، لكنهم أخطئوا خطأ عظيماً من حيث إنهم لم يقارنوا بين ما حصلوه وبين طبيعة الأمة التي يريدون إرشادها ولم يجتنبوا قابلية الأذهان . واستعدادات الطبائع للاقتياد إلى نصائحهم واقتفاء آثارها ، ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ، ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي اقتضتها حالة وجوده ؛ بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب ، وتبينوا كيفية انتقال الأمم من بداياتها إلى نهاياتها ؛ لعلموا أن الأمم في أحوالها العمومية كالأشخاص في أحوالها الخصوصية ؛ بل إن الأحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الأحوال الخصوصية . وليست الأمة مثلاً إلا بمجموعة أفرادها . وليس حال الهيئة المركبة من تلك الأفراد إلا بمجموع أحوال هاته الأفراد .

فعل من يريد كمال أمة بتأملها أن يقيس ذلك بكمال كل فرد منها ، ويسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع أن يودع في عقل الطفل الرضيع ، أو الصبي قبل رشده وقبل أن يتعلم شيئاً من مبادئ العلوم تلك الأفكار العالية ، التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا ؛ بل لو أراد أن يحصل شخصاً من الأشخاص على مثل فكره احتاج إلى أن يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ، ثم مبادئ الفنون السهلة التحصيل ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بعد سنين عديدة إلى بعض مطلوبه ؛ ثم هو خلال ذلك محتاج إلى أن يحصر أعماله ويقيد بها بقيود من الترغيب والترهيب ؛ وأن يراقب حركاته في أعماله خوفاً من اختلاط الفاسدى

الأخلاق والافكار، أو المائلين إلى الكسالة والبطالة أو ورود، ووارد الشهوات ونحو ذلك من الملاحظات التي لا بد منها . فإن اختل شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الأصعب على الأسهل مثلاً ، أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله ، اختلت التربية ، وذهبت الاتعاب سدى . واستحال صيرورة حال ذلك الشخص بمائلة لحالة مرشده .

ولو أنه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرجولية هل يمكنه أن يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه ؟ كلا ؟ إن الذي تمكن في العقل أزماناً لا يفارقه إلا في أزمان ، فلا بد لصاحب الفكر أن يجتهد أولاً في إزالة الشبه التي تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته ؟ وذلك لا يكون في آن واحد ، ولا بعبارة واحدة ؟ ولكن بعبارات مختلفة في التقريب ، بعضها سهل المأخذ قريب المنال ، والبعض أرقى منه ؛ وبعضها خطابي ، والآخر برهاني ، وماشابه ذلك . فإن لم يتخذ تلك الوسائل في إرشاده ، امتنع عليه مقصوده ، بل ربما جره نصحه إلى الضرر بنفسه . تلك هي الحالة المشهورة التي لا ينكرها أحد ، ثم إن نجاحه في تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد ، موقوف على أن صاحب ذلك الفكر الفاسد ، لا يعاشر ولا يتخالط في خلا تلمذه إلا مرشده صاحب الفكر السليم ، فإن كان يتخالط غيره ممن يؤيد فكره الأول طال الزمن ؛ وربما لم ينجح فيه الإرشاد ، وأظن أن هذا يعترف به كل من مارس الأخلاق والعادات .

إن كان هذا حال شخص واحد إذا أردنا إصلاح شأنه في صغره أو كبره . مع أنه سهل ضبط أعماله وأحواله ، والوقوف على كنه أوصافه ودرجات تقدمه في المقصود وتأخره فيه ؛ فما ظنك بحال أمة من الأمم تختلف عناصرها ، وتباين شعوبها ؟ فن الخطأ بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالمسير على ما لا تعرف له حقيقة ، أو يطلب منها ما هو بعيد من مداركها بالكيفية ، كما أنه لا يليق أن يطلب من الشخص الواحد ما لا يحقله ، أو ما لا يجد إليه سبيلاً .

ولنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها السكينة المقررة في حقول أفرادها ثم يطلب بعض تحسينات فيها لا تبعد منها بالمرّة . فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو

أرقى بالتدريج ، حتى لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحلة إلى ما هو أرق وأعلى من حيث لا يشعرون . أما إذا وضع لهم من الحدود ما لم يصلوا إلى كنهه ، وكلفوا من العمل ما لم يهدوه ، أو خولوا من السلطة ما لم يهوده ، رأيتهم يتخبطون في السير لحفاء المقصود عنهم ، وضلال الرأي فيما لم يكن يمر على خواطرهم ، فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى لكن إلى ما هو أتمس منها بحكم الاستعداد القاضى عليهم بذلك .

مثلا : إننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا ، واعتدال أحكامها ، والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها ، وأعضاء نوابها وبجالسها ، وما شاكل ذلك ، ونعرف مقدار السعادة التي نالها الأهالي من تلك الحالة ، ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم ، لأنهم أرباب الانتخابات ، ولأنما رؤساء الجمهوريات وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لأنفسهم ، وتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجميلة — لكننا لانستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها — لأفغانستان مثلا — حال كونها على ما نعهد من الخشونة فإنه لو فوض أمر المصالح إلى رأى الأهالي ، لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لا يرى سواها ، فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحبا له أو نسيبا أو قريبا ، فربما ينتخبون آلافا مؤلفة ، ثم لا ينتهى الانتخاب إلى المرغوب أصلا ، لوقوف كل واحد عند انتخابه الأول ولو وكل إليهم انتخاب رئيس للحكومة لانتخبت كل قبيلة رئيساً منها ، ثم يقع المهرج بين الرؤساء ، وهكذا حال الأمم التي تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها العامة وإلا فسدت . فإذا أردنا إبلاغ الأفغان مثلا إلى درجة أمريكا ، فلا بد من قرون تبث فيها العلوم ، وتهذب العقول ، وتذل الشهوات الخصوصية ، وتوسع الأفكار السلبية ، حتى ينشأ في البلاد ما يسمى بالرأى العمومى . فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا . وباعجباً ! هل الشخص الذى توارث العوائد عن آباءه وأجداده ، ومرن عليهم من

مهدده إلى كهولته ، ونعود تفويض مصلحته إلى إرادة غيره يصحح أن يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ، ويلقى إليه زمام مصلحته ، وهو في جميع عمره لم يفكر فيها ؟ إن هذا الخطأ ظاهر .

ولكون أرباب الأفكار منا يرومون أن تكون بلادنا ، وهي هي كبلاد أوروبا وهي هي ، لا ينجحون في مقاصدهم ، ويضرون أنفسهم بذهاب أتعابهم أدرج الرياح ، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح ، فلا يمر زمن قريب إلا وقد بطل المشروع ، ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان ، فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم وكان لهم إمكان أن يكونوا على أحسن منه . فمن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية ، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه إن كان طالباً حقاً بدون أتعاب فكر ، ولا إجهاد نفس . وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد .

وواضح من قراءة هذا المقال أن الفكرة فيه هي اللامعة ، وأن الأسلوب فيها أتى لخدمة هذه الفكرة ، وأنه ساقها سوقاً حسناً ، وتدرج في إيفائها للقارىء كما يتدرج المدرس الماهر في إيفهام التلاميذ درساً جديداً عليهم ، غريباً على أذهانهم . هذا من حيث الأسلوب ، وأما من حيث منهج التفكير فلا نعرف أن مقالا أدل على عقل صاحبه وعلى إثباته التدرج في الإصلاح من هذا المقال .

### المرحلة الثالثة

نتنقل بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة من مراحل الكتابة الصحفية للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهي المرحلة التي كان فيها الإمام يباريس إلى جانب أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني .

وهناك فكر الرجلان في الطرق المؤدية لإصلاح الشرق الإسلامي ، فكان من رأى الإمام أن يكون ذلك بإنفاء ما سماه ( مدرسة الزعماء ) ، يتخرج فيها مصلحون عظماء ، ينبشون في أعماق هذا الشرق وبلدانه ، ويدشرون بعهد الإصلاح الجديد في الدين وفي المجتمع ، ولكن هذا رأى لم يرق في نظر السيد جمال الدين ، وهو رجل يلهب حماسه وغيرة على مصالح الشرق والشرقيين ، ولا يعرف للإبطاء

سبيلا من سبيل الإصلاح ، بخلاف محمد عبده . وقد رأينا في مقاله ( خطأ العقلاء ) يؤمن بالتدريج ولا يطمئن كثيراً إلى التطرف والطفرة ، وتغلب الأستاذ على تليذه في النهاية ، واتفقا معاً على إنشاء ( جريدة العروة الوثقى ) واشتركا في تحريرها يومئذ ، وأشركا معهما كذلك ( ميرزا محسن باقر ) ، فكان يقوم بعمل المترجم عن الصحف الأجنبية لكل ما يهتم به العالم الشرقي وكان من وراء هذه المجلة جميعاً سرية تليث في جميع أقطار العالم الإسلامي ، وتضم إليها نفراً من المسلمين المثقفين المعروفين بالغيرة والتحمس الشديد للدين ، ويقسم كل واحد منهم قسم أن يبذل ما في وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية وإنزالها منزلة البنوة والآبوة الصيحتين ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا يؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا يسعى قدماً واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين ، جزئياً كان أو كلياً ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلاً وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامي من كل نواحيه بقدر ما يستطيع (١) . وأنشأت للجمعية فروع في البلدان المختلفة ، يجتمع كل فرع منها للذاكرة ، وفي آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشيء من المال في صندوق صغير له نقب ضيق ، فيه كل ما تيسر خفية ، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها . فقد كانت ترسل أكثر أعدادها مجاناً .

### برنامج العروة الوثقى :

وأما برنامج الجريدة فقد أوضحاه في ختام المقالة الأولى حيث قالوا ما معناه أنه يتلخص في الأمور الآتية :

أولاً : إلهام الشرقيين واجباتهم التي كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فاتهم .

ثانياً : إلهامهم كذلك أن الأمل في النجاح قريب ، إذ لا حاجة في الوصول

---

(١) زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين ص ١٨٠ .

إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة . تصورها يوجب فتور الهمم ، وانحطاط العزائم .

ثالثاً : دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، والمثل الأعلى للمسلمين في نظر الجريدة هنا هو ما كان عليه الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين قبل أن يدخل عليهم الفساد من أبواب شرحتها الجريدة شرحاً وافياً في المقالات التي تيسر لها أن تنشرها .

رابعاً : إبطال الزعم بأن المسلمين لا يتقدمون في مضمار المدنية الحاضرة ماداموا مستمسكين بدينهم ، لأن دينهم في نظر من لا يفهمونه من الأوروبيين يدعو إلى التواكل .

خامساً : تقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية وتمكين الآلفة بين أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينهم .

سادساً : وصل الشرقيين بما يهمهم من الأخبار العامة والأخبار الخاصة ، وبسياسة الدول الأجنبية تجاه البلاد الشرقية ونحو ذلك .

غير أن الجريدة لم تصدر أكثر من ثمانية أعداد فقط ، من مارس سنة ١٨٨٤ إلى أكتوبر من تلك السنة .

وفي أثناء ذلك انتقل الشيخ محمد عبده من دائرة ضيقة كان يعمل فيها لإصلاح مصر من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، إلى دائرة أوسع وأكبر هي الدائرة التي أصبح فيها مع السيد جمال الدين يعمل لصالح السكافة من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

ثم هكذا استبدل الشيخ بطابع الهدوء الذي غلب على نفسه وخلقه طابع الثورة التي انتقلت إليه بالعدوى من أستاذه ، وقد رأينا أن أستاذه كان لا يمهله حتى يفكر بالطريقة التي تعودها . لكن كان يدفعه بقوة لا تعرف الإبطاء لمحاربة الأدواء التي نخرت بسببها عظام الإسلام إذ ذاك .

وإذن فلا مفر للشيخ من مسامرة هذا الجواد الجامع يعدو بعدوه ويركض

بركضه ويصهل بصهيله ويذب بوثوبه ، لايلوى على شئ . وهاهو ذا الشيخ في باريس يقوم بدور المعلم المصلح للعالم الإسلامى كله ، بعد أن كان في مصر معلما للمصريين وحدهم . ومن ثم أخذت مقالاته في العروة الوثقى طابع الدعوة الحارة إلى جانب الطابع الأول ، وهو طابع الدرس الخالص الهادى . ومضى يكسب نحواً من اثنتين وعشرين مقالة بهذا الروح ، كان للسيد فيها فضل الفكرة في أكثرها ، وكان للشيخ فيها فضل الأسلوب في أكثره .

والفارى . لهذه المقالات كلها يرى كيف كان هذان الرجلان يدركان أن إصلاح الشرق لا يكون إلا عن طريق الدين . فالدين في رأيهما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة معاً . وعندهما أنه لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، وأن الجامعة الإسلامية ، يجب أن تقوم مقام الروابط الأخرى ، بل ينبغي أن تكون مقدمة عليها . وفي رأيهما أن الدين الإسلامى يدعو إلى القوة ، ويدعو إلى العلم ، والعلم في ذاته طريق من طرق القوة . ولذا يتعجب الرجلان أشد العجب من الأمم المسيحية في العصر الحاضر سبقت الأمم الإسلامية في ميدان القوة التى بنى الدين الإسلامى عليها .

ويرى الإمامان العظيمان أنه عن طريق الدين يمكن أن يسموا بنفوس المسلمين إلى المجد ، وأن يجددا فيهم الأمل ؛ لأن الدين الإسلامى لا يأمر بالجهن ولا باليأس ، ولكن يدعو إلى الأفدام ويجهد طريق القوة ، ويكره القنوط ( ولا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون ) .

وفي رأيهما أنه لا بد من إصلاح الأفكار الخطئة التى تسود الشرق وتسيطر على أذهان أهله وهى أخطار جسيمة يمكن أن يكون لها عنوان واحد هو (الوهم) ، فعلى المصلحين أن يتجردوا لمحاربتة حتى تتخلص الأمم الشرقية عما استولى عليها من الضعف وتسترد حريتها المسلوقة ويجدوها القديم ، وتتقلب على عدوها الذى استغل فيها هذا المرض وهو الوهم ، كما استغل فيها سوء فهمها لمقيدة القضاء والقدر ومتى فهم المسلمون دينهم على الوجه الصحيح استطاعوا أن يصلوا إلى المرتبة اللانته بهم بين الأمم . وعلى المسلمين في هذه الحالة أن يشجعوا العلوم الحديثة

التي توصل بها الأوربيون إلى الكشف عن آلات القتال ، فقد قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، وعليهم أن يجاربوا الاحتلال الأجنبي أينما كان .

تلك هي الأفكار التي اشتملت عليها مقالات الشيخ في جريدة العروة الوثقى . أما الأسلوب الذي كتبت به هذه الأفكار فقد ارتفع في درجة جودته وبلاغته ، كما ارتفع في درجة حرارته وتدفعه عما كان عليه في الوقائع المصرية الرسمية . والفضل في ذلك أولا لوجود الشيخ إلى جانب السيد - وهو مصدر إشعاع حرارى لا يقدر مداره كإينا .

ثم إن الشيخ محمد عبدة كان في مصر يروض قلمه على التعبير حتى مر من هذا القلم ، وأكسبه هذا المران قوة وسهولة وجمالا وتدققاً في وقت معاً . فإذا أضيف إلى ذلك أنه كان يصدر عن عاطفة قوية منفسحة تسع العالم الإسلامى كله أدركنا إلى أى حد ارتفع أسلوب الشيخ في ذلك الحين ، أما السجع فقد استمر الشيخ في عدوله عنه ، ولكنه كان ينفلت منه انقلاباً ، وذلك حين تعلو في مقاله درجة الحرارة ، أو التدفق ، فيضطر الشيخ في هذه الحالة إلى السجع ، ويأتى سجعه إذ ذاك مجرد إحداث متوافق بين نفسه وبين قلمه ، أو بين اهتزازاته الشعورية واهتزازاته اللفظية إن صح هذا التعبير .

على أننا نلاحظ أيضاً أن أسلوب الشيخ في هذه المقالات كان لا يجرى مجرى الحديث العادى كما كان يفعل في المرحلة الأولى من مراحل الكتابة ، ولكن يجرى مجرى الخطابة ، وفيه كثير من خصائصها كتكرار الكلام بقصد التأكيد ، وكثرة النداء في غضون المقال ، وكثرة الإشارة والاستفهام الإنكارى ونحو ذلك .

ومن السهل على قارئ هذه المقالات أن يدرك أن العناية بالفكرة نوحشك أن تغلب فيها العناية بالأسلوب ، وهذا ما يفسر لنا خلو العبارة أحياناً من الالفاظ الفحلة الجزلة ، ومن الجرى وراء المحسنات وما إليها من أدوات الزينة اللفظية التي استعاض عنها الشيخ بصدق العواطف المنبثقة في ثنايا المقال ، وبدرجة الحرارة التي وصل إليها



من أجل هذا حملت مقالات العروة الوثقى - كما قلنا - طابع الدروس الدينية أو السياسية ، حتى كأن بعض هذه المقالات إنما كتبت لتفسير القرآن تفسيراً يتفق وأغراض الجريدة .

ومع هذا وذاك فإننا نلاحظ في هذه الفصول الأدبية الصحفية أن ذوق كاتبها قد ارتفع إلى درجة كان يأتي فيها بالصور البيانية الرائعة ، ومنها على سبيل المثال :

« ومن الفضائل الحسنة التي يدعو إليها الدين النظر إلى أفراد الأمة الواحدة كأعضاء الجسد الواحد ، وإلى أن أصغر فرد في الأمة بمنزلة مسهل صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه (١) » .

وقوله « إن الإنجليز صاروا كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية (٢) » .

وقوله « أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام المجلس فتلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهتم إلا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت ، أو جرفه السيل ، أو أدركته الزلازل (٣) » .

وقوله « والفضائل في المجتمع الإنساني كقوة الحياة المستكة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته . كاليد بها البطش والتناول وليس من خصائصها الإبصار ، والعين من وظائفها الإبصار . . . الخ (٤) » .

ثم بالرغم من سهولة الألفاظ التي تتألف منها المقالات فقد يصطدم القارئ في حالات قليلة وليست شائعة ، بكلمة غريبة ، ولفظ قليل الاستعمال عند الكاتب .

---

(١) ص ١٣٦ مجلة العروة الوثقى ط ١ المكتبة الأهلية في بيروت .

(٢) ص ١٥٩ .

(٣) ص ١٩٠ .

(٤) ص ١٣٣ .

ومن أمثلة ذلك :

( وإذا أراد الله بشعب أن يلقى بوائيه إلى أجل مسمى أودع في ضناضته هذين الوصفين الجليلين يريد الميل إلى الوحدة ، والكلف بالسيادة (١) ) .  
( ف قوله ألقي بوائيه معناه أقام وثبت ، وقوله ضناضته معناه أصوله ) .

ومثل : ثغث جماعة من متزندق هذه لاوقات في بيان مفاسد التعصب الديني (٢) .

( ف قوله ثغث معناه خلط في الكلام )

ومثل قوله في فصل عن التعصب الديني : لفظ شغل مناطق الناس حتى صار نكأة للمتكلمين ، يلجأ إليه الصبي في تهنته ، والدلقاني في تفييقه (٣)  
( فالدلقاني : سريع الكلام ، والتفييق : التنطع ) .

ليس شك في أن الكاتب يلجأ أحياناً للألفاظ الغريبة ليحقق غاية بلاغية في نفسه ، ولكن الخطر في ذلك يأتي من أن القارىء إما أن يتمهل ويجهل ذاكرته حتى يعرف معنى الكلمة ، وإما أن يحاول البحث عنها في معاجم اللغة ، وهذه الحركة أو تلك كافية لأن تضع عليه المعنى وتفوت على الكاتب قصده من الإغراب .

على أن قارىء العروة الوثقى لا يسهه إلا الاعتراف لكتابها بحسن اختيار الألفاظ ذات الإيجاء الخاص . وهي صفة لا تنيسر لغير الموهوبين في الكتابة ، أو المثقفين بالثقافة الإسلامية العميقة .

ثم إن الأمثلة التي توخى الإمامان ضربها في مجلة العروة الوثقى ، كان معظمها مشتقاً من السياسة الإنجليزية في الهند والافغان ومصر ، وقائماً على التنديد بهذه السياسة والفض منها ، وكشف القمام عنها للعالم الإسلامى . وبهذا العنصر الأخير - وهو السخرية - استخفت مقالات العروة الوثقى اسم

---

(١) العروة الوثقى ط . المكتبة الأهلية بيروت ص ١٥٨ .

(٢) ص ١٩٦ .

(٣) ص ١٩٢ .

الكتابة الصحفية الصحيحة . فقد سبق أن قلنا مراراً أن شرط النجاح في كتابة المقالة هو أن يكون الكاتب الصحفي ناقماً على شيء معين ، وأن يعبر عن هذه النقمة إما بطريق الغضب — على مذهب الشرقيين إلى عصرنا هذا — أو بطريق الفكاهة أو السخرية على مذهب الأوربيين إلى اليوم .

لم يبق إلا أن نعرض على القارئ نموذجاً واحداً من كتابة الشيخ في هذه المرحلة الهامة من مراحل حياته . غير أننا لا نستطيع أن ننقل إلى القارئ مقالا كاملاً من مقالات الشيخ في هذه الجريدة ، لأنها طويلة ومسرفة في الطول إلى الحد الذي لا يمكن نشره في جريدة من جرائد الوقت الحاضر .

ولذلك نحن مضطرون إلى الاكتفاء بجزء فقط من إحدى المقالات ، ليكون نموذجاً لأسلوبه في تلك الفترة .

ولتكن مقالته المشهورة بعنوان :

## القضاء والقدر

قال بعد مقدمة طويلة استغرقت أربعة وعشرين سطراً (١) :

« من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحق ، كثر فيها انعطاف المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون . وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعف ، ورموا المسلمين بصفات ، ونسبوا إليهم أطواراً ثم حصروا عليها في الاعتقاد بالقدر ، فقالوا . إن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم . وقد فشا فيهم فساد الأخلاق ، فكثرت الكذب والنفاق والحياة والتحاقد والتباغض ، وتفرقت كلمتهم وجعلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبل ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ، ثم لا يناقسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لأحدهم

---

(١) من ١١٤ الروة الوقتي ط . بيروت

أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به ، فجعلوا بأسهم بينهم . والامم من وراثتهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى .

ثم قال بعد اثنين وثلاثين سطراً :

« واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية ، القائلين بأن الإنسان مجبور (١) محض في جميع أفعاله . وتوهموا أن المسلمين بمقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء ، تقلبها الريح كيفما تميل ، ومتى رشح في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل . ولا حركة ولا سكن . وإنما جميع ذلك بقوة جارية ، وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطل قوام ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرم داعية السعى والمكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم . »

ثم قال بعد ثلاثة عشر سطراً :

« نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى « الجبرية » ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار ، وزعمت الأفرق بين أن يحرك الشخص فكاً للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بفققة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يعمده المسلمون من منازع السفسة الفاسدة . وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولامتقنضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون . »

ثم قال بعد خمسة وثلاثين سطراً :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر تبعه صفة الجراءة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبحث على اقتحام الممالك التي تحف لها قلوب الأسود ، وتلشق منها مرائر النور . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكار . ومقارعة الأهوال ، ويحلبها بحل الجود والسخاء ؛ ويدعوها

(١) كذا وردت هذه الكلمة بالأصل ؛ ومضم الجبر .

إلى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلي عن  
نصرة الحياة . كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

والذي يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها  
كيف يشاء ، كيف يهرب الموت في الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته وملته ،  
والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر عما ينفق من ماله في  
تقرير الحق وتشهيد المجد ، على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات  
البشرية ؟

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق : « الذين  
قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا  
الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان  
الله والله ذو فضل عظيم » .

إلى الآن كان الشيخ في مقاله هادئاً أو كالمهادى ، أو قل إن درجة الحرارة  
كانت ترتفع في مقاله شيئاً فشيئاً ، وما زالت كذلك حتى وصلت إلى درجة تشبه  
النيران في العبارة الآتية :

« اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها  
ويستلبون عليها ، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوخوا الدول وقهروا  
الأمم ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينى ( يريد البرانس ) الفاصلة بين إسبانيا  
وفرنسا إلى جدار الصين ، مع قلة عددهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية  
المختلفة ، وطبائع الأفكار المتنوعة . أرغوا الملوك وأذلوا القيصرة والأكامرة ،  
في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . إن هذا ليعد من خوارق العادات ، وعظائم  
المعجزات » .

وانظر إلى الشيخ ينفلت منه السجع والازدواج ليوائم ما في نفسه — من  
اهتزازات شعورية كما قلنا .

« دمرُوا بلاداً . ودكدكُوا أطواداً ! ورفعُوا فوق الأرض أَرْضاً ثَانِيَةً من  
الْقُسْطِ ، وطَبَقُوا أُخْرَى من النِّعَمِ ، وسَحَقُوا رُءُوسَ الْجِبَالِ تَحْتَ حَوَافِرِ جِيَادِهِمْ ،

وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤوس النابذين لسلطانهم ، فأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريضة ، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالشرق ، واقهضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ، ولا يخافون قاقة .

هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم إلى حد أن كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويبدد أفلاذ الأكباد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب ويقذف به فى قلوب أعدائهم ، فيهنزمون بهيش الرهبة قبل أن يشيعوا بروق سيوفهم ، ولعلان ألسنتهم ، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جبالهم .

أرأيت إلى الشيخ كيف بدأ كاتباً هادى الطبع ، ثم تحول إلى خطيب ملكت عليه الثورة كل جوانبه ، وما هو ذا فى نهاية المقال يتحول إلى شاعر بتخيل المسلمين ينتصرون على أعدائهم قبل اللقاء بهم فى ميادين القتال .

وانظر إلى الشيخ يستسلم لمشاعره فلا يدري القارىء بعد ذلك أيقراً شعراً يمتاز بمحبة العاطفة أم يستمع لخطيب عجز عن كبح عواطفه :

• بكائي على السالفين ونحبي على السابقين ، أين أنتم يا عصابة الرحمة وأولياء الشفقة ؟ أين أنتم يا أعلام المروءة ، وشوامخ القوة ؟ أين أنتم يا آل النجدة ، وغوث المصير يوم الشدة ؟ أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الأجداد الانجاد القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة المؤسسون لبناء الأمة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبنائكم ومن ينتحل نحلتهكم ؟ انحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعا ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً . أصبحوا فريسة للأمم الأجنبية ، لا يستطيعون ذوداً عن حوزهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم

ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدي الضال إلى سواء السبيل ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون » .

إن هنا يشعر القارىء بأن الكاتب قد عبر عن فكرته بما فيه الكفاية ، وختمها ختاماً قوياً كذلك ، ولكن القارىء يجب مع هذا كيف أن الكاتب استأنف كلامه في نفس هذا الموضوع ، كأنما نفسه لم تزل ممتلئة بكلام كثير يريد أن يتخفف منه ، فقال :

« أقول وربما لا أخشى وأما ينزعنى فيما أقول إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى إلى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت في أواسط الطبقات ، ثم رقى بهيمته إلى أعلى الدرجات ، فذلت<sup>(١)</sup> له الصعاب ، وخضعت له الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب ، ويبحث الفكر لطلب السبب إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر » .

ثم مضى الكاتب في عبارته التي سود بها بعد كل ذلك أكثر من ثمانين سطراً .

### المرحلة الرابعة

سمح للأستاذ الإمام بعد ذلك أن يسافر إلى بيروت ، وهناك اتصل به العلماء والأدباء ، وقسحت له بعض الصحف صدورها ، واستكثبت جريدة ( ثمرات الفنون ) ، وكان في أثناء ذلك على اتصال دائم بالصحف المصرية ، وبالأهرام بنوع خاص ، فكان يعرف منها أخبار بلاده وحركات أهلها .

واستطعنا أن نقف له على سبع مقالات في جريدة « ثمرات الفنون » دافع في إحداها عن المصريين ضد من اتهمهم بعصيان الخديو ، ورد في أخرى منها على سؤال وجه إليه في كتب المفازي ، ولخص في الثالثة خطبته التي ألقاها بالمدرسة السلطانية ببيروت ، وكتب الرابعة في الرد على « رسالة لصمويل بيكر في السودان ومصر وانجلترا » ، وذهب في هذه الأخيرة إلى أن المصريين عثمانيون ، وبذلك أَرْضَى الدولة العلية في مقاله هذا ، لأنه كان يومئذ تزيل قطر من أقطارها

---

(١) لعلها : فذلت .

ودافع عن الجيش المصرى الذى نصح صمويل بيسكر حكومته بالعمل على إلغائه واستبدال جيش عثمانى به ، وكشف الأستاذ الإمام عن دسائس الإنجليز الذين حاولوا استغلال قوة الدولة العثمانية لمصلحتهم في تذليل السودان لهم ليتفرغوا هم للمسألة الأفغانية . وذلك جرياً على سياستهم المعروفة ، وهى ضرب الأمم بعضها ببعض ، والاستفادة من ذلك .

والمقال الخامس في موضوع المحاكم الأهلية ، وفيه دفاع عن الوحدة بين المسلمين والأقباط ، وهو دفاع مؤيد بالحجج التاريخية والأحاديث النبوية والدلائل المنطقية .

والسادس في اللغة الرسمية في المحاكم الأهلية بمصر ، والسابع عنوانه الانتقاد .

أما أسلوب الإمام في هذه المقالات السبع ، فأسلوب بسيط هادئ ، ولم لا يكون كذلك وقد ابتعد الشيخ عن أستاذه الحاد الطبع ، وخلا إلى نفسه ، فهاد إلى طبيعته الأولى . فلا يحس القارى ارتفاعاً بسيطاً في درجة الحرارة إلا حين يتصل الكلام بموضوع الدين من قريب أو من بعيد ، كما في مقاله عن كتب السير والمغازي .

وهاك نموذجاً صغيراً من كتابته في تلك الآونة ، قال في تلخيصه لخطبة ألقاها ، موضوعها :

### العلم الأهم للأمة

« إن حرصنا معاصر العثمانيين على انتشار المعارف منشؤه أمر في نفوسنا ، فإننا إذا خالطنا سكان الأقطار الشرقية على اختلاف مواقعها نجد في كل واحد منهم إحساساً بفقد شيء كان له ، فهو آسف على قوائمه ، وفيه ميل لطلبه رغبة الوصول إليه ، غير أن النفوس في حيرة من هذا المفقود المطلوب كأنها لا تهتدى إليه . ويزيدنا أسفاً وشوقاً غالتنا لأقوام يدعون أننا في المنزلة المتأخرة عنهم . وسواء أصابوا في دعوائهم أم أخطأوا فإن الجمهور منقاد صدقهم . ولم نزل



الحيرة آخذة بالمقول حتى قامت الدولة العلية بصوت خليفتها الأعظم تنادى على الأمة : إن مطلوبكم المحبوب هو العلم . كان العلم فيكم وكان الحق معه كل مفقود يفقد بفقد العلم ، وكل موجود يوجد بوجود العلم ثم أنشأت المدارس ، وأقامت بناء المكاتب ، وحامت رعاياها من كل طبقة عن الدراسة ، وطالبهم باقتناء العلوم . فاستجاب لها أقوام منحتمهم الفطرة فوق الاستعداد ، وسيتبعهم غيرهم إن شاء الله .

أما العلم الذي نحس بحاجتنا إليه ، فيظن قوم أنه علم الصناعة . وما به إصلاح مادة العمل في الزراعة والتجارة مثلا ، وهذا ظن باطل ، فإننا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها . إن الصناعة لو وجدت بأيدينا تجد فينا جزءاً عن حفظها . وإن المنفعة قد تنهياً لنا ثم نفلت منها لشيء في نفوسنا . فنحن نشكو ضعف المهيم ، ونخاذل الأيدي وتفرق الأهواء ، والغفلة عن المصلحة الثابتة ، وعلوم الصناعات لا تقيدنا دفلاً لما نشتكه .

فطلوبنا عم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذي يحس النفس ، وهو علم الحياة البشرية .

إذا نفخت الحياة في جسم نبيهته بجميع ضروراته ، وهدته لحاجاته واستحفظته ما يصل إليه ، وصرفته في سبيل الحصول عليه . والعلم المحي للنفوس هو علم أدب النفس ، وكل أدب لها فهو الدين . فما قدناه هو التبحر في آداب الدين ، وما تحس من أنفسنا طلبه هو التفقه في الدين .

ولا أريد أن نطلب علماً محفوظاً ، ولكننا نطلب علماً مرعياً ملحوظاً . وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكمالات الروحية لم يختلف في صحته أحد من البشر ، حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين .

فإذا استكملنا النفس آدابها عرفت مقامها من الوجود ، وأدركت منزلة الحق في صلاح العالم ، فاتصبت لنصره ، وأيقنت بحاجتها إلى مشاركتها في الوطن

والمة ، فأخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل ، وهى ما يعبر عنها بحب الوطن والدولة والملة .

ولا نريد من الحب ميلا خياليا ، ولكننا نريد ميلا يبعث على العمل ، كما يرشدنا إليه الدين والأدب . ففى تحلت النفوس بهذه الفضيلة أبصرت مواقع حاجاتها ، فاندفعت إلى طلبها وطرقت لها كل باب ، ولا ترجع حتى تظفر أو يدركها الأجل . الخ .

وهكذا كان الشيخ فى بيروت يخدم العقيدة الإسلامية ويهتف بالدولة العثمانية ، ويلهج بالثناء عليها ، ويوضح للناس طريق الإصلاح الصحيح فى رأيه ، ويكتب فصوله الأدبية فى لغة توشك أن تكون عادية ، ويرسلها مرتبة ترتيباً منطقياً ، ولا يحتاج إلى الصور البيانية إلا نادراً ، كما يصف من يكرهون النقد ، ويخشون عواقبه :

« مثلم كه مثل بعض الطيور إذا رأى الصائد غمس رأسه فى الماء ، ظناً منه أنه متى أغرض عن طلبه أغرض الطالب عنه ، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وهبل عليه كبده (١) » .

\* \* \*

وعاد الشيخ بعد ذلك إلى مصر ، واشتغل بأمور كثيرة ، لا يعيننا منها فى هذه المرحلة إلا اشتغاله بالرد على (هانوتو) فإذا ذاك سنحت للشيخ أمن فرصة فى حياته . وطلق يكتب المقالات الضافية فى الرد على الوزير الفرنسى ، الذى فهم الشيخ أنه ينتقد الإسلام من حيث إن له طبيعة مخالفة لغيره من الأديان ، وذلك لأنه دين سامى ، ولأنه يقول بالقضاء والقدر ، فى حين أن الديانات المجسمة ترقى بالأفراد فى سلم الفضائل ، طمعاً فى نيل مرتبة الألوهية ، بخلاف الإسلام الذى لا يرضى للناس إلا بمرتبة واحدة ، هى مرتبة العبودية .

فانبرى الأستاذ الإمام للرد على هذه التهم ، وذلك فى ست مقالات ، انفردت

---

(١) س ٣٧٣ ج ٢ من تاريخ الأستاذ الإمام .

كل واحدة منها بتهمة من تلك التهم السابقة ، وعذبت بدحض الفكرة التي بنيت عليها .

وانتهز الإمام هذه الفرصة في رده على ( هانوتو ) ليوضح للمسلمين ضرورة فهم دينهم فهماً صحيحاً ، وتنقيته من البدع والخرافة .

وليس شك في أن الإمام بلغ من كل ذلك ما أراد ، وجاء رده مفتحاً للمسيو ( هانوتو ) لدرجة يظهر أنها أزعجته ، فراح يزعم أن مقاله أسمى فهمه ، وأسيئت ترجمته ، ووسط صاحب الأهرام في رد اعتباره إليه ، كما يقول رجال القانون وقام صاحب الأهرام قياماً حسناً بهذه المهمة .

ولا يعني هذا الرد من حيث قيمته المعنوية ، وليس عندنا متسع للقول في هذه الناحية ، ولكن يعنينا أسلوب الشيخ في هذه المقالات ، فقد بلغ أسلوبه فيها الذروة ... سهولة قول ، وسلامة عبارة ، وقوة حجة ، واستقامة منطق ، وإبداع تصوير ، ووصول بالكلام إلى درجة عظيمة من هذه المزايا الثلاث للأسلوب ، وهي الحق والوضوح والجمال .

فن عباراته الجليسة ، وما أكثرها ، قوله :

« ألم يخطر بباله تلك العظام التي اتفخ بها بطن التاريخ ، وما كانت عليه أوربا الآرية من الحمجية ، وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها ، وإنما جاءاها بمخالطة الأمم السامية (١) » .

وقوله :

« إن أول شرارة ألهمت نفوس الغريين فطارت بها المدنية الحاضرة ، كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس (٢) » .

وقوله :

إن الناظر في التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسده على جليد الأزمان ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ، ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية (٣) » .

ولم يخل رد الإمام على الوزير (هانوتو) من قسوة ومرارة وإسفاف في اللفظ أحياناً ، وذلك حيث يقول :

« وأنى أقرر لهذا الوزير الحقير بدنيية يعرفها صبيان المكاتب ، وهى أن دين التوحيد ليس ديناً سامياً ، بل هو دين عبرانى ، فقد عرف به إبراهيم عليه السلام وبنوه ، ومنهم عيسى من جهة أمه ، إلى أن قال :

« وإن صغرت شأن (هانوتو) في معارفه التاريخية ، فذلك لأنه صغير فيها حقيقة . وكثير من قومه يعرف ذلك منه الخ (١) .

وعنى الإمام أثناء كل ذلك بموسيقية العبارة بل إن هذه العناية جاءت صدق لمواطنه التى جاشت بها نفسه في ذلك الوقت .  
وانظر هنا إلى قوله (٢) :

« ثم لم يكن من أصوله ( أى من أصول الإسلام ) أن يدع ما لفيصر لفيصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب فيصر على ماله : ويأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا : فهدى ضالا ، وألان قاسياً ، وهذب خشنأ ، وعلم جاهلا ، ونبه غاملا ، وأثار إلى العمل كسلا ، وأقدر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق فاسداً ، وروج من الفيضلة كسداً ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا . . . فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص ، وألفة في البيت ؛ ونظاما للملك ، وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شئونهم الخ .

ما أظن القارىء بعد ذلك بحاجة إلى أن أسوق له نموذجاً كاملاً من مقالات الإمام في رده على هانوتو . فهى قريبة إليه في مصدرها ، ولا نقول فيها أكثر من هذا الحد (٣) .

\* \* \*

### الرسائل الإخوانية

بقيت صورة أخرى من صور الأسلوب الذي جرى عليه الشيخ ، لا تتم الصحافة ولكن تهم الأدب وحده ولم نجد بأساً من أن نختتم بها الحديث عن هذا القلم ، لا شيء إلا ليظهر للقارئ الفرق بين أسلوبه في المقالات الصحفية ، وأسلوبه في الرسائل الأدبية .

هذه الصورة هي أسلوب الشيخ في رسائله الإخوانية . والمطلع على طائفة من هذه الرسائل يجد الإمام فيها كغيره من أفاضل الأدب في زمانه ، يميل ميلاً قوياً إلى السجع والاقتيباس والاستشهاد بالأشعار إلى درجة يهتم فيها — كما انهم كثيرون غيره من أدباء عصره — بالتكلف والتصنع . ولم تسكد رسالة له تخلو من ذلك عدا هذه الرسالة التي كتبها وهو في سجن القاهرة متهماً بالاشتراك في حوادث الثورة العراقية . وذلك في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢ م ، الموافق ٩ المحرم سنة ١٣٢٠ هـ ، حيث قال (١) .

عزيزي :

تقلدني الليالي وهي مدبرة كائنات صارم في كف منهزم  
هذه حالتي . اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تجبر ، فأخذت صغوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية والإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالأحجار أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين .

انتشرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشموش والأقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة ، وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيرانها إلى عوالم غير عالمنا هذا . فولي معها آلهة (٢) الخير أجمعين ، وتمخضت السلطة لآلهة الشر ، قتلوا الطباع ، وبدلوا الخلق . وغيروا خلق الله . وكانوا على ذلك قادرين .

---

(١) ص ٥٩٢ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام .

(٢) العجب من هذا الشيخ كيف يصطنع في كتابة لفظ ( الآلهة ) بصيغة الجمع هكذا على طريقة الأوروبيين أو اليونان الأقدمين ( المؤلف )

رأيت نفسى اليوم فى مهمة لا يأتى البصر على أطرافه . فى ليلة داجية . غطى فيها وجه السماء بغمام سوء ، فكأنف ركماً ركماً ؛ لا أرى لإنساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أترى مجيئاً .

أسمع ذئاباً تعوى ، وسباعاً تزار ، وكلاباً تاج ، كلها يطلب فريسة واحدة هى ذات السكائب والتف على رجلين عظيمين ؛ وقد خويت بطون السكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من الهالكين .

قطع جبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالأصفياء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء . وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء والناس أجمعين .

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، ومزقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيظ يحتم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة القدر ، والله لا يهدى كيد الخائنين الخ . وهكذا جاءت هذه الرسالة ضرباً من الهياج العصبي ، الذى ركب الشيخ منذ دخوله السجن ، وهى رسالة طويلة نسكتفى منها بهذا القدر .

وتتلخص ملاحظاتنا عليها فيما يلى :

أولاً : مراعاة السكائب لهذا الترادف الموسيقى للعبارة ، وهو ترادف كان يساير اضطراب السكائب فى مشاعره ، وتأثره بانفعالاته .

والسكائب فى الجزء الذى نقلناه من الرسالة شاعراً أكثر منه كاتباً ، وهو مستسلم لمواطفه ، حريص على التعبير عنها تعبيراً يلائم قوتها فى نفسه ، وقدرتها على إرعاد جسمه وقلبه .

ثانياً : وما يلاحظ على هذه الرسالة تلك الغافية النونية التى ألهمها السكائب فى نهاية كل فقرة من فقرات الرسالة ، وهى ظاهرة تذكر بالفن القرائى . ولعلها أثر من آثاره فى نفس الكاتب والعجيب أن الشيخ ألهم ذلك فى الرسالة من أولها إلى آخرها ، على طولها وامتداد القول فيها إلى درجة تلفت النظر .

ثالثاً : وبلاحظ على الرسالة أيضاً أن الكاتب عني فيها بجانب التصوير عناية كبيرة . فقد صور نفسه في هذه المحنة التي مرت به كأنه في صحراء مترامية الأطراف ، في ليلة شديدة الظلام ، ليس فيها إنسان ، ولكن فيها آسداً تزار ، وذئاباً تعوى ، وكلاباً تنبح ، وثعباناً يلتف حوله ، وكلها تطلب طعاماً ، وهو وحده في هذا المسكان المظلم الذي تملؤه الوحشة هدف لكل هذه السباع الجائعة . ومن كانت هذه حاله فهو لا شك من الهالكين .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك أنه بدأ رسالته مستشهداً ببيت من الشعر ، عرفنا إلى أي حد كان كلف الشيخ بالصناعة اللفظية ، التي لم تفسد مع ذلك المعنى ، ولا أخذت من حرارة العاطفة .

ولو ترك الشيخ وشأنه لكان من كتاب الصنعة ، لأنه لم يكن يتركها إلى الترسل الخالي منها إلا في ظرف واحد ، هو الكتابة في الصحف .

\* \* \*

وللشيخ بعد هذا كله مشاركة قوية في لوائح الإصلاح والتعليم الديني في أشهر أقطار العالم الإسلامي ، وأهمها ثلاث :

الأولى : لإصلاح التعليم في تركيا ، كتبها وهو في منفاه ببيروت ، ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين ، وأرسلها إلى شيخ الإسلام بالآستانة في ٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ هـ .

والثانية : في إصلاح القطر السوري ، قدمها إلى وإلى بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة إلى شيخ الإسلام . كتبها بروح الرجل المسلم العقيدة ، العثماني المشرب ، الذي لا يجد - على حد قوله - في فرائض الله بعد الإيمان بشرعه ، والعمل على أصوله ، فرضاً أعظم من احترام مقام الخلافة ، وشحن المهمة لنصرته بالنفكر والقول والعمل .

« .. فإنما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان ، فغافلها محاد لله ورسوله ، ومن حاد الله ورسوله فأولئك هم الظالمون » .

والثالثة : فى إصلاح التعليم فى مصر ، كان قد فرغ من إعدادها ، ولكن يظهر أنه لم يقدمها بالفعل لأولى الأمر . بدأها بمقدمة جلية فى طبيعة مصر والمصريين ، ووصف فيها أخلاقهم ونفسياتهم وتدينهم واستعدادهم للإصلاح ، ثم رسم طريق هذا الإصلاح فى المدارس الحكومية والمدارس الأجنبية ، فى الجامع الأزهر وفى مدرسة دار العلوم .

والاستاذ الإمام فى هذه اللوائح الثلاث يقصر همه على إصلاح التعليم الدينى فى العالم الإسلامى عامة ، وفى مصر خاصة ، وكان يبنى نفسه بمنصب مدير لدار العلوم بعد عودته من المنفى .

ورضع لنفسه وللمدرسة هذه الخطة الحكيمة ، ولكن ولاية الأمور - كما رأينا - كانوا يخشون عودة الشيخ إلى الانصال بالشباب المصرى . لحيل بينه وبينهم وفرغ الشيخ منذ يومئذ لإصلاح المحاكم ، وإصلاح الشورى ، وإصلاح الأزهر ، ومات على هذا الأخير .

أما لغته فى هذه اللوائح فهى هى لغته فى مقالاته الصحفية السابقة ، قوة فى العرض ، ودراسة للموضوع لها حظ من العمق ، ومعرفة جيدة بطبائع الأمم ، وعلم دقيق وبصر بأمور التربية والتعليم ، وفقه عظيم بالسياسة ، ثم سهولة ووضوح فى تأدية المعنى ، وعدول تام فى هذه اللوائح كلها عن الزينة اللفظية أياً كان نوعها .

ولا أظن القارىء بحاجة هنا كذلك إلى أن نعرض له نموذجاً من هذه اللوائح ما دامت كلها لا تنسج للنقد الأدبى إلى أبعد من هذا الحد .

\* \* \*

تلك حياة الأستاذ الإمام ، حافلة بالجهاد فى سبيل الوطن والدين والعمل الدائب لما فيه خير المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

وتلك صورة من أسلوبه فى الكتابة والتحرير ، حاولنا أن نجمع خطوطها ، وأن ننعم النظر فى أصباغها وألوانها ، وأن ندرس الإطار الذى عرضت فيه من جميع نواحيه ، ونحن نخشى مع هذا أن نكون قد أسأنا إلى الشيخ من غير قصد ،



أو شوهدنا من جمال أسلوبه في أثناء العرض . فإن رأى القارىء شيئاً من ذلك فما إليه قصدنا ، وما التوفيق إلا من عند الله .

والحق أنه لولا أن رسمت مقالات الشيخ بالطول من ناحية ، وبطابع الدرس من ناحية ثانية ، لقلنا إنه بلغ الغاية من المقال الصحفي من حيث موضوعه ، ومن حيث أسلوبه في وقت معاً .

ومع ذلك سنعود إلى هذه المسألة مرتين : أولاً عند الموازنة بين الإمام وبين الكاثين الآخرين الذين اشتمل عليهما هذا الكتاب . وهما أديب إسحاق وعبد الله النديم والثانية عند الكلام في الطابع العام للمقال الصحفي لتلاميذ المدرسة الثانية . وذلك في الفصل الذى ينتهى به هذا البحث .

---

## الفصل السادس

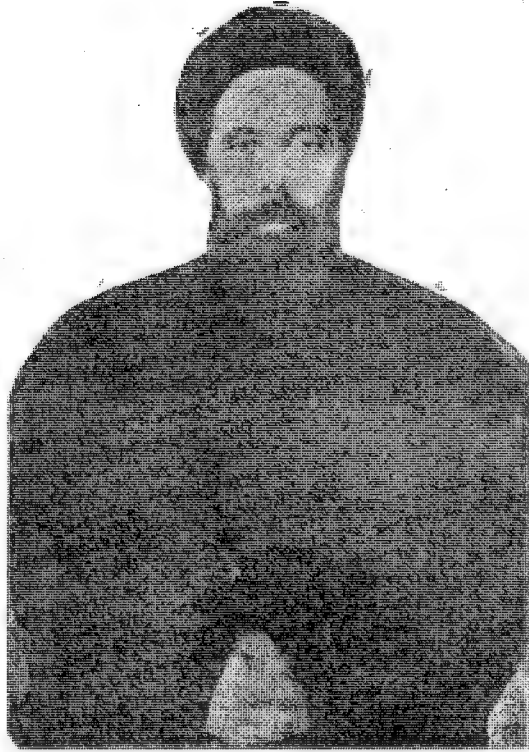
### حياة السيد عبد الله النديم

١٨٤٥ - ١٨٩٦

من الناس من يعرف العظمة بأنها نوع من الشذوذ البشرى ، وكثير منهم لا يستطيعون - وإذا خيروا لا يريدون - أن يدفعوا ثمن هذا الشذوذ الذى هو أشبه شىء بنتوء ظاهر فى جسم جبل أملس ، أو طريق واضح معبد .

غير أن للطبيعة نفسها ولما بذلك ، لأن هذا الشذوذ الذى هو نوع من المخالفة للعتاد مصدر من مصادر الجمال على كل حال . وإلا فهل تكون الطبيعة جميلة إذا كانت لا قلبت إلا أشجاراً متساوية فى الغلظ أو الطول ، وهل كانت الحياة البشرية تحتمل لو أنها كانت تتألف من رجال فقط ، أو من نساء فقط ، أو من طوال فقط ، أو من قصار فقط ؟ أظن لا .

هذا رجل نجار أو خباز يعيش على الكفاف ، واسمه ( مصباح ) ، وقيل إن نسبه ينتهى إلى إدريس الأكبر ، من أسباط الحسن بن علي بن أبي طالب . ولد له ابن سماه ( عبد الله ) . وكان ذلك بالإسكندرية سنة ١٢٦١ هـ - ١٨٤٥ م . فلما كبر أرسله إلى الكتاب ، وهناك أتم الولد حفظ القرآن قبل أن يبلغ التاسعة من العمر ، ثم أخذ هذا الولد يختلف مع الصبية من أمثاله إلى جامع يقال له ( جامع إبراهيم باشا ) ، حيث درس الفقه والأصول والمنطق ، ثم لم يصبر الصبى على الدرس ففر من الجامع ، ولكن إلى أين ؟ إلى التسكع فى الطرقات ، وحشر نفسه حشراً بين الجماعات ، فإذا وجد جماعة من الناس يتناشدون الرجل أو الشعر ، أو يتبادلون الملح والنوادر ، أو يتماجنون بما أرادوا من ألوان المجون ، اندس الصبى بينهم ، واستمع بكل أذنيه لهم ، وأودع ذلك كله خزانة تعرف كيف تحفظ كل شىء يستقر بها ، وهذه الخزانة هى حافظته القوية ،



عبد الله النديم

١٢٦١ - ١٣١٤ هـ

١٨٤٥ - ١٨٩٦ م



وذاكرته العجيبة ، التي كانت إذ ذاك كل ما يملكه من أسباب التفوق على أقرانه ، ثم أصبحت فيما بعد — أعنى في وقت الشباب والكهولة — كل ما يملكه من أسباب الشهرة الشعبية التي وصف بها .

أليس عجيباً أن فنى هذا شأنه ، وتلك أسبابه ، لم يكلف نفسه ذهباً إلى المدرسة أو الجامعة ، ولا أخذ نفسه في أول الأمر بشئ من جد الحياة في وقت الطلب ، يصبح في زمن ليس بالطويل إماماً من أئمة الأدب في عصره ورائداً من رواد النهضة في أمته ؟ .

الحق أن القارىء حياة هذا الرجل ليؤمن إيماناً لا ريب فيه بأن ملاسة الحياة نفسها . ومخالطة الناس على اختلاف طبقاتهم ، ربما كانت أقوى تأثيراً في النفس ، وتكويناً للخلق ، من الجامعة أو المدرسة .

ولا غرابة في ذلك فالحياة الواقعة نفسها كانت أهم مصدر للثقافة رجل كبير من رجالات الأدب العربي ( هو الجاحظ ) ، وجاءت كل تصانيفه أكبر شاهد على ما نقول .

تخيل معي هذا الفتى الصغير وهو يحول في أنحاء الإسكندرية ، أو في أرجاء طنطا أو المنصورة أو القاهرة ، يستمع إلى السوق وهم يتحدثون ، أو إلى الخاصة وهم يتحاورون ، ويشقى الموالد العامة حيناً ، ويرج بنفسه هنالك في غمار هذه الطائفة التي عرفت باسم ( الأدبائية ) ، ليلتقط ما يقولون ، ويقلدهم فيما يفعلون ، لا تفوته حركة من حركاتهم ، ولا من حركات الناس جميعاً في ذهابهم وإيابهم ، ولا تضيق منه همسة من همساتهم ، وكان ذهنه آلة تصوير تهبأت لالتقاط كل هذه الأشياء المتعددة . والنفس الحساسة تحتزن حتى حفيف أوراق الشجر ، وهففة الأغصان ، ودبيب النمل ، وحلاوة البساتين ، وأدق مجالى الجبال والقبج ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك في فنها متى آن أوانه ، (١) .

ولندع هذه المقدمات ، ولنذكر طرفاً من حياة هذا الرجل على سبيل

---

(١) اقرأ زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ٢٠٦ .

الإيجاز ، وفي اعتقاد الكثيرين أن حياته تصلح أن تكون رواية تمثيلية من الطراز الأول .

فقد ترك عبد الله النديم جامع إبراهيم باشا اتجه إلى تعلم فن الإشارات البرقية ، وإذا تم له ذلك التحق بمكتب تليفراف بمدينة بنها . ثم انقسم له الحظ ، فشغل مثل هذا العمل بمكتب ( القصر العالي ) ، وقد أتاح له هذا العمل الجديد نوعا من الترف والفراخ . فكان ينفق بنفسه في أوقات الراحة يجالس الأدب بالقاهرة ، وخاصة مجلس محمود سامى البارودى ، حيث التقى بالصفوة الممتازة ، من أمثال على أبى النصر ، وعبد الله فكرى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والشيخ أحمد الزرقانى ، ومحمد سعيد ، وجعفر مظهر ، وعبد العزيز حافظ .

وقد أثنى النديم عليهم جميعاً في مقال له نشر ( بالسلافة ) .

وفي القاهرة أيضاً كان النديم يختلف أحياناً إلى الجامع الأزهر حيث تعرف هناك بصديقه العالم الكبير الشيخ حمزة فتح الله . وبقي النديم في ( القصر العالي ) حتى غضب عليه ( خليل أغا ) فطرده نهائياً من القصر ، وسدت أمامه أبواب الرزق ، وانتهى به الأمر إلى أن اشتغل مدرساً لأولاد أحد العمدة بمديرية الدقهلية ثم تخصص هو والعمدة ، واضطر النديم إلى تركه ، ولكن بعد أن هجاء أقذع هجاء ، في قصيدة له شحنت لسانه شحداً جيداً ، وراحت فنه الشعرى رياضة جيدة .

ثم انفصل أمر النديم بأحد أعيان المنصورة ففتح له دكاناً يبيع فيه العصائب والمناديل ، فاتخذ النديم من دكانه هذا متجرّاً ومجتمعاً في الوقت نفسه لرجال الأدب ، وذلك على عادة المثقفين من تجار الريف المصرى إلى يومنا هذا . فعلى هذا النحو كان حسن عبد الباسط الهجاء المشهور صاحب دكان عطارة . وعلى هذا النحو كان الشيخ أحمد وهبى الشاعر الأديب صاحب دكان طرايشى ، وهكذا .

ثم أقفل النديم وأغلق دكانه ، وأخذ يرحل من بلد إلى بلد ، حتى وصل إلى طنطا ، وفيها يترك رجل من وجوه القوم ، واسمه ( شاهين باشا كنج ) كان

له كلف بالأدب ، فاتصل به النديم . واسمع إليه بقص عليك قصته مع شاهين باشا ، فيقول :

« كنت بمولد السيد البدوي ، ومعى السيد على أبو النصر والسيد حلاوة ، وجلسنا على قهوة الصباح تنفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما ، استأنفت أخاه إلينا ، وخصانا بالكلام .

فأخذنا يمدحاننا واحداً فواحداً ، إلى أن جاء دورهما إلى » ، فقال أحدهما مخاطبني :

أنعم بقرشك يا جندى      ولا كسنا آمال يا أفندى  
إلا أنا وحياتك عندي      بقى لى شهرين طول جمان  
فقلت على سبيل المراح :

« أما الفلوس أنا مدبشى      وأنت تقولى ما امشيشى  
يطلع على تحشيشى      أقوم أملكك الأودان

قد بلغ شاهين باشا ذلك ، وأنى غلبت الأدبانية ، طلب شيخهم ، ووعدته إن غلبوني بمطعم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين سوطاً ، واجتمع لذلك حشد من الناس كبير ، (١) . ثم أخذوا يقولون والنديم يرد عليهم واحداً بعد واحد ، واستمرت هذه المساجلة طويلاً حتى ألغمهم .

ومنذ يومئذ أصبح النديم أثيراً عند الباشا ، بل أصبح الباشا لا يمجده غنى عن مجالسته . وحضر النديم اجتماعاً حافلاً في منزل الباشا ، وتعامل عليه كل القوم ، حتى اقترح بعضهم عليه إنشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبي المشهورة التي مطلعها :

أقل فعلى بله أكثره مجد (١)

وكانوا يقصدون بذلك تعجيزه ، فغضب النديم ، وأمسك القلم ، وأنشأ قصيدة أولها

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد      ومن سار فى نصرى تكلفه الحمد

(١) انظر تراجم أعيان القرن الثالث وأوائل القرن الرابع عشر لأحمد تيبور باشا ، وانظر مجموع مجلة الأستاذ ص ٩٨٦ بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٨٩٣ .

ومنها .

ومن عجب الأيام شهم آخر حجا يمارضه غر ويفحمه وغد  
ومن غر الأخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد (١)

وفي هذه الأشعار القليلة من الفحولة والجزالة ما ينبيء بموهبة هذا الرجل ،  
ويدشر بمستقبل له عظيم في عالم الأدب .

وإلى الآن كان النديم غارقاً في لهُو الحياة ، منغمساً في هذا العبث اللفظي ،  
الذي كسب به بعض الأصدقاء ، وتقرب بسببه إلى بعض الكبراء . ولعله كان  
يحسب أن الحياة نفسها لم تكن تعدو ذلك الوضع ، ولا تسكاد تعرف غير هذا  
اللون . غير أنه سرعان ما عاد إلى الإسكندرية - مسقط رأسه - وهناك ولد  
هذا الفتى ميلاداً جديداً ، وأعيد خلقه على غرار جديد . فقد رأى الناس في هذه  
المدينة لا يشتغلون بما كانوا يشتغلون به أمس من الأسفار المسلية ، والفكاهات  
المضحكة ، والأحاديث الفارغة ، يقضون بها أوقات فراغهم ، وما أطول الأوقات ،  
ويصلون بها سواد ليلهم بلباس نهارهم ، وما أكثر ما نوات عليهم الأيام . بل  
هاله أن رأى مدينة الإسكندرية وعليها طابع المجد . ففى يومئذ تتحدث في  
أمر كثيرة ، كصندوق الدين وتدخل الدول الأجنبية والشورى ، والظلم  
والاستعباد ، والاستقلال والحرية ، والجهل والعوز ونحو ذلك . وكلها أمور  
طبعت على حياة الناس يوم ذاك عبوساً وتقطيباً حل فيها محل البشر والإيناس .

فإذا يفعل النديم ؟ أيمضى في عبثه القديم ؟ أم يدخل فيما دخل فيه الناس  
من هذا الجديد ؟ إن طبيعة النديم تدعوه دائماً أن يسكون قطعة من الوسط الذي  
يحل فيه ، أو البيئة التي يعيش فيها . فأسرع ما ترك اللهو والعبث ، وبدأ  
حياة المجد والكفاح ، وكتب لنفسه هذه الشهرة التي تتحدث عنها ، والعظمة  
التي سلبت له ، فكان أول ما صنعه النديم وهو بالإسكندرية أن اشترك  
مع أديب إسحاق وسليم النقاش في صحيفتي ( المحروسة ) و ( العصر



الجديد) (١) اللتين صرح بهما لسليم النقاش عقب إلغاء جريدتي (مصر) و(التجارة). ولم يكتف النديم بذلك حتى التحق بجمعية سرية ، هي جمعية مصر الفتاة ، كانت تهدف إلى نشر التعليم ، وكانت تخوض في سياسة إسماعيل ، وما زال بهذه الجمعية حتى أخرجها من السر إلى العلن ، وجمع له بنفسه من أعيان الثغر مالا نعشها به من جديد ، وأطلق عليها اسم ( الجمعية الخيرية الإسلامية ، وهي غير الجمعية المعروفة الآن بمصر بهذا الاسم . وأعلن النديم وزملاؤه يومئذ أغراض هذه الجمعية ، ومنها إنشاء مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً ، ومنها بث الروح القوي في البلاد .

وسرعان ما تم إنشاء هذه المدرسة ، وعين النديم مديراً لها . وكان ذلك في أواخر عهد إسماعيل ، وشارك النديم مشاركة قوية في وضع مناهجها ، بل قام هو بتدريس مبادئ الأدب والإنشاء فيها ، ولم يأل جهداً في تمرين التلاميذ على الخطابة ، التي كانت سمة من سماته وخلقه فيه .

ثم حين عزل إسماعيل ، وتولى مكانه توفيق توسل إليه النديم أن يحضر امتحان المدرسة ، لحضر بنفسه وسر من إجابات التلاميذ ، ثم سأله النديم أن يعهد إلى ولي عهده ( الأمير عباس ) برياسة المدرسة ، فنجح الخديو المدرسة هذا الشرف ، وأتى لزيارة المدرسة ومعه ولي العهد في يوم حافل أعد له النديم ثمانين وعشرين خطبة ١١ ثم أكثر النديم في إقامة الحفلات . وكان التلاميذ يقومون فيها بتمثيل روايات ناجحة كان يؤلفها لهم النديم ، ويشترك معهم في تمثيلها بنفسه ؛ ومن هذه الروايات رواية بعنوان « الوطن » و « طالع توفيق » ، وأخرى بعنوان « العرب » .

---

(١) كانت صحف سليم النقاش وغيره من السويين في مصر تأخذ جانب الحكام . وقلما كانت تأخذ جانب الشعب المصري ، ولذلك أصبحت المحروسة يوماً ما لسان حال شريف باشا رئيس النظار ، ثم أصبحت لسان حال عمر لطفي باشا محافظ الإسكندرية وذلك في الأسابيع التي سبقت الاضطرابات التي حدثت في مدينة الإسكندرية وكانت تهزيراً بالثورة הראية وضرب الإنجليز مدينة الإسكندرية .

وبقى النديم على هذا العمل يشغل فيه عقله وقلبه وأعصابه ودمه ، حتى كاد له إخوانه بالجمعية الخيرية ، ولفقوا له تهماً فصل بسببها من الجمعية ومن المدرسة في وقت معاً .

لذا ذاك فكر النديم في أن يجعل الصحافة حرفة له يكسب منها عيشه ، ويدب فيها فكره ، وينفذ بها إلى قلب الشعب الذي تأدب بأدبه ومهر في دراسة نفسيته بطريقة عملية بحتة ، هي طريقة الاندماج في هذا الشعب بكل جوارحه كما رأينا .

وكانت أولى صحف النديم التي ظهرت باسمه صحيفة يقال لها ( التنبكيت والتنبكيت ) سلتحدث عنها عندما نفيض في أساوبه وبيان الخصائص التي يشتهر بها هذا الأسلوب .

ثم ظهرت بوادو الثورة العربية ، وكانت شدة النديم قد سرت في الشعب المصرى على اختلاف طبقاته وزادها سرياناً ما طبع عليه النديم من ميل - كما قلنا - للخطابة ، واستعداد لها إلى درجة ربما لم تتيسر لشخص غيره في مصر ، منذ القرن الماضى إلى اليوم .

فقد كان النديم يظهر في كل مجتمع ، ويقف في كل حفل ، ويخطب في كل ناد ، ويرتجل الكلام ارتجالاً ، ويتدفق فيه تدفقاً ، تسعفه فيه بديهية لم نسعج بمثلها في تاريخ الأدب المصرى الحديث ؟

ولذا ذاك فكر رجال الثورة منذ بداية الأمر في أن يكسبوا لأنفسهم وجلاً ذرب اللسان ، سريع الخاطر كعبد الله النديم ؛ وما أسرع ما انضم هذا الرجل إليهم ، ووجد في ثورتهم مجالاً لإشباع نهمه في الخطابة من جهة ، وشغفه بالصحافة من جهة ثانية .

والحق أن العربيين رجحوا كثيراً بافضالهم النديم إلى صفوفهم ، ولقبوه فيما بعد بخطيب الثورة . ثم منذ إعلان الدستور في فبراير سنة ١٨٨٢ أى في أوائل عهد توفيق ، انتهز النديم وأمثاله من قادة الشعب هذه الفرصة ليفهموا الناس طائفة من المعانى الجديدة عليهم كل الجدة ، وهي معانى الدستور ، وما قيمته

وكيف تحصل الشعوب عليه (١) ؟ وكثيراً ما كانت تقام الحفلات العامة لهذه الأغراض ، وكثيراً ما كان النديم يقوم فيها مقام الخطيب الأول ، حتى إذا خطب الحاضرين كأديب إسحق أو قنحى زغلول أو إبراهيم اللقاني أو مصطفى ماهر أو غيرهم في معنى ما ، قام النديم بعد كل واحد من هؤلاء يعقب على حديثه ، ويشرح هذا الحديث ، ويستمع الناس إلى هذا التعقيب دون أن يشعر أحدهم بشيء من السأم أو الملل . وكان العامة في مصر بحاجة إلى من يشرح لهم هذه المعاني الجديدة عليهم كل الجدة ، إذ قبض الله للخاصة أمثال السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ليفهمهم تلك المعاني . واشتعلت نار الثورة بالفعل ، وزادت لهيباً ، فكان كلام النديم وقودها الذي زادت به ضراماً ، وزيتها الذي أصبحت به نوراً وهاجاً ؛ وحيثما كان يجتمع من الناس في مولد أو فرح ، ثم وجه النديم ، وثم صوته يجلجل في الحاضرين ويتندر الناس بذلك ، حتى كان إذا سئل محمد عثمان المغنى أين تغنى الليلة ؟ قال : في الفرحة الفلاني مع عبد الله النديم ، والنديم في كل موقف لا يتورع من التحويل على العامة والتهريج أمامهم ، فيقول مثلاً في بعض خطبه : إن طوابي الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها بلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الآستانة إذا أطلقت بلغت هذه الجزيرة من الجانب الآخر . فكيفما جالت الأساطيل الإنجليزية فهي تحت رحمة مدافعنا . فيصفق الناس لهذا التهريج ، ويسكرون بهذا الحديث ، والحق أن هذا التهريج الذي اشتغل به النديم كان سلاحاً ذا حدين ، فهو من ناحية يقوى الروح المعنوي في الشعب وفي الجند ، وهو من ناحية أخرى يملأ قواد الجيش المصري غروراً ، ويزيدهم تكاسلاً وقعوداً عن التهيؤ له . وهذا ما قد حدث بالفعل ، فقد جازف

---

(١) ومن المعاني الجديدة التي خطب فيها النديم فكرة الجمهورية التي احتفظ بها الوطنيون حتى يصبح الوقت مناسباً لإعلانها ، وقد كان هذا أسس عقيدتهم منذ البداية . ولكنهم تبصروا في العواقب ، ورأوا أن يسبوا سيراً وثيداً في هذا الموضوع . راجع التاريخ السري لاحتلال الإنجليز مصر مؤلفه المستر بلانت ص ٢٥٧ .

عراي بجيشه في الموقعة ، ولم يكلف نفسه قط درس الظروف المحيطة بها ، ولا كانت هناك سياسة رشيدة ، ولا صحافة مستنيرة ، ولا مستشارون أمناء صادقون ، يساعدونه على درسها ووضع الخطط المحككة على أساس هذا الدرس (١)

ولما انتقل النديم بخطابته إلى الميدان يحرض الجنود على القتال ، فقد انتقل إليه بصحيفته بنفس هذه الغاية ، وذلك يوم استبدل باسم جريدته الأولى (التسكيك والتبيكيت) اسماً جديداً آخر ، هو (الطائف) ، وهو اسم اقترحه عليه عراي متيناً بطائف الحجاز ، وتفاؤلاً بأنها ستطوف بالأرض كلها ، وتطبق شهرتها العالم كله .

وانتهت الثورة بالهزيمة المعروفة ، ووقعت البلاد بأسرها في عننة عظيمة ، وقبض على الزعماء ، واختفى النديم يؤمئذ عن الأنظار . وعيناً حاولت الحكومة العثور عليه والفرص له ولكن أنى لها ذلك وهو عفريت من الجن ، ثم بدا له بعد ذلك أن يكتب صفحة من حياته تصلح حقيقته أن تكون رواية (بوليسية) من أرواح ما كتب الناس في هذا الفن .

وقد صار النديم يتنكر بشتى الطرق ، وتسمى فعلاً بقسمة أسماء قتارة يتسمى بالشيخ يوسف المدني ، ونارة الشيخ محمد الفيومي وثالثة بالحاج علي المغربي ، ورابعة بفلان البني ، وخامسة بفلان الزجدي . وهكذا .

وكان يلبس لكل حالة لبوسها حتى لينحيل إليك أن تقرأ عن شخصية من شخصيات المقامات في الأدب العربي . وأمن النديم في التنكر حتى أشاع عن نفسه أنه سافر إلى خارج القطر ، ونشرت هذا الخبر جريدة فرنسية تقرأ في مصر فصدق ولادة الأمور ذلك ، مع أن الحقيقة أن النديم كان يؤمئذ في قرية نائية ،

---

(١) يضاف إلى ذلك أسباب أخرى كثيرة من أهمها الحياة التي لعبها عراي من البدو ومن ضباط الجيش المصري من أغرام توفيق على الحياة بالمال ومنام بالعودة . وكان المراسلة في الجيش منصرفاً هاماً في المزرعة . . . راجع المصدر المتقدم في الفصل الذي عنوانه « موقعة التل الكبير » .

ليس معه إلا زوجته التي ضربته على فمه حتى سقطت ثنياه ، وغادته الذي بدأ عليه الفزع والملاح ، حتى هدد سيده بأنه سيفضحه أمره ، ويدل عليه الطالين ، فاحتال النديم على خادمه يوماً بأن أخذ يقرأ المجريدة الرسمية ، ثم تصنع الفزع ، وضرب كفاً على كف ، وقال هل مسمع من خادمه : « لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ، فسأله الخادم عن ذلك ، فقال النديم :

« إن الحكومة قد جعلت لمن يرشد عن ألف جنيه ولن يأتيها برأسك خمسة آلاف ، يخاف الخادم ، وأخذ يبائع في التنكر . وكافأه النديم على ذلك بأن علمه القراءة والكتابة ، وحفظه جل من سور القرآن . وأقرأه مبادئ الفقه والتوحيد ، ثم زوجته واتخذها صاحباً ، وبدأ النديم في هذه العزلة أو الخبا أن يكتب ويقرأ ، وهل كان في استطاعته أن يفعل غير ذلك ؟ وبعث إلى صديق له إذ ذاك برسالة يقول فيها : « إن سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة راقية صافية . . لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ، ولا أنا لم من طول المدة ، ووقع الشدة . لاعتقادي أن لكل شدة حدة . متى انتهت جفت الأحوال ، وحسنت الحال ، فترانى فكرى كليى ، وقلبي نديى . تارة أشتغل بكتابة فصول ، في علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم به لله المنة ، وحيناً أشتغل بنظم فرائد ، في صورة قصائد ووقتاً أكتب رسائل مؤلفة ، في فنون مختلفة ، وآوثة أكتب في التصوف والسلوك ، وسير الأخبار والملوك ، وأصنف الكثير في العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان . على سفينة تاريخ الزمان ، ويوماً أشتغل بشرح أنواع البديع ، في مدح الشفيع . وقد تم لى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ، فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المنة وسيلة للنسحة والمنة ، أترانى كنت أكتب هذه العلوم ، وفي ذلك الوقت العلوم وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين في حجرها ثالث وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربي عشرة وليس له تابع . أشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال ، وأقضى

ليل في دراسة الأحوال - مشتغلاً بمجالس الجمعية الخيرية ، ومدارسها التعليمية ،  
وزيارة الإخوان ، ومراقبة أبناء الزمان . وقد نسيت الأهل والعيلة ، وربما  
نسيت الطعام يوماً وليلة ، فكنت كآلة يحركها البخار ، لا سكون لها ما دام الماء  
والنار ، فتي كنت أظن للخلفات ، وأكتب هذه المؤلفات ؟

ولو أن نار مصيبتى في الغير أصلاه الزفير  
لكنها في ساحة من فوقها جو مطير  
هو صدقُ إيماني وصبري للقضاء بلا فكير  
ووقوف جيش عديمتي في باب مولانا البصير

والعجيب أن النديم كان يعيش هو وأسرته وأسرته خادمه على ما يوجد به  
الموسرون من أهل البر ، ممن كانوا يعرفونه بشخصه . ومع هذا يساعدونه على  
إخفاء أمره .

حدث أن كان النديم مخفياً مرة ببلدة يقال لها ( العتوة ) من بلاد الغربية ،  
ومضى على إقامته بها أكثر من سنة . حتى قضى رب البيت نجبه . فجاءت زوجته  
بأكبر أولادها وهو شاب لم يجاوز الخامسة عشرة من عمره . فقالت هذا عبد الله  
النديم ، الذي جعلت الحكومة لمن هداها إليه ألف جنيه ، أفتريد أن تؤويه  
وتكرم مثواه كما فعل أبوك ، أم ترغب في حطام الدنيا ، فأكون بريئة منك إلى  
يوم الدين ؟ فقال حاش لله أن أخفر ذمامي ، فسترين أني أحافظ عليه محافظتي  
على عرضي ، وإن يصل إليه بسوء ما دمت حياً . فقالت له والدته الكريمة :  
بارك الله فيك من شهم حازم فكنت في جوارهم نحواً من أربع سنين ضيفاً كريماً  
ثم وشي به بعض أقرباء الرجل لصغائرين بينهما ، فضى هو ليلا وصار يضرب في  
بلاد مديرية الغربية ، وكلما ألقى عصا التسيار في مكان أكرمه أهلوه ، وأنزلوه  
علي الرحب والسعة ، وشدوا أزره بتزويجه منهم <sup>(١)</sup> .

وأكثر من ذلك وأشد إمعاناً في الكرم ، أن النديم صادقه في طريقه إلى  
هذه البلدة . وهي العتوة ، أحد مأموري المراكز ؛ وكان جركسياً ، ومعه قوة

(١) - سلافة النديم — المقدمة بقلم أحمد سمير ص ١٤

صغيرة من الجند ، فأمرها أن تسبقه قليلا ، ثم لوى صنان فرسه إلى النديم فقال لا ضرورة للتسكر فقد عرقتك وأنت النديم . فلم يكن له بد من الاعتراف بجميلة أمره . فقال له الأمور : لا بأس عليك ، اذهب في دعة الله وحفظه ولا تخف ؛ واعلم أنى وإن كنت جركسى الأصل فإنى عربى السكرم ، ولهذا وهبتك حياتك ، وتنازلت عن الجعل الذى جعلته الحكومة لمن دل عليك ، مع احتياجى للقليل ، كما تنازلات عن كل ما عسى أن أئالة بواسطة القبض عليك من الرتب والمناصب ، لتعلم أن فى بقية للسكرام . ولكن إياك وهذا الطريق المسلوك ، فربما صادفك من يقبض عليك فيه . فخرج عنه إلى جهة اليمن ثم مد يده إلى جيبه ، وأخرج ثلاثة جنيهات ودفعها إليه ، وقال . والله هذا هو كل ما أملك الساعة ، فخذ وأستعين به على أمرك .

وأخيرا قبض على النديم فى نوفمبر سنة ١٨٩١ وجرى به إلى طنطا ، وحبس أياما بها حتى عفا عنه الخديو توفيق على ألا يكك بالأراضى المصرية . فاختار النديم ( باقا ) فسافر إليها ، وكان فى استقباله العلماء والأدباء والأعيان ، وبقى فى ضيافتهم أياما ، ثم اتخذ لنفسه دارا أقام بها سبعة أشهر . وكانت هذه الدار منتدى للصفوة المهذبة فى تلك المدينة . وانهز النديم فرصة وجوده بفلسطين فأخذ يطوف بأنحاءها ، ويرى وزاراتها . ويملا ناظره بجمال الطبيعة بها .

ثم حدث أن ولى أمر الديار المصرية أمير فى ريعان الشباب ، هو الخديو عباس الثانى ، وكان رجلا حرا فى آرائه ، وكان الشعب المصرى الذى نضج فيه الوعي القومى بعض الشيء يبادل الأمير حبا محب . وكان من مآثر هذا الأمير أن عفا عن النديم ، وأذن له بالرجوع إلى القاهرة ، وذلك فى عام ١٨٩٢ م . .

وفكر النديم أول ما فكر بعد رجوعه إلى أرض الوطن فى إنشاء جريدة له جديدة باسم ( الأستاذ ) وعاد أمر النديم إلى الظهور ، وبلغت شهرته مسامع الباب العالى ، فخاف السلطان عبد الحميد شر هذا الداهية الأريب ، وفكر فى أن يسكته بالطريقة التى أسكت بها السيد جمال الدين الأفغانى ، وهى أن يسكته قسرا من قصوره بالآستانة ويجعل فيه الخنم والحشم ، ويعين منهم الارصاد

والرفقاء ؛ ودعى النديم إلى السفر إلى الآستانة وهناك عينه السلطان مفتشاً  
للمطبوعات ، براتب شهرى قدره خمسة وأربعون جنياً ، يضاف إليها خمسة  
وعشرون جنياً من الحكومة المصرية .

وفى الآستانة سعد النديم بصحبة السيد جمال الدين الأفغانى ، ولكنه اصطدم  
فيها بشخصية عجيبة هى شخصية ( أبى الهدى الصيادى ) وهو رجل سورى من  
حلب ملأ قلب السلطان عبد الحميد . إذ كان يفسر له أحلامه ويكلمه كلاماً  
على هواه ، وما زال أمره بالآستانة فى ازدياد حتى سعى ( مستشار الملك ) ،  
( وحامى العثمانيين ) ، و ( سيد العرب ) ومع ذلك لم يخش النديم التعرض لهذا  
الرجل ، ولا تريب منازلته وهو فى جبروته وعظم صيته ، فكتب كتاباً فى هجائه  
سماه ( المسامير ) وما زال به فى الكتاب ينشره ويطويه ، ويأتى بكل جديد فيه ،  
حتى آلمه وأوجعه ، وأصاب منه مقتلاً .

ثم لم تطل حياة النديم بالآستانة ، فقد أصيب فيها بالسكر ، ومات فى الرابعة  
والخمين من عمره ، وكما يقول أحمد سمير ( متمثلاً ) .

خرجوا به ولكل باك حوله      صمقات موسى يوم ذك الطور  
هذا وقد وصفه المرحوم أحمد باشا تيمور فقال .

« كان شهي الحديث ، حار الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز ،  
لقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر ، قرأت رجلاً فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ،  
وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الفاية  
التصوى فى عصرنا هذا (١) » .

فى سبيل الصحافة والوطن ما تحمل النديم من أذى ، وما قاسى من أهوال ،  
وما ذاق من تشريد واغتراب دونه كل عذاب فى هذه الدنيا .

هكذا كان النديم أديباً جريئاً ذائع الصيت ، وكانت له من المواهب ما ليس  
لغيره من رجال مصر كما رأينا . قوة فى الخطابة وقوة فى الكتابة وجرأة على  
الحكام ، وقوة فى البرهان . وقوة فى البديهة .

---

(١) أميان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ،



ولكننا إذا أردنا أن نحاسبه على أنه زعيم أو عظيم قلنا إنه كان رجلاً لا يسيطر على الحوادث المحيطة به ، ولا يدرس الظروف التي حوله ، ولا يفكر كثيراً في المستقبل . والعظيم لا تسلم له عظيمته بالمعنى الصحيح إلا إذا كان ذا حظ من هذه الصفات .

ثم كان للنديم فضل آخر لا سبيل إلى إنكاره ، هو الجهد الذي بذله في الإصلاح الاجتماعي ، فقد نبه الناس بقوة في صحفه - كما سنرى ذلك - إلى العيوب المتفشية في المجتمع ، وكان لا يترك طريقة إلا سلكها في سبيل هذه الغاية . وأما الإصلاح السياسي فلم تكن له فيه خطة واضحة كل الوضوح ، يدلنا على ذلك أنه لم يتخذ لنفسه منذ أول الأمر رأياً في الثورة العراقية ، فقد وجدنا الثوار يأخذونه قسراً ويضمونه إلى صفوفهم قهراً ، وهو لا يستطيع لهم رداً ، بل كان يكتفي بأن يتأفف سراً من وقوعه في هذه الورطة ، فإذا خلا بأحد من أخصائه أظهر له حقيقة ما يضره . وفي ذلك يقول أحمد سمير وهو يترجم له في كتاب ( سلافة النديم ) :

سمعت مرة في غرفة نوميه حيث لاثلك يئذا يقول ما معناه : إن البلاد قد ضاعت بتهور رؤساء الجند الذين خدعونا في مبدأ الحادثة ، وأوهمونا أن لا خوف من العاقبة ولا فزع ، فإنما هي أقوال تقرب بأقوال ، وقد اعتاد الأجانب أن يبلغوا منا ما أرادوا بالتهديد والإيهام ، فنحن إنما نقابلهم بالمثل ، ولما فهم أعقل بكثير من أن يقصدوا محاربتنا فعلاً . ولكن وجداني الآن يحدثني بفساد هذه المراحل ، فقد تفاقم الخطب ، واشتدت النازلة ، وظنى أن الحرب واقعة ولا بد . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إنه ليس لنا اليوم إلا أن نبقى مسيرين لا محيرين ، فقد ملئت الكأس ولا بد من شربها ، ولم يمض أكثر من أسبوعين على هذه الحادثة حتى زلزلت الأرض زلزالها ، وهاجت القاهرة وماجت ، وحمل البرق إلينا من الإسكندرية أخبار ضرب الإنجليز لها في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتشار الحرب بينهم وبين عرابي .

ليس معنى ذلك أن النديم كان منبذاً في مذهبه السياسي ، أو أنه يعد هذا الحزب السياسي بما يعد به الحزب الآخر ، لا . فقد كان النديم من هذه الناحية ( ٩ م - أدب المقالة ج ٢ )

بطلا في جميع المحن التي مرت على مصر في حياته ، وقد صمد وحده في الميدان في الوقت الذي فر فيه من هذا الميدان كثير ، ولكن التاريخ يؤخذ الناس كلا على قدر منزلته وموهبته وقد خص الله النديم بطائفة من هذه المواهب كان يستطيع بها أن يقيم من أود الثورة ، وأن يطفئ من حدة الثوار ، وأن يقود السفينة إلى بر الأمان . ولكنه لم يرد ولو أراد لتولى لسانه مهمة الإقناع .

أجل : لست أنكر على كثيرين من زعماء المصريين في ذلك الحين أن الثورة جرفتهم ، وسلبتهم إرادتهم . ولكننا نأخذ على الزعماء هـذا الموقف ، لأنهم الراشدون في هذه الأمة ، وعليهم يقع عبء توجيهها ورد الطائش منها إلى شيء من الحكمة والروية والتدبر ، وعبد الله النديم واحد من أولئك الزعماء ، بل هو أخطرهم وأقربهم إلى نفوس الشعب إذ ذاك .

وفي رأبي أن أعظم ما في النديم إنما هو شعبيته وقوة حيويته وميله الشديد إلى الاجتماع بالناس ، فهو رجل غاطل الشعب في جميع الطبقات ، فرة يكون مع السفلة وأخرى يكون مع العلية ، وثالثة يكون مع التجار ، ورابعة يكون مع الأدباء والعلماء ، وخامسة مع الوزراء والأمراء ، وهذه كلها خصال تنفع النفع كله في تكوين الأديب الاجتماعي — أو بعبارة أخرى — في تكوين الصحافي . ولكن الصحافي فوق حاجته إلى كل هذه الأمور ، فإنه بحاجة كذلك إلى دراسة الهدف الذي يرى إليه ، ودراسة الوسائل التي توصله إلى هذا الهدف . حتى إذا فرغ من هذه الدراسة بدأ جهاده ، فإن وفق فيها فذاك ، وإلا فقد أدى واجبه نحو أمته بقدر ما استطاع .

مهما يكن من أمر فقد كان النديم بوقاً عظيماً للشعب ، وبوقاً عظيماً للجند ، وبوقاً عظيماً للثورة ، ثم بوقاً عظيماً في أخريات حياته للخدوي عباس الثاني ، وقد قلنا أن الخديو كان شاباً حراً جريئاً وكانت له توجيهات حكيمة وآراء سديدة اتخذ من النديم معروفاً صحفياً له على نشرها ، والترويج لها ، وكانت للنديم صفة شعبية محبة إلى النفس ، هي صفة الإخلاص للمبدأ أو الرجل أو العمل الذي يختاره لنفسه ويؤثره بحبه ، وهي صفة قل أن تجدوها في غيره ممن شاركوا في الثورة المرابية أو عاشوا بعدها .

كما سبق تتضح لنا أخلاق السيد عبد الله النديم، ويتضح لنا جانب من جوانب شخصيته . وهى شخصية غربية كل الغرابة فى كل طور من أطوار حياته التى وصفناها بإيجاز شديد ، لأنه لا سبيل إلى التفصيل فيها على نحو ما تستحق من هذا التفصيل .

ولعل القارىء راعه فى أخلاق هذا الكاتب خلق الصبر إلى الحد الذى لا تعرف له نظيراً إلا فى الأساطير ، ثم خلق الغيرة على مصلحة الدين ومصلحة الأمة ، ومصلحة اللغة ، بما لا يدع مجالاً للشك فى صدقه وإخلاصه وتفانيه فى خدمة الوطن . ثم خلق الجرأة إلى الحد الذى يرهب به الجبابرة من الملوك والسلاطين ، ولا يرهب هو من أولئك الجبابرة أو الملوك والسلاطين . ويحسن بنا أن نأتى ببعض أبيات قليلة مما نظم النديم نفسه فى ذلك ومنه قوله :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا	وإن عدنا إلى خطب شفيننا
صلينا يا هموم قد عرفنا	بأتنا الصلب صلبنا أم صليننا
لنا جلد على جلد يقينا	فإن زادوا البلا زدنا يقينا

ومنه قوله فى الاستهانة بالخطوب :

إن قوماً تجمعوا	وبقتلى نحدثوا
لا أبالى بجمعهم	كل جمع مؤنث ١١

الحق أن النديم منظر من مناظر الحياة المصرية لن تكتب له العودة إلى هذه الحياة مرة أخرى ، وقطعة من قطع هذه الحياة لن يجود الدهر بمثلها كرة ثانية ، ولون من ألوانها كذلك لن تراه مصر فى المستقبل .

أما النديم من حيث مواهبه الكثيرة التى فتح الله عليه بها فكان كنزاً عظيماً من كنوز مصر لولا أن هذا الكنز كان موزعاً على نواح كثيرة ولو أنه تفرغ لناحية منها لطورها وبلغ بها الغاية المرجوة منها ، ومن أهم هذه النواحى التى نشير إليها ناحية القصة ، وناحية الفصيدة وناحية المقال .

## الفصل السابع

### الأسلوب الأدبي للنديم

من حياة النديم نعلم أنه بدأ حياته الصحفية بالكتابة بالإسكندرية في صحف أديب إسحق وسليم نقاش . ثم عزم على أن تكون له صحفه الخاصة به بعد ذلك فكان له من تلك الصحف ثلاث :

١ - صحيفة التنكيث والتبكيث في ٦ يونيه ١٨٨١

٢ - صحيفة الطائف في سنة ١٨٨٢

٣ - صحيفة الأستاذ في ٢٢ أغسطس ١٨٩٢

كان في أولها معنياً بالإصلاح الخلقي والاجتماعي . وفي الثانية معنياً بالثورة العراقية ، وفي الثالثة عاد إلى الإصلاح الاجتماعي مرة أخرى ، واهتم إلى جانب ذلك بالإصلاح السياسي .

ويجمل بنا قبل الوقوف عند كل جريدة من هذه الجرائد الثلاث أن نصف نوع العلوم التي اتصل بها ، ونشرح نوع الثقافة التي أعانتها على مهمته ، وإن كانت هذه الثقافة كما قلنا ليست ثمرة مدرسة أو جامعة ، ولكن ثمرة الحياة التي كان يحياها هذا المغامر النادر المثال .

حدثنا أحمد سمير في ترجمة حياة النديم قال :

« وله - أي للنديم - من المؤلفات الكبيرة والصغيرة ما يعد بالمئات ، منها ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت - نظمها وشبابه باسم الثغر طلق الحميا - وديوان آخر في ثلاثة آلاف بيت - وروايتا الوطن ، ود العرب ، - ورسائل أدبية مسجوعة لم تفصل أيدي جامعي السلافة منها إلا إلى أربع عشرة رسالة بعد السعي الكثير ، ومكابد العناء الجويل ( وكان ويكون ) ( وهو الذي طبع بعضه في الأستاذ ) - واحد وعشرون كتاباً في فنون مختلفة ، قطع لأجلها أيام

حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيف الأفسلام . منها ديوان شعر يحتوى على ما يقارب عشرة آلاف بيت ، وهو الآن محجور عليه في القسطنطينية مع باقى تلك الكتب التى ينادى لسان حال كل واحد منها وفيها : النحلة فى الرحلة - الاختفاء فى الاختفاء - والشرك فى المشترك - وكتاب فى المترادفات - وآخر فى اللغة سماه : موحد الفصول ، وجامع الأصول - والمرائد فى العفائد والآلى والدرر فى فوائح السور - والبديع فى مدح الشفيق - وأمثال العرب ، الخ .

ثم قال أحمد سمير :

ولضياح أغلب مؤلفاته بواعث شتى ، منها أنه كان إذا سود شيئاً جاء إليه من يستعيره منه ، ثم لا يردّه عليه ، وقد فعل ذلك معه جماعة من أهل القاهرة والإسكندرية والمنصورة . ومنها أنه كان مقيماً فى بلدة من أعمال الدقهلية يقال لها بدواى ، فبلغه أن فريقاً من أهل البلدة يأتمرون به ليقتلوه ، فاتخذ الليل جلاً ، ومضى إلى حيث يأمن ، فلما جاء المؤتمرون ولم يجدوه أحرقوا البيت حرقاً ، فاحترقت كتبه فيه . ومنها أنه زمن مقامه بالمنصورة للانجار ، غافله خادمه وسرق بعض متاع البيت ، ومنه الكتب ، وهرب . ومنها أن والده رحمه الله هاجر من الإسكندرية إلى القاهرة فبمن هاجر يوم الحرب الأخيرة ، فأحضر معه كتبه جميعها ( وكان لى أنا أيضاً فيها كتب قيمة ) وملاها وبياقى أمتعته حربة قتل من عربات السكة الحديدية ، فلما وصل القطار إلى كفر الزيات ازدحم المسافرون من المهاجرين وغيرهم ازدحاما هائلا ، فلم يسع رجال المحطة إلا أن رموا جميع ما بئلك العربية فى النيل ليركب الناس فيها .

ونحن وإن لم نطلع على هذه الكتب التى ألفها النديم فإننا نستطيع أن نقول إن موضوعها الشعر ، والتشيل ، والأدب ، واللغة ، والفقه ، والتصوف ، والبديع . والظاهر أنها لم تكن تعدو ذلك ، فثقافته إذن ثقافة لغوية أدبية دينية فى أكثرها مع أنه لو تعددت ثقافة هذا الرجل واتسعت إلى ميادين شتى ، لكان لمصر منه رجل لا يقل فى شأنه عن الجاحظ ، لأن له قلباً كقلبه ، وخلقاً كخلق ، واستعداداً كاستعداد ، وقلماً مسهباً كقلبه ، ونفساً طويلاً فى الكتابة والخطابة كنفسه ،

وحباً في الظهور كحبه . وحرصاً على تسجيل كل ما يمر به كحرصه ولكن أنى  
للنديم أن يبلغ ما بلغ الجاحظ، ولهذا الأخير علم لا يدانيه علم ، وإطلاع لا يتعلق  
به إطلاع والفرق بين المصرين الذين أظلا هذين الرجلين كبير إلى درجة  
لا تسمح بالموازنة بينهما .

أجل هذا لو كان النديم متعلماً على الطريقة المنظمة عارفا بلغات كثيرة ،  
قارئاً لنماذج من الآداب العالمية في عصره ، إذن لكان لنا منه أديب وعظيم نفاخر  
به الدنيا كلها والأمم بأجمعها .

على أنى أحب أن أسوق للقارئ مثلاً واحداً من أمثلة دراسة النديم للبديع،  
بعد أن درسه بنفسه وبدون إرشاد من الأساتذة ، فجاءت دراسته مع كل هذا  
دقيقة مستفيضة ، يدلنا عليها أنه تعرض يوماً لبيان أنواع البديع المختلفة في سورة  
الفاتحة ، فعجبنا كيف استطاع النديم أن يصل إلى خمسة وسبعين نوعاً من أنواع  
البديع في هذه السورة التي لا يزيد عدد كلماتها على خمس وعشرين كلمة<sup>(١)</sup> .

ومارس النديم الكتابة قبل ممارسة الصحافة فكان يميل ميلاً ظاهراً إلى  
البديع ويتهاقت تهاقاً قوياً على السجع ، وتفوق في ذلك حتى على القدماء أنفسهم .  
ومن أمثلة ذلك ما كتبه بعنوان :

#### نار الغرور ونار العرو :

وهي رسالة عجيبة كتبها النديم بنظام غريب ، فكان يأتي بسجعة - بعدها  
آية قرآنية واستمر على هذا النمط من بداية الرسالة تقريباً إلى نهايتها ، مع تمكن  
شديد من الدخول على الآية في غير تكلف ظاهر .

فقد كتب إلى صديقه عبد العزيز بك حافظ حينما رآه يجتمع ببعض المغاربة ،  
ويشتغل معهم بخرافات باطلة . يقول<sup>(١)</sup> :

لا حول ولا قوة إلا بالله . اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلوى بالمر ،

---

(١) انظر الجزء الأول من سلافة النديم فصلاً بعنوان حسن الاجتهاد .

(١) سلافة النديم الجزء الأول ص ٣٤

وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والحلز بالحشف ، وأظهر كل لئيم  
كبره ، إن في ذلك لعبرة ، سمعا سمعا ، فالوشاة إن سمعوا لا يعقلوا ، ويحبون أن  
يحمدا بما لم يفعلوا ، فكيف تشعرون منهم القار في صفة العنبر ، وقد بدت البغضاء  
من أفراهم وما تخفى صدورهم أكبر ، وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم  
وزجر ، ولقد جاءهم من الأنبا ما فيه مزدجر ، عجبت لهم وقد دخلوا دارنا وهم  
عنها معرضون ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، فقابلوهم بنبال الطرد في  
الاعتناق ، حتى إذا اثنتمهم فشدوا الوثاق ، أيدخلون بما لا ينفع ، في بيوت  
أذن الله أن ترفع ، سيعلون مقام الهبوط والعروج . يوم يسمعون الصيحة بالحق  
ذلك يوم الخروج ، ويقولون إذا لم يجدوا ملاذاً ، يا ويلنا قد كنا في غفلة من  
هذا ، فإنهم عزموا على الإقامة مدة ، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، وأنت  
يا عزيز العليا ووحيد الدنيا قد يذب لك فعلمهم ، فيما رحمة من الله لك لهم ،  
واكنهم طمعوا في عجم طولك ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من  
حوالك ، أترام يعقلون كلامك أو يفهمون ، لعمرك لأنهم لفي سكرتهم يعمهون ،  
لهم قلوب لا يدرون بها للحسد قراراً ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم قراوا ،  
وإني قد شيدت لك بقلبي حصنا صعبا ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا  
له تقبا ، نسيت بالعاذل جميل الصوت وأنكره ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن  
أذكره ، رميت أيها العاذل بسيف الغدر في نحره ، أجمتنا لتخرجنا من  
أرضنا بسحرك ، فإن لم ترجع عن السحر وفعله ، فلنأتينك بسحر مثله ،  
كيف يسمى العاذل بين النديم وألفه ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن  
خلفه ، فيا سادتي دعوني من المعجب والمطرب ، ليس البر أن تولوا وجوهكم  
قبل المشرق والمغرب ، واجعلوا سيف ثباتكم للعدال مسلولا . وأوقوا بالعهد  
إن العهد كان مستود ، فإنهم إن قالوا كذب النديم أو بطر ، سيعلون غداً  
من الكذاب الأشر ، وما قد صار أمر الحويين عندك جليلا . أي الفريسين  
خير مقاما وأحسن ندبا ، أنظن عهد العاذل عند غضبك لا ينكث ، مثله كمثل  
الكلب إن تحمل عليه يلهث ، على أنه لكم عدو كبير ، ففروا إلى الله إني لكم

منه نذير ، فإنه جمع اقتتلك الأولاد والأحفاد ، وآخرين مقرنين في الأصفاد ، تركوا أمر الله واشتغلوا بما يرضونه ، فأغلبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، وظنوا أن وصل إليك كتمانهم يطردون ويردعون ، وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، أيعجبك إذا مشى هذا اللاه ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله ، وإنك إن فرحت بعلم ما يحجلون ، قد تعلم أنه ليحزنك الذي يقولون ، فإن قلت إن اجتماعي بهم لأجل الصدقة أو شيء من هذا القليل ، إنما الصدقات للفقراء . ١١ . الكه . المعلن عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، از مشاء بنعيم ، وطباعهم كما تعلم منكرا مستفجرة سورة . وقد قال وفائي خاطب عزيزك هذه

المرة وإن لم يعمل فيك فكريا ، وما يدريك لعله يزكي أو يذكر فتتفعه الذكري ، فقال لسانى إن الود هو الرسول المأمون ، فأرسله معى رداءاً يصدقنى إلى أعاف أن يكذبون ، فقلت سيروا مع المحبة ذات الفتوة ، ولا تنكروا كائنى نقصت غزوها من بعد قوة و قولوا له عند الغاية ، قد جئناك بأية ، ولا تهابوا جيش الأعداء وإن كبر ، سترم الجمع ويولون الدبر ، ولا تظنوا من ظاهر الأمر حلول البلوى ، إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، بل قاتلوهم قتال المستشهدين ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ، وإذا اشتبك القتال فليذب كل منكم عن مولاه ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، فسيروا ودعوا الأولاد والجنه ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ، ولا تسألوا عن الميرة من أصله . وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ، فإن الله قد أثاركم لقتال العذال العائنين ، ليقطع طرقا من الذين كفروا أو يكتبتهم فينقلبوا خائبين ، واحملوا عليهم فإنهم متى طعنوا فى جنوبهم رضوا بأن يكونوا مع الخوائف وطبع الله على قلوبهم ، ولا تدبروا إذا أريتموهم إقدامكم ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، وإن أخذتم أسرى فقاتلوا أنصارها . فإما منأ بعد ولما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، فإن أظعنم رفعتهم وأصلح الله بالكم ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، وسأتلوا فى خطبتكم عند قدومكم سالمين ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .



تكفيينا هذه الرسالة دليلا على أن النديم كان في المرحلة الأولى من تاريخه الأدبي مفتونا بالجمع وبغيره من ألوان البديع ، وقد بدأ النديم يكتب على هذه الطريقة منذ السادسة عشرة من العمر ، فقد أمدّ الذين أرخوا لحياته بطائفة من الرسائل الأدبية المنمقة التي كتبها في صباه فقاربت العشرين رسالة . أولاها رسالته التي عنوانها .

### أواء النصر في أرباء العصر :

قبل أنه كتبها منذ دخوله القاهرة ، أو منذ عمله بالقصر العالى . واجتماعه في أوقات فراغه بجماعة من الشعراء والمنشئين . وذلك عن طريق صديقه الشيخ أحمد وهبي . وإذ ذاك تعرف النديم بستة من الشعراء ثم سرعان ما كتب - وهو في هذه السن المبكرة - رسالة في تراجعهم بدأها بقوله :

... . وبعد فهذه نتيجة بهيجة عن ناقل الأكياس من الناس ، روى عن فكره عن لبه عن نظره عن قلبه ، حديثاً الصدق منه ، والحق عنه ، والدقة إليه والركة عليه ، إنه ركب أفراسه ، وثار واستصحب الفراسة ، وسار يوجب الأقطار اختبارا ، ويترك الأوطار اختيارا ، ويقرأ الجرائد اكتشافا ، وينظر الخرائد استلطافا ، في شرف نفس عن الناس ، على طرف أنس بلاكس ، لاترده المتاعب عن أمله ، ولا تلهيه الملاعب عن عمله ، حتى ملا أوعيته حكما ، وطاد أنديته حكما ، وقابل أحباره ببضاعته ، وقص أخباره على جماعته ، فغطوا رءوسهم وناموا ثم قطبوا وجوههم وقاموا ، سكوتنا لا يتكلمون من الهم ، ومرضى يتألمون من الندم ، فتعلق بالأذيال وصاح ، وتحقق الوبال فراح ، ونادى بأعلى صوت أيها السكرام ..

\*\*\*

على هذا النمط الذي يذكر القارىء بأسلوب المقامة في الأدب العربي سار النديم في رسالته حتى هيا لنفسه الطريق إلى مدح أولئك الأدباء الذين عرفهم

واتصل بهم ، وأشيع في نفسه رغبة جامحة وشهوة عارمة ، هي شهوة الاجتماع بالناس ، والتحدث إليهم والانتفاع بأفكارهم وآدابهم .

وفي هذه الرسالة استطاع هذا الفتى اليافع أن يهدي بالغة من الزهر إلى أدباء العصر وهم بحسب ورود أسمائهم في هذه الرسالة ، السيد أحمد وهبي ، وعبد العزيز بك حافظ ، والسيد علي أبو النصر ، ومحمود أفندي صفوت الشهير بالساعاتي . ومحمود بك سامي البارودي ( محمود باشا فيما بعد ) والشيخ أحمد الزرقاني ، ومحمد بك سعيد نجل جعفر باشا مظهر ، وعبد الله فكرى ( عبد الله باشا فيما بعد ) .

ما كان أشد كلف النديم منذ صباه بالسجع ، لقد كان يأبى إلا أن يكون عنوان رسالته مسجوما ، ومن رسالته المسجوعة حتى في عنوانها : التنوير المسحور في المغامرة بين السفينة والوابور ، وطالع السكرامة بحسن السلامة ، ودرر النخلة وغرر الرحلة ، حفظ الودائع لدرر البدائع ، تنبيه الليب وتسلية الحبيب ، الساق على الساق في مكابدة العشاق ، رياض الرسائل وحياض الوسائل ، حوض الخمر وحوض البحر .

وكانت هذه الرسائل كلها ترويضاً للفتى على الكتابة ، وتدريباً له على التتميق في التحرير ، ولم يكن في هذه المرحلة إلا مقلداً لروح العصر ، ومحاكياً لطريقة أعلامه في النثر .

غير أن النديم في هذه الرسائل كان يبدو متأثراً كما قلنا — إلى حد بعيد بأسلوب المقامة . بل يظهر أن المقامة كانت ألح شيء في أدبنا المصري في القرن الثامن عشر حتى تأثر بها وساكها كل أدب من أدبائنا في القرن الذي تلاه ، على تفاوت بينهم في هذه المحاكاة .

ولولم يشتغل هذا الفتى بالصحافة بعد ذلك لبقى يكتب بهذه الطريقة عينا طول حياته ، فقد كانت له قدرة بالغة منذ نشأته على الإتيان بهذه الأسجاع ، إلى درجة أنه لم يكتف بالقوافي الخارجية للجمال حتى جعل لها قوافي داخلية أيضاً كما في قوله من ضمن رسالته السابقة « فرأي الناس يتهادون بالمواهب مع اختلاف المذاهب

في المعاملة ، وكل ينادى على بضاعته ويفتخر بصناعته حتى يكدر آمله ، فلا يربح  
منها غير السكاسد ولا ينجح منهم إلا الحاسد البليد الحمار تراه في المشدقة ، كأنه  
في مشنقة يحاول الفرار ، يعارض أستاذه ، ويفتت أفلاذه بما يديه ، إذا دخل  
على أمير ، لا يفارق السرير حتى يسديه ، وإن فارق صوبه ، جر ثوبه مهرولا في  
مشيته ، يسلم بالبنان وينسك بالجنان ويعبت في لحيته . . . . .

ولا شك أن هذه وأمثالها لا تعدو كونها محاولات أولى يشق بها الفتى  
طريقه إلى الإنشاء . والحق أنها أفادته وهياته للجهد الصحفي الضخم الذي بذله  
فيما بعد .

ولقد كانت با كورة هذا الجهد الصحفي الجهد مقالات كتبها في مجلتي المحروسة  
والعصر الجديد لصاحبها أديب إسحق وسليم نقاش ، غير أنه لم يدم على ذلك  
طويلا حتى حصل من الحكومة على إذن له بإصدار :

## الفصل الثامن

### جريدة التنكيت والتبكيث

في ٦ يونيو سنة ١٨٨١ أصدر النديم أول عدد من أعداد هذه الجريدة  
وكتب افتتاحيتها بعنوان (أيها الناطق بالصاد) قال فيه :

أقدم بين يديك بخدمة وطنية ، دعاني إليها حبي فيك ، وخوفي عليك ،  
وما هي بالعظيمة فتشكر . ولا بالبلينة فتمدح ، وإنما هي صحيفة أدبية نهديبية ،  
تلو عليك حكماً وآداباً ومواعظ وفوائد ومضحكات ، بعبارة سهلة ، لا يحقرها  
العالم ، ولا يحتاج منها الجاهل إلى تفسير ، تصورك الوقائع والحوادث في صور  
ترتاح إليها النفوس وتميل ، ويخبرك ظاهرها المستهجن بأن باطنها له معان مألوفة ،  
ويلهيك نقابها الخلق بأن تحته جمالا يعشق ، وحسناً تذهب الأرواح في طلبه ،  
هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيث . ليست منمقة بمجاز واستعارات ، ولا مزخرفة  
بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة برقة فلم محررها ، وغامة لفظه وبلاغة عباراته ،  
ولا معربة عن غزارة علمه وتوقد ذكائه ، ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغة  
ألفنا المسامرة بها . . فهي في مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفي بيتك  
كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى . فاجعل لها  
فضيلاً من عمرك الجليل . ومتعها بنظرة تجلو مرآتها ، وتبصر خباياها . ولا تفوق  
سهام الرد قبل أن تدخل المضمار ، ولا تسكر عليها ما تحدثك به قبل أن تطبقه  
على أحوالنا ، ولا تظن مضحكاتها هزواً بنا ، ولا سخرية بأعمالنا ، فاهي إلا  
قنثات صدور ، وزفرات يصعدها مقابلة حاضرتنا بماضينا ، فإن صدقت في  
الخدمة فأجري منك المساعدة ، وإن قصرت فقد بلغت جهدي ، وحزمت ما في  
إمكانى فإن شئت عذرت ، وإن شئت أطلقت عنان أفكارك في ميدان يكبو  
فيه جوادى .

ولسنا بدار الحرب أو أرض قتنة ولكن لنا في العالمين نظير

ثم مضى النديم في هذه المقدمة البليغة يوضح للقراء كيف تقدم الغرب وتأخر الشرق ، أو كيف تنبه الأوربي ونام المصري ، وكان أسلوبه في أداء هذا المعنى موسيقياً بما كان يوفر له من السجع أو الزواج ، وجزلاً بما كان يؤثر إذ ذاك من لحوة الألفاظ . وذلك حتى ختم حديثه بقوله :

« وسأتحفك بفرائب قومك ، ومناقب أصلك أقدمها إليك شذوراً مردقة بما نحن فيه من التنكيت ، لتعذر المهتمين ، وترحم المسكين ، وتكون من الذين أعادوا مجدهم ، وأحبوا أوطانهم فأصبحوا ببقاء ذكركم في الوجود من الخالدين » .

ثم جاء هذا العدد عامراً بمقالات كثيرة ، بعضها باللغة العربية الفصيحة ، لأن الحديث فيها موجه للخاصة ، وبعضها الآخر باللغة العامة غير الفصيحة لأن الحديث فيها موجه إلى العامة ، والنديم يقيم من نفسه أستاذاً لهؤلاء وهؤلاء ، كما كان يفعل الأستاذ الإمام سواء بسواء ، مع ملاحظة فرق واحد بينهما ، هو أن الإمام لم يحاول قط أن يصطنع في الصحف لغة الشعب ، وإن كانت لغته قريبة كل القرب من هذه اللغة كما رأينا ، على حين أن النديم كان لشميته التي أشرنا إليها يلذ له أن يجعل للشعب من صحافته نصيباً موفوراً فن الموضوعات التي قصدها النديم إلى الخاصة موضوع كتبه في هذا العدد الأول من أعداد جريدة التنكيت والتبكيك بعنوان .

مجلس طبي على مصاب بالافرنجى<sup>(١)</sup> :

دخل به في صميم المسألة المصرية التي كانت تشغل الأذهان في وقته وكفى

---

(١) الأفرنجي كلمة كان يطلقها المصريون في القرن للآشى على مرض الزهري والكتاب

يستعملها استعمالاً مجازياً كما يدل عليه سياق الحديث . والقال مأخوذ من كتاب سلافة النديم -

الجزء الأول صفحة ٧٩ .

بلفظ « مصاب بالآفرنجي عن الخراب الذي أصاب البلاد وكان نتيجة لإسراى  
إسماعيل ، ووقعه في الديون ، ثم تدخل الأجانب في مصر وفرضهم الرقابة  
الثنائية عليها ، إلى آخر تلك المصائب التي حلت بالبلاد ، وتآلم لها أهلها جيلا  
بعد آخر .

وانظر إلى النديم يقول في هذه القصة التي رمز بها إلى جميع تلك الأمور :

كان هذا المصاب صحيح البنية ، قوى الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف  
الشكل ، مارآه فارخ القلب إلاّ حباً ، ولاسمع بذكره بعيد إلا طاراً إليه شوقاً ،  
نشأ في العالم روضة ، ودار به أهله يحفظونه من الأعداء ، ويدفعون عنه الوشاة  
والرقباء . وقد مات في حبه جملة من العشاق الذين خاطروا في وصاله بالآرواح  
والأموال ، وكلما وصل إليه واحد سحره برقة ألفاظه وعذوبة كلامه ، وسلب عقله  
بهجة يحار الطرف فيها وعزة لا يشاركه فيها مشارك . وهو هو غزال في الخفة ،  
وغصن في اللين ، وبدر في البهجة ، وجنة في المنظر . تمر عليه الدهور فتزيده  
حسناً ، وتتوالى عليه العشاق فتزداد هياماً . وأهله فرحون بهذا البديع الفريد ،  
والطالع السعيد ، يشقون الموت في حياته ، وقد اتفقوا على توحيد كتبهم في  
حفظه ، وجمع شتاتهم في رحابه ، وصرف حياتهم الطيبة في بقاءه في الوجود معزواً  
بأهله ، مؤيداً بمشائره ، حتى لاتمد إليه يد عدو ، ولا يوجه إليه فكر مختال ،  
ولا يقرب منه مغتال .

وبينما هو يتيه بحسنه ، ويدل بهجالة ، صحبه أحد المضلين ، واستماله بنفاق  
تجميل إلى النفوس ، وتملق ينجل ، فظن أهله أن هذا المصل من الأتقياء الذين  
لا يعرفون اللهو ، ولا يميلون إلى المفاسد ، وسلوه جنة حياتهم ، وروضة ثروتهم ؛  
فدار به في الأسواق والطرقات ، وعرضه للعشاق تقبله جهاراً ، وتسايه حلّ أصابعه ،  
وزينة صدره ، وقد علموا أن الجمال يأسر الجميل فأحضروا من الغواني من تعارض  
الشمس بحسنها ، وتكشف البدر بنورها ، قدُرن في سبيل بيته يغازلن أهله بنغمات  
تحرك الجبان ، ومؤانسة تستميل الشجعان ، حتى سلبن العقول ، وحولن الطباع ،  
وبغضن المحبوب إليهم ، وألهين كل ذى لب عن أفكاره ، وأنسين كل مدبر

ما كان يتصوره من نوايح الحكم ، وغريب الأمثال ، وجعلن الجبال مبدولا  
بلاقيمة والوصال منحوحاً بلا مقدمات . وذلك الصاحب مكبّ على هواه ، مغرم  
بجمع الغرباء ، واستدعاء الأعداء ، ومصاحبة الأشقياء ، ومسامرة الأغبياء ،  
ينام ومحبوبه قلق ، وبضحك ومعشوقه كئيب ، إلا أن هذا الغزال الطاهر  
العرض لما رأى أهله أهدروه وأهملوه واشتغلوا بالغواني ، وولعوا بخدمة  
الآجانب ، وانكبوا على الملاهي يتبعون آثارها ، استسلم للقضاء ، وترك النفاق  
والتحمس ، ومال مع أغراض هذا الصاحب وسار معه في طريق لا يرى فيه أحداً  
من أهله .

فأهى إلا رشقة كأس حتى اصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت  
بهجته ، فسلم جسمه الشريف إلى الفراش يتململ عليه ، ففطن له واحد من أهله ،  
وزاره في خربة لم يجد فيها غير شيخ بهلل نفسه بالآمانى ، ويصعد الزفرات . وقد  
برزت عظام وجهه ، وغابت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبايح تنفر  
منها الطباع ، فبكى وانتحب وقال :

أى حياتى ، أى جنتى ، أى نزهتى ، أى مطلع عزى ، ما الذى أصابك ؟  
أين جمالك البديع ؟ أين محياك الزاهى ؟ أين حسنك الذى أفنى الكثير من  
العشاق ؟ أين صحتك التى أشابت الدهور وهى فى عنفوان الشباب ؟ أين قوتك  
التي أسرت بها الأشباح ؟ أين وقتك التى جذبت بها الأرواح ؟ أين ما كان عليك  
من الحلى والزينة ؟ أين تاجك الذى ما لبسه إنسان إلا افتخر على الوجود ؟ ...

فتنفس المصاب تنفس الضعيف ، ودمقه بعين لا يكاد يتحرك جفنها ، وقال  
بصوت خفى : لا يميز عليك جسم أمرضه أهله ، فإنكم تركستمونى لصاحبي يدور  
فى أيما دار ، فعرضنى لمن لم أعرف طبعه ولا عادته ولا لغته ، ووكل بى من  
يغرنى ويسلك بى سبيل الفوابة فلم أجده بداً من الموافقة ، ودرت فى أماكن اللهو  
حتى أصبت ( بالداء الأفرنجى ) فلم أعبأ به فى أول الأمر ، وتركته نفسى ،  
وكتمت خبرى ، فإنى لم أجده أحداً من أهلى حولى . ولم أعلم أن الداء سرى فى

دى وعروقي ، وتمكن من عظامي وأعصابي ، حتى ولم يترك عضواً من أعضائي إلا نشب فيه .

فلما ضعفت قواي ، وتمطلت حواسي سقطت في هذه الخربة (١) ، أقلب جسي على الأحجار ، وأرمق بعيني آثار أهلي ، وقصورهم المتهدمة ولصكن لا أستطيع حراكاً ، حتى كدت أغالب هذا (الأفرنجي) وأصل إلى مقرى ومنشأ عزى ، فأعاج نفسي بحشائش تربى ، وعقاير أرضى من يد أطباء بلادى ، وصيادلة ديارى (٢) فإن قويت على "فاحملنى" ، وإن تأذيت من صديدى فاجمع إلى قوى ، جفتم ، ويسعى فى نجاتى ،

أسفاً ، وبعض أنامله غيظاً . وأسرع

أيها القبور الصامته ، انشقى وانفرجى ، وابعثى من فيك من الأموات ، فقد أتت الطامة الكبرى ، وانكدرت نجوم النشور ويا أيها الأرواح الخادمة — هلى إلى أجسامك البالية ؛ فأقيمىها من موتها ، وابعثىها فى الوجود لتنظر هذا الذى تشقى بهدمه وتحاسب عليه ، فلم يكن إلا كلمح البصر حتى ملئ الفضاء بأناس لا عدد لهم ، يقدمهم طيب بارع ، قد استصحب معه جملة من الأطباء ؛ وساروا إلى تلك الجيفة ، واحتاطوا بها يقلبونها عن اليمين وعن الشمال ، ويقرعون صدرها ويحسون نبضها ، حتى وقفوا على دائها ، وعلموا أصل مصابها لحكموا على صاحبها (٣) باتزاحه عنها ، وعدم قر به منها ، وفوضوا أمر هذا المصاب إلى الطبيب البارع يتولى علاجه ، ويداوى جراحه . فطلب من بقية الأطباء أن يرافقه فى هذه المعالجة ليتقوى بأفكارهم على ما يصلح به هذا الجسد الشريف ..

وبعد تبادل الأفكار بينهم قرء الرأى على أنهم يركبون له دواء يوقف سريان

---

(١) الخربة هنا كناية عن الحراب التى حل بالبلاد بسبب إسرائف إسماعيل .

(٢) أراد بأطباء بلاده وصيادلة دياره الغلاء من أمته وهم وحدهم القادرون على إلهاذ البلاد من هذا الحراب .

(٣) صاحبها . كناية عن إسماعيل ،



الداء الآن ، حيث تحكم وتمكن وبعد ذلك يتداولون فيما يزيل المرض ويهين الصحة ، قتلهم بهم أهله يسألونهم الإسراع في معالجته ، والاجتهاد في دفع مصابه . فترضتهم الأطباء وسألهم الهدوء والسكون ، ومساعدتهم في خدمته ، وتنظيف محله ، وتطهير أعضائه وحفظه بحيث لا يتركوا الغرباء يتولون خدمته ، ولا يمكنون الأجانب من الوصول إليه . خوفاً من إفسادهم العلاج ، وسعيهم في إنلافه أكثر مما صنعوه به ! .

فكثروا صياح أهله ، وعلت أصواتهم بالعويل ، ووضعوا أيديهم على أكبادهم وتصبروا وابتدأوا يعملون بمشورة الأطباء ، ويبدلون الجهد في وقايتهم وصيائهم من كل من كان من جنس مصيبتهم .

قال الراوى : وبينما أنا أبكى وأنوح مع هؤلاء المساكين ، وإذا بالمؤذن ينادى على الفلاح فقامت لأفنى الغرض ، وأعود لمباشرة الخدمة مع إخوانى ، إذ لم أرق قبل هذا اجتماع مجلس طبي على مصاب بالآفرنجى . اهـ

هكذا بين النديم للنخاسة من أهل مصر خطورة هذا الداء ، الذى سرى في البلاد وهو داء الإسراف ، كما بين لهم أن الشفاء منه ميسور بإسناد الأمر إلى عقلاء الأمة وحكائما ، وإلى المخلصين من أبنائها على أن يتكاتفوا في مهمتهم ، ويضعوا لأنفسهم خطة تقوم على علاج سريع مؤقت وعلاج آخر بطيء ولكنه يشفى تماماً من المرض .

\* \* \*

بهذه الطريقة وأمثالها أخذ النديم يخاطب الخاصة ، أما العامة فخاطبهم بأكثر من مقال في العدد الأول من الصحيفة ، ومنها مقال بعنوان « عربى قفرنج » ، وآخر بعنوان « سيرة الأنطاع » ، وثالث بعنوان « تخريفة الجنون قنون » ، ورابع بعنوان « محتاج جاهل في يد محتال طامع » ، كل ذلك بينا خص الطبقة المثقفة بمشال « مجلس طبي على مصاب بالآفرنجى » ، ومقال أو قصة بعنوان « غفلة التقليد » .

وفي هذا المقال الأخير سخر النديم من بعض الموسرين من سمام ( حمير الأموال ) وقد بنى لنفسه بيتاً عظيماً وملاء بالفراش الوفيرة ، والأدوات الثمينة ( ١٠٢ - أحب القالة ٢٠ )

ثم لمجرد التقليد أتى لنفسه بخزاة كتب مלאها بكتب الأشعار والتاريخ وبقية العلوم ، وهو بعد لا يعرف القراءة والكتابة ، فعل ذلك لا لشيء - كما قال على لسان رب الدار - إلا لأنه دخل بيت الشيخ فلان ، والسيد فلان ، والحاج فلان ، والحمام فلان ، والأمير فلان ، فرأى في مضيقة كل منهم خزاة بها كتب وعليها ستارة خضراء ، وبجانها منشفة من الريش ، والحسام كل يوم ينفذها ويمسح الزجاج والخزاة ، فعلم أن هذا طرز جديد في بناء البيوت ، فرتب مضيقتهم مثلهم ليكون في صف المتمدنين الخ .

ولا نستطيع أن نترك الجانب العاى من هذا العدد الأول من أعداد مجلة التنكيك والتبكيك حتى نسوق فيه نموذجاً للقارى . يوضح له طريقة هذا الصحفي في مخاطبة الشعب في صحيفته . ولنتخذ لتلك الحكاية التى عنوانها :

### محتاج جاهل فى بر محتال طامع :

احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه ، فقصد بعض التجار ، وطلب منه المبلغ ، فحرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النباه .

الزارع : عاوز ميت جنيه بالفرط<sup>(١)</sup> يا سيدى .

التاجر : فرط الميه عشرين كل سنة .

الزارع : اعمل الى تعمله .

التاجر : شيل عشرين من الميه بيقى كام ؟

الزارع : لى أنا كاتب شوف بفضل كام ؟

التاجر : بيقى سبعين .

الزارع : يدوب كده .

التاجر : دلوقت صار لى ميه جنيه ، ضم عليهم عشرين واكتب السكبيالة

الزارع . اكتب وخد الحتم أهو .

وفى وسط السنة اقدم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أرادب سمسم

(١) يريد بالفرط أو الربا .

وعشرين من القمح ، وثلاثين من الفول ، وأربعين من الشعير وجا . يحاسبه  
فكانت الحكاية هكذا .

الزارع : طلع لي ورقة الحساب يا سيدى .

التاجر : انت جبت قطن بعشرين جنيه . وقمح بعشرين جنيه وشعير بعشرة  
جنيه ، يبقى كام ؟

الزارع : ما قلت لك من ديك المرة ما بعرفش الحساب .

التاجر : يبقى أربعين جنيه شيلهم من مية وعشرين ويكون الباقي كام ؟

الزارع : مين يعرف شىء بعده (١)

التاجر : الباقي تسعين جنيه ، وفرطهم عليهم عشرين ، يبقى مية وخمس عشر  
طالب انت كان ثلاثين . يبقى مائة وستين ، ضم عليهم أربعين فرط . يبقى  
السكينة بمائتين وعشرة ونصف .

الزارع : هو إيه - من الأصل سبع عشرات وعشرين ، وجالم ثلاثين  
وثلاثين ، شلت منهم ثمن البتوعات التى جبتهم ، يبقى لك دلوقت مائة وعشرة  
بس ! والنص جبتو منين ؟

التاجر : النص أجرة كتابتى لا من الأرباح .

الزارع : آى دلوقت صحت الحسبة ، والسنة دى أبيع لك خمسين فدان فى  
عشرة جنيه ، يبقى لك إيه بعد كده ؟ يا جنين يا ثلاثة ، خذك بهم جاموسة ،  
ويبقى على رأى المثل شيل ده عن ده ، يستريح ده من ده .

فقال النبيه للتاجر : أما تنق الله فى هذا المسكين ، أخذت محسوله ، وصار  
دائماً لك ، فلفقت له حسبة لا أصل لها وجعلته مديون ، مع أن حسبتك  
معه هكذا .

٧٠ بفائدة ٢٠ ٪ فالمطلوب ٨٤

وهو أورد لك هذا القدر .

١٥ قنطار قطن سعر القنطار ٢ جنيه فالمجموع ٣٠

---

(١) يريد شىء كثير ،

١٠ أردب سمسم سعر الأردب ٢٥٥ جنيه فالمجموع ٢٥

٢٠ أردب قح سعر الأردب ١ جنيه د ٢٠

٣٠ أردب فول سعر الأردب ١ جنيه د ٣٠

٤٠ أردب شعير سعر الأردب  $\frac{1}{4}$  جنيه د ٢٠

والمجموع السكلى ١٢٥ جنيه.

يكون له عندك ٤١ جنيه ، فكيف جعلته مديناً بمائتين وعشرة ونصف بعد ذلك ، إن هذا هو السلب بلا خوف .

التاجر ، يا حبيبى الزاوى حمار ، وأنا إذا كان مش يعمل كده مش لازم ييجى تاجر بنكبر بعد خمسة سنة .

فقال : قد تغيرت هيئتنا وتغيرت حكومتنا ، فهى تسمى فى عمل نظام يحفظ الحقوق ؛ ويمنع تعدى مثلك على هذا المسكين حتى لا يقع بعد ذلك جاهل محتاج فى يد محتال طامع .

أى سخرية بالجهل إلى هذا الحد ؟ أرايت موعظة للشعب أبلغ من هذه الموعظة ؟ أرايت تنبيهاً لاولى الأمر أقوى من هذا التنبيه ؟ لا شك أن هذه الحكايات وأمثالها على بساطتها وسذاجتها ، وعناء الكاتب فى عملها أثرت فى نفس الشعب المصرى وحكومته أبلغ تأثير ، ودفعتهم إلى نقض الجهل عن أنفسهم بعزيمة دونها كل عزيمة .

أما فى حكاية الجنون فنون ، ففيه عرض الكاتب لقرائه فنظر قهوة بلدى يستمتع فيها العوام إلى رجل محتال هو ( الشاعر ) المعروف فى تلك المواطن وهو يقص عليهم قصة عنتره ، ولهذا القصة بطلان هى عنتره وعمارة ، والعوام ينقسمون قسمين بتشجيع كل قسم منهما لواحد من هذين البطلين ، قال الشاعر :  
« ويدناهم فى قتال وتزال ، وقد انكشف الغبار عن أمر عنتره ، وسنخلصه فى الليلة القابلة » .

فقال له أحد الحاضرين ( النديم يسميهم المجانين ) لابد أن تخلصه الآن وخذ عشرة جنيهات ! فأبى المحتال وسكت عن الكلام ، فشتتته الجنون ، وعلت

أصواتهما بالقبايح وآل الأمر إلى الضرب والإهانة .

### سهرة الانقطاع :

وفي حكاية سهرة الانقطاع ، ففيها عرض النديم لقرائه كذلك صورة قوم جلسوا في دارهم ، وعلائم الهم والتفكير بادية عليهم ، فدخل عليهم من سألهم على تلك الهموم ، وأخيراً وبعد بحث طويل عرف الذي أهمهم هو «عادة الكيف» الذي شغلهم عن كل شيء عدا في حياتهم الاجتماعية ، ولم يجعل لهم حظاً من النشاط ، إلا رغبة في معرفة أخبار الوطن سيئة كانت أم حسنة الخ . وما لهم ولهذا كله .

« فهذا شيء يوجب وجع الدماغ ، ويشقت الفكر ، ولا يشتغل به إلا من ليس له شغل » ، .

### عربي تفرنجي :

ثم في حكاية ( عربي تفرنج ) بتخيل الكاتب أنه ولد لأحد الفلاحين واسمه ولد معيط وسماه ( زعيط ) تركه يحيا حياة الفلاحين في العزبة ، ثم أرشده الناس إلى ضرورة إرسال ولده إلى المدرسة فأطاعهم في ذلك ، فلما أتم علومه أرسلته الحكومة إلى أوروبا . وعاد إلى بلاده بعد أربع سنوات ، وأتى أبوه لاستقباله في رصيف الإسكندرية ، واندفع الأب محتضن ولده وقبله ، فابتدره ابنه قائلاً .  
سبحان الله عندكم يا مسلمين مسألة الحفص دى قبيحة جداً .

معيط : آمال يا بني نسلم على بعض إزاي ؟

زعيط : قول . بون أريني ( Bon Arrivée ) وحط إيدك في إيدي مرة واحدة وخلاص .

معيط : لهو يا بني أنا بأقول منيش ريني .

زعيط : موش ريني يا شيخ ، أتم يا أبناء العرب زى البهايم !

معيط : الله يسرك يا زعيط ، والله جا خيرك ! . الخ .

وهكذا احتوى العدد الأول من مجلة ( التنكيك والتبكيك ) ست مقالات ،

إثنتان منها للخاصة وأربع للعامة ، وغاطب النديم كل طبقة بما يلائمها ، وذلك من حيث اللفظ والفكرة في وقت معاً .

ثم في العدد الثاني من هذه المجلة ، رأينا النديم يطرق موضوعاً آخر ، وهو موضوع المحافظة على اللغة القومية للبلاد ، وهو موضوع ذو بال ، وقد أثار به جدلاً كثيراً ، واتخذ هذا الجدل شكل مناظرات قيل أن النديم نفسه ، كان حكيماً في بعضها .

جاء في هذا المقال الذي نشير إليه بقول النديم تحت عنوان ،

### إضاعة اللغات تسليم للزات :

أيها الناطق بالضاد ، بم تستبدل لقتك وما لها من مثيل ، وإلى من تركها وأنت لها كفيل ؟ وما الذي استحسنته في غيرها واستقبحت مقابله فيها ؟ وأى شيء طلبته فيها ولم تجد له لاسماً ؟ .

ليبك أيها الأخ الشقيق — وإن لم نحمل في بطن واحدة — اللغة من الحياة ، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم ، بها يترجم اللسان خواطر القلب ، ويملو بها بنات الأفكار ، وبها يعشق المرء وإن كان دميم المنظر . . . وهي التي بها جذبت قلب أمك ، واستعطفت جانب أبيك وتمسكت فكر أخيك ؛ واستملت صاحبك وألفت جارك ، وتعارفت مع مواطنك ، وقابلت بها نزيلك ، فهي أنت إن كنت لا تدري من أنت ، وهي وطنك إن لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فقد قدمت لك من عرفتهم بها ، وأنت إذ فقدتهم صرت وحيداً غريباً في الوجود ، لا ترى من يقول لك من أنت ؟ وأما كونها وطنك ، فإنه إنما يعمر ويسمى وطناً برجال يتعاونون على إحيائه وإظهاره في الوجود محلاً للسكن ، وداراً للإقامة ، وقد علمت أنك بمفردك لا تهتدى لشيء ، ولا تقوى على أمر كان ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

أسمعك قول : إذا فقدت لعتى اعتضت عنها بأخرى .

أجل — إنك اعتضت عنها ، ولكن بما أضاع منك الوطن ، والمعتقدات الدينية ، فإنك لا تخاطب بها إلا أجنبياً من البلاد . مغايراً في الجنسية ، وأنت

نعلم أن المعاني الالفاظ تصوراً لا يقوم به مقابلها في غيرها ، فإنك لو سمعت قولي :  
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما      لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وأردت أن تلقيه بلغة أخرى لفقد قوة الحانسة ، ووقع الالفاظ . وربما  
عدت عنه بما لا يؤدي معنى ... رويداً فقد قدتك إلى الحق ، ورميتني بالاضلال  
فإني لم أحرم عليك غير لغتك لضرورة تقتضيها ، ونازلة تدفعها ، ومشكل تحمله ،  
ولنما أردت تذكيرك بأن لغتك كان منطوقاً بها من غير تعلم ، محفوظاً في غير كتاب  
وبمخالطة الدخيل فسدت بعضها ، وخيف عليها الضياع ، فدونت في بطون الأوراق  
ولقيت نوتها في اللفظ والكتابة .. إلى أن قال :

« هون عليك فالأمر سهل ، فإننا لا نحتاج لحفظ لغتنا أكثر من إحداث  
درس في جميع المدارس يلقي فيه الطفل لغته العربية الشريفة ، بطريقة تهيئية  
لا يصعب الأخذ بها ، ولا تمل النفس من ملازمتها ، مع اجتماع الأمة على تكثير  
المدارس بالجمعيات ، وصرف تلك وقت الطفل في تعلم اللغة والوطنية وتهذيب  
الأخلاق . وإذا تمت هذه المبادئ رأيت لبلادك نشأة جديدة ، وخلقاً بديعاً ،  
وعلمت بما تراه من جمع الكلمة ، وسر وحدة التعليم ، وانتظام الهيئة الاجتماعية  
أن إضاعة اللغة نسليم للذات .

على أن هذا الموضوع الذي بدأه النديم ، هو المحافظة على اللغة العربية ،  
وجدناه قد تركه بعد ذلك ، ولم يعد إليه إلا حين أصدر آخر صحيفة له ، وهي  
صحيفة ( الأستاذ ) على النحو الذي سنشرحه بعد ، وكتب النديم في العدد الثاني  
من أعداد مجلته كذلك مقالا انتقد فيه المجتمع المصري . في « عادة التبذير  
والإسراف » ، وجعل عنوانها يدل عليها . ويلفت النظر إليها . وهو قوله :

### هف طلع النهار :

كما كتب مقالا آخر بعنوان « كم في الروايا من خبايا » ، يتهم فيه بلغة رجال  
الإدارة وجهلهم وسوء تصرفهم فن ذلك أن أحد المأمورين ارتكب خطأ في  
عمله ، فأرسل له رئيسه كتاباً يوبخه فيه ، ويسأله الإجابة . فطلب المأمور رئيس  
كتابه ، فكتب له جواباً سخيفاً في لغته ، وسخيفاً في فكرته ، فلم يسترح

المأمور إلى ذلك ، وأخيراً دله بعض جلساته إلى شاب عنده في الديوان ، لا يتجاوز راتبه ثلاثة جنيهات ، ولكن يحترف الكتابة ، فكتب الإجابة بلغة صحيحة ومفهومة ، فلما قرأها على المأمور كاد يطير فرحاً بنجابة الشاب .

وقال ، كيف يكون هذا بثلاثة قرش ورئيسه بألف قرش ؟

فقال له الوكيل : هذا من أولاد الفقراء ، وليس له محسوبة على أحد الأمراء ، ولا يعرف النفاق ، ولا يفعل أفعال المحتالين التي تقدمه إلى ذوي الغايات .

ثم علق النديم على هذا بقوله :

( التبكيك ) أعظم مصيبة من رئيس كتاب لا يعرف الإنشاء ، وجود مأمور لا يحسن كتابة جواب من شأنه أن يكون من أسرار الخفية !

ثم في نفس هذا العدد من أعداد مجلة التنكيك والتبكيك أجاب النديم عن سؤال تخيل أنه ورد عليه ، وهو بأى سبب ماتت صنائع الشرق ، واقترا أهلها ؟ وبأية وسيلة تحيا وتعود ثروة أهلها ؟

فأجاب عن ذلك بأن الصنائع قد ماتت بتحارب أهلها وتباغضهم اللذين أورتهم الفقر وقصد الأمن والثقة بهم ، واحتج لرأيه هذا بمقال طويل وأدلة قوية . أما العامة فكان نصيبهم في هذا العدد أحاديث ، منها حديث له بعنوان :

تخريفه هزم من عهد الله وانكل على الله :

قال فيه :

سافر لأحد الأغنياء ولد ، فلما طالت مدة غيبته توجه إلى بعض الرمالين ، وقال له دخط لي الرمل ، وشوف نجمي ازيه .

نخط الرمل وقال له : ما شاء الله ، أنت طالعك سعود ، وأيامك سعود ، شوف النجم يخبر بأنك بتاكل وتشرب ، وتقوم وتقع ، وتفرح وتزعل ، وتركب وتمشي ، وتنام وتليقظ ، وتكسب وتخسر . وفوقك سما ، وتحتك أرض ، وفي فكرك كلام ، وطالب حاجة ، وبذك تبقى غنى .



فغمز الغبي رفيقه ، وقال له : شفت . أنا ما قتلتكش يعرف كل شيء ، مين قال له على اللى يعمله دا كله ، النجم بين كل حاجة .

ثم التفت إلى الرمال وقال له :

شوف أبو الزلنى ابنى ماله غاب كده .

فقال الرمال : دلوقت حصل سحب كثير ، والنجم ما يصحش فى السحاب

فقال الغبي : أظن نجم الواد ساقط !

فقال الرمال : الظاهر كده .

فشق الغبي نفسه بعمامته ونادى .

آه يا ابنى — يا أعز الرجال يا أبو الزلنى ،

فسمعت أمه فخرجت صارخة مولولة قائلة إيه جرى لابنى ؟

فقال لها أبوه : النجم خبر عنه أنه مات !

فصاحت وصوت واجتمع إليها النساء من كل فج ، وأحضرن الدف وابتدأن بالندب والمويل ، حتى قامت الناس على ساق ، وجلس أبوه يقبل العزاء ، ودموعه تسيل على خدوده .

وبينما هم فى شياط وعباط ، وإذا بالولد داخل عليهم حاملاً زكية الزوادة ، فابتدته والداه واحتضناه ، وقالت أمه لأبيه :

شفت الرمال بتاعك الكذاب ده !

فقال لها : د والله يا وليه الراجل ما لو دعوه ، الراجل قال لى السحاب كثير ما سمعش منه والا برده كلامه حق ،

ولهذه الحكاية بقية أتى بها التديم على وفق خياله ، ثم علق على ذلك بقوله :

( التبكيك ) — انظر إلى الغفلة واستحكامها فى العقول السخيفة ، وكيف رأى هذا الغبي أن الرمال كذب فيما يفتره ، وحضر ولده من سفره ، ولم يرض<sup>(١)</sup> أن يكذبه ، وحمل عدم صدقه على وجود السحاب .

---

(١) ترى أنه كان على الكاتب هو أن يأتي بفاعل ( يرضى ) ظاهراً لاضميراً مستتراً وإن كان سياق الحديث يفهم منه أنت الضمير فى ( يرضى ) يعود على الأب .

وتأمل قوله أنه يعرف كل شيء . بعد كونه يخبر عن أشياء من ضروريات  
البيمة ، فضلا عن الإنسان .

وفي جريدة التبكيك والتسكيك ، وجه النديم عنايته كذلك إلى تقصير كبير  
يرتكبه المصريون ، وهو صنعهم في الخطابة وبخاصة الدينية .

ودعاه ذلك إلى بحث كبير في الخطابة وأصولها وقيمتها ، وتاريخها وأنواعها ،  
وانتهى من ذلك إلى قوله .

وأود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون بمبلغ يقوم بنشر خطب أدبية  
وسياسية . وأنا أقوم بإنشاء خطبة في كل أسبوع ، تناسب أحوال الزمان . ثم  
تطبع هذه الخطبة وتنتشر في سائر أنحاء القطر ، لتنبه الأفكار وتعرف الأمة  
قدرها ، وما تحفظ به نظامها بين الأمم . ولا يتم هذا الأمر إلا إذا اجتمع  
هؤلاء الأعيان ، وعرضوا ذلك لدبوان الأوقاف ، ليتمكنوا من العمل بالخطبة  
وما أظن أن أحدا يأبى هذا السعى الجليل ، مع تمتعنا برعاية ملك تقى يسره وقاية  
الدين من سقطات الجهلاء ، وحفظ المملكة بأفكار رجاله وأفراد رعيته (١) .

ونرى النديم بالفعل قد أخذ يكتب نماذج للخطبة المنبرية العصرية في جريدته  
هذه ، لكي يحتذيها الناس ، وينسجوا على منوالها .

ونريد أن تلخص ما عن لنا من ملاحظات على هذه الجريدة حتى الآن  
فنقول .

أولا : إن وجه تسمية الجريدة ( بالتسكيك والتبكيك ) هو أن النديم كان  
يقسم مقاله العائى في الصحيفة قسمين : قسم يسخر فيه من عادة من عادات المصريين  
أو خلق من أخلاقهم ، ويأتى بقصة يشرح فيها كيف ينقاد المصريون لهذه العادة  
وكيف يأتهم الضرر من قبلها ، وقسم يوبخ فيه المصريون على اتخاذ هذه العادة ،  
أو التمسك بهذا الخلق ، ويأتى توبيخه على هيسأة تعقيب من الجريدة على هذه  
الحكاية التى أوردتها ، والقسم الأول من هذين القسمين هو ( التسكيك ) بالنون  
والقسم الثانى هو ( التبكيك ) بالباء . ومن ثم كان محققا في هذه التسمية .

ثانياً . إن المقالات التي كان يكتبها النديم باللغة العربية الفصيحة ، كانت على هيئة أحاديث ممتازة ، أو قل في صورة خطبة . والنديم خطيب بطبعه وخلقته كما رأينا . وهو لهذا يجد سهولة كبيرة في التحدث إلى الناس على هذا الوجه ، بل يجد لذة عظيمة في ذلك . ومن هنا كانت عناية النديم بالبحوث الخطابية في صحيفة مقابلة لعناية إسحق بالبحوث الـكتـابية في صحيفته ، أو من ناحية أخرى كان النديم يؤمن بالإصلاح عن طريق الخطبة ، في حين أن الأستاذ الإمام كان يؤمن بالإصلاح عن طريق النفسية .

ومن ثم كان الإمام عالماً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وكان النديم خطيباً شعبياً ، والخطبة الشعبية لا غنى لها عن التهريج كوسيلة لإقناع الجمهور .

ثالثاً ، إن الموضوعات التي طرقتها النديم في صحيفة التنكيك والتبكيك ، كان أكثرها يتصل بالمجتمع ، وأقلها يتصل بالسياسة ، وقد كان النديم من أوائل من أدركوا في مصر أن لغة الصحافة البحثية ينبغي أن تكون غير لغة الأدب البحثي ولذلك ترك السجع ، وعدل عن الزخرف ، وآثر عليهما طريقة الرمز ونسج الأقاصيص الصغيرة ، التي يقرأها العامة والخاصة ، وترك في نفوسهم تأثيراً واحداً على السواء .

أما الكلام عن بقية الخصائص التي لأسلوب عبد الله النديم ، فله موضع آخر عندما نلخص القول في هذه الخصائص ، وذلك بعد الفراغ من البحث عن بقية الصحف التي كتب فيها هذا الرجل .

\* \* \*

نشبت الثورة العراقية ، واتصل بها النديم راضياً أو كارها . أو طلب إليه أن يخدم الثورة بصحيفته ، وسعى رجال الثورة أنفسهم حتى نقلوا النديم وصحيفته إلى ميدان القتال ، وأطلق هو على صحيفته الجديدة اسم الطائفة .

## الفصل التاسع

### الطائف

وفي هذه الجريدة كتب النديم مقالات سياسية ذات طابع ثورى واضح ،  
ومنها مقالات في تاريخ إسماعيل وفي التقمة عليه ، أهمها مقاله الذى جعل عنوانه :

#### سلب الأملاك من الملوك :

كتبه في ٦ مايو سنة ١٨٨٢ وملا بها فراغ صفحتين من صفحات الجريدة  
الأربع ، ومرض في أثناء ذلك فأتم المقال ، وأرسل يعتذر ، عن تحرير الجريدة  
إلا ما كان من تاريخ حضرة إسماعيل باشا ، فإنى أكلف بكتابته ، لأن نشره  
من ضمن علاج ما بي ١١

وفى النديم فى نقد إسماعيل والتقمة عليه فى أمور كثيرة : منها أنه أرحق  
المصريين بالضرائب الكثيرة ، وأنه سلب أموالهم ، ونهب عقارهم ؛ وحرّمهم  
أرضهم ، وظلمهم واستبد بهم ، ولم ينبج منه حق أصدقائه وأقربائه من أعضاء  
الأسرة الحاكمة . وذهب النديم فى تجريح إسماعيل مذهباً بغيذاً ، إلى حد أنه  
راح يبنى عنه كل سعى له فى ترقية مصر ، واتّباعها بالحضارة الأوروبية الحديثة ،  
واقتراداته فى ذلك بحمد محمد على . فهذا أتى بالأوروبيين النابغين ، وهذا ( يريد  
إسماعيل ) استحضر من الأوروبيين من اقتتحت التيارات والمراقص ، ومن بنى له  
السرايات التى أنفق عليها أحمالا من الذهب ، ومن قنح له البنوك لمساعدته على  
شهواته البدنية ، ولذاته الخصوصية<sup>(١)</sup> .

ثم انتقل النديم من نقد إسماعيل إلى نقد توفيق ، إلى أن اضطرت الحكومة  
إلى تعطيل جريدته ، وذلك فى ١٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، ثم عادت للظهور بعد ذلك  
الحادث الخطير ، وهو ضرب الإنجليز مدينة الإسكندرية بالمدافع ، واحتلالهم لها .

وهكذا بعد أن كان النديم في صحيفة (التشكيك والتبكيك) يكتب بلغة تقوم على الكتابة والرمز ، وتم عن الحياد والحذر ، أصبح في جريدة الطائف يكتب بلغة سافرة ، لا يخشى فيها سلطانا ، ولا يابه بملك أو أمير ، وهو في هذا الدور الأخير إنما يسير الثائرين في حركاتهم ، ويترجم عن أفكارهم وآرائهم ، ويصدر عن هذا الرجل الذي غلا في صدورهم ، حتى أوفى في كل ذلك على الغاية .

ثم إن النديم فضلا عن تلك المقالات العنيفة التي كتبها في نقد إسماعيل وتعمير توفيق باهتمامه بالدول الأجنبية ، طفق يكتب مقالات أشد ثورة ، وشرح فيها حالة الفلاحين ، وما انتهوا إليه من بؤس وعوز ، ودعا الحكومة إلى العناية بهم من جميع النواحي الممكنة .

أما الإصلاح النيابي في مصر فقد استأثر بجانب عظيم من مجهود النديم في صحيفة الطائف ، وكان يرى أن الإصلاح السياسي في مصر لا يقوم إلا على الإصلاح النيابي (١) .

وحين وقعت الواقعة ، وأذنت البلاد بثورة جامعة ، وأعلن عرابي ورفاقه عصيانهم للخديو انتقل النديم بهريته هذه إلى الميدان كما قلنا ، وأخذ يكتب المقالات التي هيجت الخواطر ، وأثارت الفتن . وكان النديم يلقب (عراي) في أثناء ذلك (بحامي حامي الديار المصرية) .

وحين قامت الحرب فعلا بين عراي والإنجليز أراد النديم أن يروج للحرب ، ويشيد بالهمم التي يبذلها رجال الجيش ، طفق هذا الكاتب الخطيب يهول في وصف المعارك التي دارت بين عراي والإنجليز ، ويشيد بذكر العناد الحربي الذي يملكه الجيش المصري ، ويريف في وصف الهزائم التي أوقعها المصريون بالإنجليز ،

---

(١) وقد أرسل النديم خطابا إلى مجلس النواب بتاريخ ٤ مارس سنة ١٨٨٢ يطلب فيه امتيازاً بلمر محاضر المجلس في هذه الجريدة . ووافق المجلس على أنه بتاريخ ٥ مارس سنة ١٨٨٢ ، ولكن يبدو أن جريدة الطائف لم تعظ بنفورها هذه المحاضر لأن المجلس انعقد و ٢٦ مارس فلم يتطع النديم في هذه المدة البسيطة التي لم تتجاوز تسعة عشر يوما أن يلمر شيئا من هذه المحاضر التي سعى حتى نال الموافقة عليها .

ويركب متن الشطط في وصف شجاعة العربان الذين ألحقوا أنفسهم بالعرايين ،  
ولم يلتزم النديم جانب الصدق في شيء من ذلك .

وما للنديم والصدق في هذه الحالة !

أليس يريد تقوية الروح المعنوية في الجيش ؟

أليس ، مد أن يذود عن الشعب كل شعور بالقلق أو الخوف ؟

ومن هنا كانت الجريدة الثانية من جرائد الثورة - ونعني بها جريدة  
( المفيد ) محررها حسن الشمسي - أدنى من الطائف إلى العمل الصحفي ، فبينما  
كان النديم يمحرق على هذا النحو ، إذا بحسن الشمسي يسلك طريقاً آخر ، هو  
إثارة العداوة والبغضاء في قلوب المصريين ضد الإنجليز ، ويحسم الخطر الذي  
يهدد المصريين من دخول الإنجليز ، حتى لقد أبلت ( المفيد ) في هذه الناحية  
بلاء لا بأس به ، وجاء أسلوب محررها حسن الشمسي أقوى نوعاً ما من أسلوب  
النديم ، الذي راح يكتب نشراته الحربية كتاباً قليلة الحظ من الأناة ، بل من  
الجمودة الفنية .

ثم أن النديم كان يصدر مع الطائف ملحفاً به ، وكان يبيح لنفسه في هذا  
الملحق من حرية النقد ، والمبالغة في التجريح والذم ، فوق ما ينبغي لصحفي شرق  
أو غربي في الظروف المعتادة .

ولكنها الثورة يتهزها أمثال عبد الله النديم ، ويتجاوزون فيها الحدود ،  
ويخرجون فيها على القوانين .

ومن ذلك أن النديم تعرض للصحفيين السوريين ، وكتب في ملحق من ملاحق  
الكتاب مقالا بعنوان ( سليم وبشاره قفلا وتوفيق باشا ) ملأه سباباً وإفخاشاً ،  
وأعلن إذ ذاك في تجريح أولئك السوريين تجريحاً تناول ذواتهم وطبائعهم وأخلاقهم  
وطعن في زيمهم وأنسابهم وأعراضهم . وكان ذلك من الأمور التي أسكتت صحف  
أولئك السوريين ، واضطرتهم إلى الرحيل عن الديار المصرية ، حتى تنجو البلاد  
من خطر الثورة العرابية .

وأرى بعد هذا التهيد أن أكتفى هنا بأن أنقل للقارىء مقالا أو نشرة من النشرات الحربية مكتوبة بأسلوب النديم . وهو فى ميدان القتال بالقرب من الإسكندرية ، ثم أتبع ذلك بمقال لحسن الشمعى كتبه فى هذه الظروف - خارج الميدان - فى قلب القاهرة . وغرضنا من ذلك أن يوازن القارىء بين الرجلين ، وبين المنهجين ، وبين الأسلوبين موازنة سريعة موجزة بقدر المستطاع . كتب النديم فى العدد الرابع والستين من جريدته الطائف ، فى ٨ شوال سنة ٩٩ بعنوان .

## المعمعة الثانية

إن جندنا لهم الغالبون

أى بنى مصر ، خذوا حديثاً يرويه العيان عن المشاهدة ، ويخبر به الصدق عن الحقيقة . جمل الإنجليز مقام المصريين ، فاعتدوا وأجلبوا عليهم بالخييل والرجل ، يريدون ليطفشوا نوراثة بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره توفيق باشا ومن معه . ونال الإنجليز العذاب ألوانا من يد المصريين فى ٥ رمضان سنة ٩٩ فأبست جهنم إلا أن يساق إليها جانب عظيم منهم يزداد به وقودها ، فتجمعوا وأقاموا خمسة عشر يوما يجهزون ويرقبون ، حتى إذا جاء أجلهم ساقنهم المنية فى يوم السبت زمراً تحت رياسة الدوق (دوكنوت) رابع أنجال ملكة الإنجليز؛ وقيادة السير (أرشبالد أليزون) أشهر قواد الإنجليز ، تخرجوا فى الساعة التاسعة بقوة مركبة من عشرة آلاف عسكري ، ما بين بيادة وسوارى وطوبجية . وكان خروجهم على هذا الترتيب .

ويلنا كانت الطابية تضرب القلورات قربت عساكرهم البيادة والسوارى والطبجية من عساكرنا ، فأمرتهم بنادقتنا رصاصاً غير بارد ، وسعتهم شراباً غير راو ، وكانت مدافعهم من جهة محطة السيوف ومن طابية الرمل تضرب ، ومدافع مقدمتنا الامامية وطابية الخفراء الأولى تجمع من شرد منهم وترد الحارب ، فإن طوبجيتنا من المشهود لهم أنهم من الطبقة الأولى . وقد أظهروا فى هذا اليوم ما خلد لهم فى تاريخ العسكرية ذكراً جميلاً ، كيف لا ورئيسهم البطل الهمام سعادة بدوى بك

كان يطوف حول المدافع ، كأنهم بين يدي أمير مطاع ، يأمر فلا يرى إلا نشاطاً وحركات سريعة .

وعندما تسكاثرت نيراننا عليهم تقهقروا ، فانقض عليهم أربعمائة من سوارينا وخمسمائة خيال من فرسان العرب ؛ وألف وخمسمائة من العرب الراحلة ، انقضاض الشهب المحرقة ؛ وساقوم سوق الأغنام ؛ ومدافعهم تضرب من كل ناحية . وهؤلاء الأسود لا تخيفهم نيران العدو ، ولا ترهقهم كثرتهم ، حتى التجثوا إلى تخيل السيوف والمندرة ، فاتبعهم فرساننا الظاهرون ، وأطلقوا أعنة الخيل خلفهم . وقد سارت العرب الراحلة تبارى جياد الخيل عدواً وجرياً ، حتى تمكنوا من الألوف المنهزمة ، وأذاقوهم المنون حرقاً بنار الرصاص ، وضرباً بالسيوف ، وكسراً بسنابك الخيل ، وكلما التجثوا إلى ربوة أو نوارطوا في منخفض ، تبعوهم وشردوهم ، حتى وصلوا بهم بحطة السيوف . ورأى العدو أنهم لا يرجعون مع استمرار المدافع من طابية الرمل ، فقصدوا جهة طابيتهم ، وأسود مصر خلفهم تزار ، وفرسان العرب تصيح بصوت له ضجة عظيمة ، حتى منعوم من الالتجاء إلى الطابية ، فزلوا على جسر السكة الحديد ، قاصدين سراى الرمل ، فقبهم صناديدنا تضرب وتذبح ، وحالوا بينهم وبين السراى ، وفروا جهة الإسكندرية والسيوف تنوشهم ، والرصاص يصيدهم ، حتى صاروا أمام الحدراء . ورأى رجالنا أنهم إن تبعوهم إلى الإسكندرية أصابهم نيران مدافع باب شرقى ، فعادوا وجئت القتلى تحت سنابك الخيل ؛ كأنها ربوات . ومن العجب أن أنفار العملية أخذوا فؤوسهم ونبايتهم وهجموا مع العسكر ، وتوغلوا في السير معهم ، وقد تجمعت خلفهم نساء العرب تزغرد وتنقى بألفاظ حماسية وصوت رخيم . وكان في ساحة القتال سعادة البطل الفيور طلبه باشا عصمت ، قندان كفر الدوار وسعادة محمد رضا باشا . وحضرة مصطفى بك عبدالرحيم حكمدار المقدمة ، وحضرة أحمد بك عبد الغفار أميرالاي السوارى ، وحضرة عياد بك وحضرة سليمان بك سامى ، وحضرة أحمد بك عفت ، ومن البكباشية حضرة محمد أفندى قوده ، وحضرة رزق أفندى حجازى ، وحضرة إبراهيم أفندى هيبه ، وحضرة علي أفندى رمزى ، وحضرة علي أفندى رضا .



فهلأه الامراء العظام أظهروا في هذا اليوم ما أعاد لمصر مجدأ يشرف به الحاضر ، ويفخر به الآتى من المصريين . وكنا نود لو حضر الإفرنج ، ورأوا عساكرنا وعرباننا وهم كالليوث خلف غزلان تستحق الحرب من نسبتهم إليها ، حتى كانوا يقطعون ألسنتهم بأيديهم ، جزاء لما افتروه على المصريين ، وما كانوا يقولونه من خوفهم من البرانيط التي لم تجد تحتها رؤوساً . ولكنهم وإن فاتهم النظر ، فلا يفوتهم الخبر ..

\* \* \*

ولله در الفارس الضرغام شيخ العرب للموم السعدى ، والبطل الغضنفر عمر محبوب كيشام . فقد أظهروا من الحاسة والإقدام فى الهجوم ، ما شهدت لهم به القتلى ، واعترف المنهزمون به .

\* \* \*

وهذه الطريقة السالفة كتب النديم كذلك وهو فى الميدان - مقالاً فى جريدة الطائف ، يصف ما سماه يومئذ باسم :

### المعمعة الثالثة

وما نريهم من آية إلا وهى أكبر من أختها

« قاتلهم بعدبهم الله بأيديكم ، ويخزم وينصرمك عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » ، ذلكم العادون المفترون بغاث<sup>(١)</sup> الإنجليز الذين استسروا فى الوجود بأوهام وخيالات ، واستضعفونا فجاءوا بالخييل والرجل ، وقد زلزلت أرضهم ، فأخرجت أثقالها ، وثبتت بأقدامنا أرضنا ، فكنا أوتادها . غرتهم مراكبهم ، الحربية ، فتخيّلوا أنهم يسيرونها فى البر ، ومادروا أن الاتصاك يقتلها التراب ، وتنتها الشمس . وهى إذ لا تقرب الشاطئ خوفاً من الصيد ، وبين أسود تنبع فريستها أنى سارت . يعلم ذلك من شاهد واقعة يوم الأحد ٥ شوال سنة ٩٩ ، فقد أخذ العدو يبيد عساكره من الساعة السادسة نهاراً . وفى الساعة التاسعة

---

(١) بنات الطير صغارها ،

ظهر بقوته المركبة من ستة فولات قادمة من جهة الرمل شرق المحمودية ، وقوانين من جهة حجر النواتية غربى المحمودية ، وقطرين من طريق القبارى ، وكان سعادة طلبه باشا قندان فرقة كفر الدوار قد رتب مقدمتنا من أربع أربط شرق المحمودية تحت حكدارية عيد بك ، وحضرة أحمد بك عفت ، إلخ .

وعندما صار العدو تحت نيران مدافعنا اشتغلت الطوبجية من الطريقة ، واشتعلت نيران المدافع ، وعلت القنابل فى الجو ، تعارض الصواعق فى انقضاضها وتضارح الشهب فى إحراقها ، وقد أبدى حضرة محمد افندى حشمت البكباشى ، وأحمد افندى فضلى اليوزباشى ، وبقية ضباط وعساكر الطوبجية تحت حكدارية الهمام حضرة بدوى بك ، من المهارة ودقة الضرب ، ما غطى وجه أرض الميدان بجثث القتلى من العدو .

وقد شاهدنا عدة قتابل فرقت فى وسط فولات العدو ، فركت مشات من رجاله صرعى لا روح فيهم ثم وجهت مدافعنا إلى القولات الشرقية ، فأعدمت وأحرقت ، وشنت وبددت ، ووجه بعض المدافع إلى قطورات السكة الحديد ، فكسرت وقتلت ، واستمر الضرب بالمدافع ساعتين ونصفاً ، وعساكر اليبادة والسوارى والعربان تتقدم تحت حماية نيراننا ، حتى صارت على قرب ستمائة متر من العدو ، وأطلقت عليه نوبة يلوك لإتش ، وأنبعثت بنوبة لإتش ، فتقهقر العدو منهزماً ، وكان يود أن يجعل قهقرته بانتظام ، ولكن هجمت عليه سوارينا وفرسان العربان فشردته من النخيل ، وتبعته تضرب بالنار وتذيع بالسيف ، إلى منتصف الساعة الأولى من الليل ، ومن عهد انتشار الحرب لم يخرج العدو بقوة كهذه ، فانها كانت مكونة من ١٢ ألفاً بما فيهم آلاى الحرس الملكى وكان الدوق (دكينوت) رابع أنجال الملكة مع توفيق باشا جهة الرمل ، ينظرون بالظارات ، فلما رأوا عساكرهم تقهقرت وتلفت ، عادوا إلى الإسكندرية بالحنية والندامة .

وفى هذا اليوم حضر أحد عساكر موسيقى وابور المحروسة ، وأخبرنا أن قتل العدو يوم السبت ألفاً ومائتان ، وأما قتل يوم الأحد فإنها مضاعفة ، وستأتينا بأعدادها ، فنكتب إليكم بها . فحق المصريين أن يفتخروا بإخوانهم

المجاهدين الذين أسسوا لهم دعائم مجد يبني عليها تاريخ العز والشرف . نصرهم الله (كتب في ميدان القتال بالملاحه ) .

هكذا وجدنا النديم يعنى في تلك المقالات العاجلة بوصف المعركة ، وليس في أسلوبه في هذا الوصف عناية ما بأكثر من العناية بالألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع في الآذان ، والحرص على إيراد المصطلحات الحربية الغنية بالفاظها التركية ، ثم العناية بالافتباس من القرآن وخاصة في مطالع هذه المقالات ، وقد رأيناه يجعل من الآيات القرآنية عنوانات لهذه المقالات . وهو بعد هذا كله ليس معنياً بالترادف الموسيقى للعبارة ، ولا للتوازن بين الميل من حيث الموسيقى ، ولا بالاستعارات إلا فيما ندر ؛ كما في استعارته التي شبه بها مراكب الإنجليز بالسماك يحيا في البحر ويموت في البر ، هذا من حيث الأسلوب الكتابي ، وأما من حيث العناية للحرب فقد رأيناه كعادته يتحرق بذكر أوصاف يضيفها إلى الجيش المصري ويوم بها جمهور المصريين بأن جندهم هم الغالبون ونحن نعلم أن الحقيقة كانت غير ذلك غير أننا نذكر له بالثناء قصده إلى ذكر أبطال المصريين عن اشتراكوا في الدفاع عن بلادهم ضد الإنجليز ، وقد رأينا أنه كان يعنى بذكر كبير الضباط وصغارهم على السواء . ولا ريب أنه كان لمثل هذه الطريقة في الكتابة ، ولقصده الكاتب في ذكر أسماء الأبطال ، وقع عظيم في نفوس هؤلاء الجند ، ورتة فرح في المعسكر المصري الذي كان بحاجة شديدة إلى مثل هذا التشجيع .

وكان النديم يضمن جريدته الطائف عنوانات مغرية دائماً ، كما في قوله (الريح الدائم) ثم يأتي بعد ذلك بالآية تبدأ بقوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، . إلخ) . وهكذا كان النديم يستمد من القرآن الكريم قوة يضيفها إلى كلامه ليكمل بها هذا الكلام .

وبينما كان النديم يكتب هذه الكلمات وهو في وسط الميدان إذا بصحافي آخر هو حسن الشمسى يكتب خارج الميدان في صحيفة المفيد مقالات لا شك أنها كانت لسان حال الثورة العرابية ، وأنها عبرت عن كثير من معاني هذه الثورة ، كما

عبرت عن البغض الشديد الذي كان يحسه الثوار ضد الإنجليز .  
وهاك نموذجاً مما كتبتة جريدة المفيد في عددها الصادر في ٣٠ يولية  
سنة ١٨٨٢ بعنوان :

### هاتنا مع الانجليز :

إلى متى توقظنا الحوادث ونحن رقود ؟ وحتام تدهننا المصائب ونحن قعود ؟  
وكيف يناديننا الوحي لنحميه فيجد آذاننا صماء ؟ أم كيف يشير إلينا الوطن  
لنحفظه من غوائل الطمع ، فيرى أعيننا عمياء ؟ فما للدافع لاتدق ، وما للنفس  
لا تزموق ، ومن للأعراض تحمينا إذا دخلنا تحت صخور الحين (١) ؟ ومن  
للوطن يمنعه بحوزته إذا تأخرنا عن نصرته ؟ ما رأينا عرضاً حفظ وصاحبه في  
سكرات غفلته .

وما منعت دار ولا عز أهلها من الناس إلا بالقنايل  
أفهل يسرنا أن نتنظم في سلك الهند التي فتح الله عليها أبواب العذاب في  
الدنيا ! إذ أمسك زمام ملكها قوم لا يرقبون للإنسان إلا " ولا ذمة ، ولا يراعون  
للنمدن حقاً ولا حرمة ، يحسبون توحشهم تمدناً ، وظلمهم عدلاً ، وجورهم إنصافاً !  
ألا وهم الإنجليز .

قد علمتم ما هي الأمة الهندية من بعد الصيت في التجارة والصناعة . وطرق  
أذانكم ما جرى في وطنهم من الثورة . ولكنهم قوم تبكى عليهم العيون دماً ،  
وتنفطر لسوء حظهم الأكباد . فإن الأمة الإنجليزية قد مسكت الطريق على ثروتهم ،  
فأثرت بها نفسها ! أخرى في الهند الجمل الغفير من التجار الذين تضرب الأمثال بعظم  
تجارهم ، ولهم الشهرة العالية في رواج بضائعهم ، ومع ذلك فإنهم في بلادهم أقر  
من الزاهد البطال ، لأن حكومة الإنجليز في الهند تمر في آخر كل يوم ، فتأخذ  
من صاحب الحان أو الدكان ما عنده من النقود في البنك ، فإن أراد أن يشتري  
بضاعة يلزم بحكم القانون الإنجليزي الهندي أن الحكومة تتحقق جيداً من

---

(١) الحين ، الموت .

البضاعة التي يريد مشتراها ، ثم تكتب للتاجر تحويلا على البنك بالنقود فإن كان البائع هنديةً بقى المبلغ الذي به التحويل في البنك باسمه كما يقال وإن كان إنجليزياً قبض الثمن نقداً وهكذا . فأنت ترى أن ثروة أهل الهند بيد الإنجليز ، وليس للأهالي منها حظ ، لأنها محتكرة أموالهم ، وواضحة لها في سجن البنك تحت استعمالها كما كيف شامت . فأهل الهند بمنزلة المعتوه ، والحكومة الإنجليزية بمنزلة القيم ١١ وأما غير التجار وأرباب الصنائع فإن الإنجليز لا يستعملونهم إلا في ذوق الصناعة ، ولا يوظفونهم إلا في سافل الرتب ، ولكون الحكومة الإنجليزية لا تقدر أن تسوى الهنود بالعدل لعدم قدرتها عليه ، قد ضيقت عليهم أشد الضيق حتى إنها جعلت في كل حارة قره قولا وعلقت في كل قره قول سكيناً في سلسلة فن يرد أن يذبح فرخة أو يقطع لحماً أو يقرم بصلاً أو نحو ذلك بات إلى القره قول ، فيذبح أو يقطع أو يقرم هناك ، ولا يمكن أن أحداً منهم يكون له سكين مهما كانت ، ولا يخرج أحدهم من الهند أو يدخل منها إلا بأكبر المضايقات .

هذا حال الهنود من الإنجليز الذي أنهت أكبادهم بنار الشره قصد الاستيلاء على مصر — لا بلغهم الله ذلك .

فإن جبننا وتفرقت كلمتنا في المدافعة عن وطننا وعرضنا ، نالت من هذه الأمة الباغية مناها — أحرقتها الله بحسرة الخيبة في مقاصدها .

فيأبها الإنجليز — ما تريدون منا ؟ زعمتم إن مرادكم إصلاح حالتنا ، وأتم أسوأ الناس حالاً . هذه الأمة الأارلندية تنديها الإنسانية ، وتبكيها الرحمة ، ويتلطف عليها العدل ، ويتحسر عليها الإنصاف ، قد روت الأرض بعرق جيئنها ، وقلحتها بقوة يديها ففتحت أبواب النصب عليها ولم تكتسب لاسوء معاملتكم ، وعظيم تكبركم ؛ وبأس تجبركم ، وقد فاضت نفوسهم من عسفكم ، فقاموا لطلب الحرية التي بذلتهم جهنمكم في رياء السير فيها للأرقاء ، فركتم خروصكم مفتوحة وأنتم لإلينا مدعين السلم ، ومنادين الأمن وأقم أحرب من الحرب ، وأخين (١) من الخيانة . وقد هدتمونا وزعمتم أننا نهددكم .

---

(١) الصواب أخون ، لأن الفعل خان يخنون .

لا تطعموا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا  
الله يعلم أنا لا نحبكم ولا نلومكم ألا تحبونا

أطبقوا قم الشره عن مصرنا . فإنها باب الحرمين اللذين يبيع كل مسلم  
روحاً في المدافعة عنهما ، سيما وأن مصر تابعة لدولة لها ذكر عال بين الدول  
المعظمة . فلا يمكن أن تدعكم وشأنكم هذا . وأيضاً كل مسلم لا يترك لكم الميدان  
فسيحاً تهولون فيه كيف شئتم ، وهذه الأمة المصرية قد خنتموها ، وأطلقتكم كل  
خيانتكم على طوايبيها ، ومدنيتكم على غرة منهم حيث سودتم وجه التمدن بالفسخ ،  
فقتلتم إنا قوم مسالمون . وكان في ظنكم أنكم تسوقون المصريين بمدافعكم وتهدمون  
الإسكندرية وطوايبيها في مسافة أقل من الساعة . فما هي كللكم قد استمر  
إطلاقها فوق العشر ساعات . ومع ذلك فقد نزل على رؤوس مراكمكم القضاء ،  
وما استطعتم ولن تستطيعوا أن تبرزوا أمام المصريين في البر . فما أنتم إلا مثل  
السماك إن قدرتم على خيانة الإنسان في الماء تهشون لحمه ، فلا تطول حياتكم  
في محاربة البر .

ومع ذلك فإن لكم منا أحوالنا اتخذوكم أولياء ، وإنا ولينا الله ، فنعم المولى  
ونعم النصير . وحاشا لله أن يكون أعوانكم منا ، وإنما هم أناس ضل سعيهم في  
الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنماً ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

هذا نموذج من كلام صحف الثورة العراقية خارج ميدان الحرب . فانظر  
إلى قوة هذا النموذج في أوله كيف صاغه الكاتب صياغة حسنة من حيث الموسيقى  
ومن حيث المعنى في وقت معاً ، فقد بدأ بقوله :

إلى متى توقفتنا الحوادث ونحن رقود ؟ وحتام تدهمنا المصائب ونحن قعود ؟  
وكيف ينادينا العرض لنحميه ؟ فيجد آذاننا صماء ؟ أم كيف يشير إلينا الوطن  
لنحفظه من غوائل الطمع ، فيرى عيننا عمياء ؟ . . الخ .

وهكذا مضى المحرر في مثل هذه العبارات المثيرة يحرك فيها مكان الحمية  
من قلوب المصريين ، ويحمس فيها الحمم لقتال الإنجليز . ثم لم يقف صليمة

عند هذا الحد حتى أخذ يزرع في قلوب المصريين هذه الكراهية المرة والبغض الشديد للإنجليز ، ويفضح نواياهم الاستعمارية ، ويكشف عن أطماعهم السياسية ، ثم انظر كيف سلك المحرر سبيله إلى تخويف المصريين من حكم الإنجليز ، وكيف ضرب لهم مثلاً واضحاً بالهند ، وكيف صور هذه البلاد بصورة المعتوه لا يملك تصرفاً في ماله ولا في نفسه ، وإنما يتصرف فيهما غيره وهم الإنجليز .

ثم ضرب لهم مثلاً بالأمة الإيرلندية وكيف خدعهم الإنجليز عن أنفسهم وكيف حرّموا هذا الشعب من حريته ، وتظاهروا بالدفاع عن هذه الحرية .

وأخيراً يبلغ محرر المفيد غايته في إثارة بغض المصريين للإنجليز بقوله مثلاً بهذا الشعر :

لا تطعموا أن تهينونا ونكرمكم      وأن نسكف الأذى عنكم وتؤذونا  
الله يعلم أنا لا نحبكم      ولا نلومكم ألا تحبونا

## الفصل العاشر

### جريدة الأستاذ



عفا الخديوي عباس حلمي الثاني عن السيد عبد الله  
النديم ، فعاد إلى مصر وآلى على نفسه الدفاع  
عن الخديو الذي من عليه ، ونفذ إلى الميدان  
السياسي من هذه الثغرة ، وصال في هذا  
الميدان وجال ، مدافعاً عن الحركة الوطنية  
حيناً ، ومهاجماً الاحتلال الإنجليزي حيناً  
آخر . وكان غرضاً من أغراض هذه الصحيفة .  
ومن أجله كانت ( جريدة الأستاذ ) معرضاً  
كبيراً للأشعار التي مدح بها عباس الثاني  
ووزيره رياض ، فلم تكن تمر فرصة عيد  
جلوس أو عيد ميلاد أو عيد أضحي الح  
إلا وجريدة الأستاذ تنشر القصائد الطويلة .  
في مدح أمير البلاد والثناء عليه والدعاء له .

على أن هذا الغرض السياسي لم يكن أول أغراض ( الأستاذ ) بل كان غرضاً  
ثانوياً بالقياس إلى أهداف الجريدة الأساسية .

وهذه الأهداف هي : —

أولاً - الإصلاح الاجتماعي .

ثانياً - إصلاح التربية والتعليم .

ثالثاً - الدفاع عن الشرق ضد أوهم الغرب .

رابعاً - الحملة على المبشرين المسيحيين .



ولا ننسى أن نقول إن النديم آثم في مجلة الأستاذ ما بدأه في مجلة التشكيك والتبكيك من العناية بأمر اللغة العربية باعتبار أنها اللغة القومية ، فدعا إلى احترام هذه المادة في مناهج الدراسة ، بل دعا إلى المساواة بين مدرس اللغة العربية ومدرسي المواد الأخرى .

ونشر في مجلة الأستاذ ، مقالا لبعض المدرسين كتبته بعنوان ( المساواة بين البنين )<sup>(١)</sup> وجه فيه الحديث إلى نظارة المعارف وشبهها بالأب الكبير لجميع المعلمين وهذه الأبوة تفرض عليها المساواة بين الأبناء . وإلا فقد بذرت في قلوبهم بذور الحقد والشقاق ، قال الكاتب د . . . . فإن قال هأنا الذي قام بحقوق البنوة وقد رما حق قدرها ، فاعلى " إلا أن أقدم له ( مجلة العربي ) يئن بصوت حزين متمثلا بقول القائل :

وإذا نكون كريمة أدهى لها وإذا يحاس الخيئس يدعى جندب

. . . . يا أبيت — أنا يوسف وأنت يعقوب — فلا نكثرت بالمفسدين ، ولا يهولتك زخرفة المبطلين ، فإنهم أعداء لك ولأبنائك ، ويريدون أن ينزع الشيطان بينك وبينهم ، قتلاف بعزمك مكرم ، ورد عليهم كيدهم في نحرهم لتكون أنت وأبناؤك بمن وصلت سهامهم إلى أغراضهم قبلغوا غاية آمالهم .

فعلق النديم على هذا المقال بقوله :

( الأستاذ ) يا يوسف أنت في غيابة الجب ، وقد تسلى عنك يعقوب يهودا وشمعون وروبيل وبقية الأخوة الذين يصدون ويروحون أمامه ، فانتظر بعض السيارة يلتقطك ، لملك تنال العيش في صورة العبودية ، حتى ينتهي دور الاسترقاق ، وبعطف عليك الأمير العزيز لما يراه فيك من الأهلية إذ ذاك تقول : اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ أمين !!

وعاد النديم يدافع عن اللغة العربية في مقال له كبير بجريدة الأستاذ بعنوان

---

(١) مجلة الأستاذ العدد الخامس والمئرون بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٨٩٣ .

( مجتمع اللغة العربية بمصر ) (١) ذهب فيه إلى أن العربية تنفع لكل معنى وتؤدي كل غرض ، وناقش الكلمات التي أقر المجمع استعمالها ، فوافق على بعضها ولم يوافق على الآخر .

وما دمنا نتحدث عن إنصاف اللغة العربية ومدرس اللغة العربية ، فلنصف بإجمال جهود النديم في إصلاح التربية والتعليم ، من ذلك أنه فسح صدر جريدته لبحوث الثاقمين بشئون التعليم من أمثال علي باشا مبارك ، فحركة يتحدث عن التعليم في بروسيا وبقية الدول الأوروبية وتعرض صورة دقيقة من التربية في تلك البلاد وإحصاء أدق عن عدد المدارس والتلاميذ والكتب والحصص والمناهج وما إلى ذلك كله .

وكتب النديم بنفسه بحثاً أخرى في التعليم بالأزهر والتعليم بمدارس الحكومة ، وكانت هذه البحوث أشبه بلوائح تعليمية كذلك التي وضعها الأستاذ الإمام محمد عبده .

وفي مقالة عن الأزهر بعنوان ( العلماء والتعليم ) (٢) وهي مقالة طويلة ملأت أكثر من ست عشرة صحيفة من صفحات مجلة الأستاذ وصف النديم طريقة التعليم بالأزهر وصفاً يمتاز بالدقة ومطابقة الواقع ، وقدم في إصلاح الأزهر أربعة وعشرين اقتراحاً قياً ، عمله بها ولاية الأمر ولم يزالوا يعملون بها إلى اليوم .

أما التعليم بالمدارس الحكومية والمدارس التابعة للجمعيات ، فكتب عنه النديم بعض مقالات كان يعمم القول فيها حيناً ويخصصه حيناً ، ومن المقالات التي عجم فيها واحدة له بعنوان :

### رؤية الأبناء :

عرض فيها السكاكيب لطرائق التعليم عند الأوروبيين ، فإنهم الآن يحل محل الاختراع ومرجع الترتيب ، فالحسن ما حسنوه والقيح ما قبحوه ، والرواية إن لم تنته إليهم

(١) الأستاذ بتاريخ ٧ مارس سنة ١٨٩٣ .

(٢) مجلة الأستاذ العدد ٢٦ بتاريخ ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ .

فهي باطلة ، والنسبة إذا لم تتصل بهم فهي عاطلة . وهذا الذى لزمنا العدول عن البحث فى طرق تعليم الشرقيين إلى النظر فى طرقهم (١) .

وأبان النديم فى هذه المقالة كيف يحافظ التلاميذ على دينهم ولغتهم وتقاليدهم ، وكيف يمجدون عظماءهم ، ويقدمون ملوكهم ، ويحفظون تاريخهم ، وهذه التربية هى التى رفعت ممالك أوروبا إلى أوج السعادة والرفعة ، وانتهت بأعماها إلى سنام الملك .

وعجب النديم فى هذه المقالة كيف أن العلماء فى الشرق بعيدون كل البعد عن الاشتغال بالسياسة ، وكيف أنهم قصرُوا أنفسهم على العلوم الدينية ، فإذا عرض عليهم أمر سياسى أحجموا عن الخوض فيه لجمل طرده ، وإن تسكلموا فيه بالجرأة كان الخطأ أكثر من الصواب لعدم اشتغالهم بمثله ، ولهذا أهملهم الأمراء فى المجالس السياسية ، وأخذوا بأراء من هم دونهم فى الرتبة العلمية .

كما دعا النديم فى مقاله هذا إلى الإكثار من الجمعيات على نحو ما يفعل القوم فى أوروبا فإذا على أغنياء الشرق لو عقدوا الجمعيات الخيرية تحت حماية دولتهم ، وقتحوا بها المدارس الوطنية ، وعلموا فيها هذه المبادئ . تقليداً لأوروبا ، وساعدتهم الحكومة بحفظ مشروعاتهم من السقوط الخ .

على أنه من أجل التربية والتعليم كان النديم يبدل جهداً من نوع آخر وهو التمثيل — من ذلك أنه ألف رواية باسم ( الوطن ) الغرض منها الحث على التعاون على إنشاء المدارس العلمية والصناعية .

والخلاصة أن عناية النديم بشئون التربية والتعليم ، وتحمسه لهذه الأمور لا يقاس به إلا تحمس أديب إسحق للإصلاح النبائى فى مصر ، ولا فرق بينهما فى ذلك سوى أن أديب إسحق كان أكثر مرارة ، وأدنى إلى السخرية واللذع فى حين أن النديم كان فى مقالاته الجدية لا يصطنع السخرية ولا يميل إلى العنف .

\*\*\*

أما الإصلاح الاجتماعي فقد كان الغرض الأول من أغراض النديم في مجلة الأستاذ . ولذلك كتب فيه كثيراً بحيث لا يكاد عدد من أعداد هذه المجلة يخلو من بحث اجتماعي أو قد خلق . أو قصة لها هذا المغزى ، أو حوار له هذه الغاية .

فمرة يكتب مقالاً في محاربة الخرافات ، وأخرى يكتب مقالاً في انتقاد بعض العادات ، وفي ثالثة يبحث في موضوع الطرق الصوفية التي تهافت عليها المصريون ، وكانت جزءاً من حياتهم لا تستقيم الحياة نفسها بدونه .

والقارىء بجميع هذه المقالات يقع في روعه أن المصريين كانوا في تدهور خلق في القرن الماضي ، وأنهم كانوا إلى جانب ذلك مصابين بالجهل الذي حال بينهم وبين فهم الطرق الصوفية على الوجه الصحيح ، فاضطر السيد عبد الله النديم إلى كتابة البحوث الإضافية في هذا الموضوع الأخير ولم يسلك في ذلك طريق السخرية والتهكم كما كان يفعل أديب إسحق ، أو كما كان يفعل الأستاذ الإمام في بعض الأوقات (١) .

قال محرر الأستاذ :

« وليس القصد إبطال الطرق نفسها فإنها من أحسن طرق التعليم الديني ، والتربية الأدبية ، فإن الشيخ عندما يلقن المريـد لا إله إلا الله محمد رسول الله يشرح له معناه ، فيبين له صفات الله تعالى ، وما يجب له وما يستحيل عليه . وكذلك تجمعهم في الموالد ، فإنه مظهر ديني لم يتفق لغير المسلمين .

وفي مقال آخر بعنوان ( الطرق وإصلاحها ) استعرض النديم أقوال أصحاب الطرق أنفسهم ليعين الناس أنهم يصدون عن الخرافات التي وموهم بها . فأورد كلمة ( سيدى أحمد الرفاعى ) حيث قال : طريقتنا الكتاب والسنة ، وكلمة ( أبى بكر الشبلى ) حيث قال : المحبة اتباع أوامر المحبوب واجتناب نواهيه . وكلمة ( أبى القاسم السنومى ) : هذا طريق مبنى على الغيرة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلمة ( عمرو الزجاجى النيسابورى ) من انحرف عن جادة الظاهر فلا باطن له ، وكلمة ( جعفر الخواص البخداد ) من أخلص لله في المعاملة وطرح حب

الجاه والرفعة والتعالى . . حفظ الله تعالى لسانه من الشطحات وأراحه من الدعاوى الكاذبة . وهكذا حتى وصل إلى سادة الطرق في عصره ومنهم ( الشيخ المجري ) والسيد البكري ثم قال .

« وليكن في علم إخواننا المسلمين أن صاحب الساحة السيد البكري مستعد لإبطال هذه النحل والبدع . . والأستاذ الفاضل المجري مستعد كذلك لقبول كل مكانة ترد إلى ما يقوله الناس وينسبونه إليه ليظهر البراء منهم » .

وهكذا ملأ هذا البحث خمس عشر صفحة من مجلة ( الأستاذ ) فدلنا بذلك على أن أهل مصر في ذلك العصر كانوا بحاجة إلى مثل هذه البحوث المستفيضة لأنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم ، ولم يبتدوا فيها إلى الفهم الصحيح . أما أحاديث النديم في نقد العادات الضارة والأخلاق الموهجة فهي من نوع أحاديث القديمة في مجلة التنكيك والتبكيك تقريباً ، فلا داعي للإتيان بنموذج منها .

\* \* \*

وكان من أهداف جريدة الأستاذ كما قلنا الحملة الشديدة على المبشرين المسيحيين وقد انبثوا في أوروبا وفي الشرق ، واتهموا المسلمين بطائفة من التهم العريضة التي لا أساس لها . والنديم قطعة من العصر الذي عاش فيه وقد كان هذا العصر شديد الحس من ناحية الدين إلى درجة كبيرة . ولهذا وجدنا النديم يتصدى لهؤلاء المبشرين ويصلبهم ناراً حامية من ضرباته ويذهق نفوسهم بحملاته وهجماته ويكلف نفسه قراءة كتبهم حتى يتمكن من الرد على ما جاء بها من النزعات والأكاذيب ، والعجيب أنه سلك في كل ذلك طريق الإقناع والهدوء الذي لم يكن يفارقه إلا في أحوال قليلة ونادرة .

ومن أبلغ ما كتب النديم في هذا المعنى مقالته التي نشرها بمجلة الأستاذ تحت عنوان :

هَذَا عَنْكُمْ فَمَا مَقَابِرُ عَنْمَنَا

بدأ بقوله :

كثيراً ما ترمينا جرائد إنجلترا بالتعصب الديني تشويشاً لأذهان أهلها ، وترويجاً لأفكار سياسيتها التي تبغها المطامع . ولو تأملنا حال المسلمين وقابلنا بين

سكوتهم وعدم تعرضهم لدين غيرهم وبين سعى غيرهم في تنصيرهم ؛ لرأينا أمراً يذهل العقل كما يحير الأفكار بهذه الدعوى الباطلة فإننا لم نسمع أن مسلماً دخل أوروبا لدعوة أهلها للإسلام ، ولأن جمعية عقد لنشر دين الإسلام بين النصارى ، ولأن ناساً اجتمعوا للمذاكرة في كيفية إخراج النصارى من دينهم ، ولكننا نرى ونسمع هذا كله من أوروبا . ومع ذلك يقول عنا ذور المطامع الملكية إننا متعصبون نعصباً دينياً ، . . الخ .

ثم أتى المحرر بتقرير جمعية التوراه الإنجيلية الإنجليزية عن سنة ١٨٩٣ وفيه أن هذه الجمعية التي أسست سنة ١٩٠٤ بقصد نشر كلمة الله في الدنيا كلها . وقد صرفت إلى الآن أحد عشر مليوناً من الجنيهات في الترجمة وطبع الكتب ، المقدسة . . . الخ .

ثم قال النديم . : فهل هذا عمل المتساهلين مع غيرهم ، البعيدين عن التعرض لدين الغير ؟ أما هذا عمل المجدين في تعميم دينهم ومحو غيره ؟ وهل هؤلاء مع هذا الاجتهاد الغريب غير متعصبين ، والمسلمون مع بعدهم عن هذا كله ، وعدم وجود جمعيات للنشر دينهم كهذه يقال إنهم متعصبون ، سبحانه هذا بهتان عظيم .

ثم أتى المحرر على فصل من كتاب مبشر يدعى ( يوحنا هورى الألماني ) سماه ( الإسلام وتأثيره في تابعيه ) ، وهو إجابة عن هذا السؤال .

ما تأثير الدين الإسلامى في تابعيه . وما واجبات الأمم النصرانية نحو هذا الدين وتابعيه .

وللاجابة عن هذا السؤال قال المبشر ما ترجمته :

حيث أن الدين الإسلامى دين صحيح وأنه لا تأثير له في حياة تابعيه الدينية ولا على تقدمهم في العلوم ، ويستحيل إصلاحه ، فحينئذ يلزمنا أن نضع الدين النصرانى محله .

ورد النديم من جانبه على ذلك ، وبني رده على أخبار التاريخ وعلى رغبة فلان وفلان من كبار المسيحيين في الإسلام ، والشهادة له بأنه الدين القيم .

كما رد المحرر في هذا المقال على دعوى المبشرين بأن المسلمين لا يصلحون ،

ما داموا تحت حكم ملوكهم وسلاطينهم ، وأنهم لا يتقدمون ماداموا لا يتمصبون  
لدينهم ضد مواطنيهم من الأقباط والنصارى ، كما يتمصب المسيحيون في أوروبا ،  
إلى أن قال : فنقرأ هذا الفصل ، وعلم سعى الجمعيات في نشر دينها ، واجتهادها  
في تنصير المسلمين خصوصاً ، والعالم عموماً ، رأى الفرق بين لطف الشرقيين ،  
وخشونة قسوس الغربيين ، ولو كتب مسلم مثل هذا لقامت على المسلمين قيامة  
أوروبا ، وقالوا هذا دعاء للحرب الدينية ، وتعرض للدين المسيحي ، وسحبوا  
قناصلهم ونادوا بين أتباعهم المقيمين في الشرق بالرحيل . بدعوى فقد الأمن  
العام ، وتوحش المسلمين ، فنحن نسأل من ملأوا أعمدة ( التيمس ) وغيرها عن  
نسبة التعصب إلى المصريين خصوصاً ، والمسلمين عموماً ، هل رأوا المسلمين  
اجتمعوا لتغيير دين النصارى ليكونوا معهم ؟ أو تعرضوا لمسيحي بالمجادلة  
والمناظرة ؟ أو طعنوا في دين غيرهم وقالوا إن دين النصارى أو دين غيرهم غير  
صحيح ، فزعم أن يحمى كما قال يوحنا ؟ . نأق له إنهم لا يجدون لهذا السؤال جواباً  
سوى قولهم : إننا مفترون عليكم . انهبج أفكار أوروبا ضدكم ، فيحل لنا ما يحرمه  
الهدوء والسكون . . . إن كل مسلم ممنوع من التعصب بقول الله تعالى : « لا إكراه  
في الدين ، وإذا قابل المخالفين له هش وبش وقال : « لكم دينكم ولي دين » فإن  
عارضه متعصب أجني ذكر له أفعال الجمعيات البروتستانتية وغيرها ، وقال له :  
هذا عندكم فما مقابله عندنا ، وملا هذا المقال أكثر من خمس عشرة صفحة ، من  
مجلة الأستاذ .

هكذا كان النديم ليناً في محاربة المبشرين المسيحيين ، بحيث لم يؤذ نفوس  
الأقباط المصريين ، بل أنه كان من دعاة الوحدة والارتباط بين المسلمين والأقباط  
إلى درجة أنه اقترح أن تعقد جمعية مصرية موضوعها البحث في الوطن وخصائصه  
وواجباته ومقومات حياته ، وذلك في مقال جميل بعنوان : ( المسلمون  
والأقباط<sup>(١)</sup> ) .

ولم يسبقه أحد إلى هذه الفكرة الوطنية البحتة .

## الفصل الحادى عشر

### قضية الشرق والغرب فى صحيفة الأستاذ

بقى أن نتحدث عن غرض آخر من أغراض مجلة الأستاذ ، وهو الدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب واستنهاض الشرق نفسه ليستيقظ من نومه ويلحق بالغرب الذى سبقه أشواطاً بعيدة فى الحضارة والتقدم . وهنا نجد أن النديم يهود أسلوبه ، وتشيع فيه الحاسة ، ويدت فيه الحركة ، ويشعر القارىء بأنه مصارع قوى إنما قذف بنفسه فى ميدان كله أبطال أقوياء ، وصمم فى نفسه مع ذلك أن يخرج منصوراً من المعركة .

إلى هنا نجد المحرر يلبس ثوب الخطيب . ويتدفق فى كلامه تدفقاً يناسب الخطابة أكثر مما يناسب الصحافة . وإن كانت الصحافة ذاتها تؤثر الأسلوب الخطابى فى أكثر الأحيان .

على أن النديم لم تذهب به حماسه بعيداً عن هذا المضمار . لأنه إنما يكتب فى مجلة الأستاذ ، وهذه المجلة الأخيرة إنما تشهد كهولة النديم ، كما تشهد هدوؤه عقب حوادث الثورة العرابية . وعقب اختفائه نحو عشر سنوات ، وعقب استقرار الأمور فى مصر استقراراً نسبياً على كل حال ، لذلك نراه ينجح فى هذه المقالات الجانحة إلى السلم ، ويدعو إلى المحبة والوثام قراء يقول فى مقال له بعنوان :

#### مهرب الأفراسم بجيوش الأوهام (١)

فلو ترك الشرقيون والأوربيون لتمتع الفريقان بشجرة المخالطة ، وتمسكت منهما دواعى المحبة ، وتأكدت روابط الألفة بالاشتراك فى المعاملة والمساكنة . وما أوغر الصدور وأفسد النيات إلا هؤلاء السكتاب الذين قبحوا الشرق



والغرب وافترؤا عليه الأكاذيب . وملثوا با جرائمهم وكتبهم ، ونشروها بين العالمين الشرق والغرب ، فظن الغربي أن الشرق بهم لا يصلح للملك ، ولا يليق إلا للاستعباد والقهر ، ظن الشرق أن الغربي أعدوه الألد الساعى فى سب سلطته ، ونهب ثروته ، وإعدام دينه واستعباد إخوانه ، ف وقعت النفرة بهذه المفتريات وختم المقال بقوله :

فنهذرو إخواننا الشرقيين من مقاربة المضلين ومخاطبتهم . وتطلب منهم أن يقرأوا عواقب ما هم فيه من الشدة ، وينظروا إلى المستقبل بعين البصراء الذين لا تزعزعهم العواصف ؛ ولا تستميلهم الأباطيل ، وأن يجعلوا معاملة الأجنبي بالمعروف ومخاطبته بالمثل نصب أعينهم ، مع التزام الهدوء ، والسكون ، وعدم الميل إلى الأوهام وما ينصبه الأعداء من إشراك الهيجان والاضطراب . فإنهم إن لموا هذه الحالة قاموا كل تهديد ووعيد ، وأظهروا لأوربا أنهم بقصدهم وحسن تصرفهم فى الأمور قد قاموا بقوة مدنيهم ( حرب الأقاليم بجيوش الأوهام ) .

وليأذن لنا القارئ أن ننقل له نموذجاً كاملاً من مقالات النديم فى هذا الغرض الأخير من أغراضه فى مجلة الأستاذ ، وليكن مقالاً له بعنوان :

### لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا

هى كلمة أوروبا التى ترددها على ألسنا الشرقيين كلما فعلت فعلاً يجهلها عليه الاستعمار الملكى ، أو الانتشار الدينى ، وقد أحكت التأليف بين القوتين الدينية والملكية ، فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد وقد أضاف كل ملك أوربى إلى عنوان الملك حماية الدين ، فيقول فى مخاطباته ملك أو إمبراطور كذا وحامى الدين المسيحى ، أو عبارة أشد وقعاً فى النفوس من هذه . لعلم الأمم أنه القابض على زمام السياسة والدين ، فيؤيد رجال السياسة بتنفيذ ما يرونه من لوازم تأييد الملك وأتباعه ، ويساعد رجال الدين بما يبعث فيهم الغيرة على بثه والدعوة إليه ، فىرى رجال القوى ماشين على نسق واحد ، كل فيما فوض إليه ، لا تفتر لهم همة ، ولا ترقد لهم عين عن وظائفهم التى فيها حياة الدين والملك وزيادة شرف الأمم . والأمم لسكونهم أدركوا ما قصده الملوك ورجال السياسة وخدمة ( م ١٢ - أدب المقالة ٢ )

الدين اندفعوا معهم اندفاع السيل في المنحدرات ، فمقدوا الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية والتجارية والزراعية والسياسية وأخذ كل فريق في إحسان ما كلف به نفسه وأوجبه عليه مجارة جاره في الملك ، ومباراة نظيره في العلم أو العمل ، ومسابقة غيره من قصدوا قصده ، فاشتغلوا بما اشتغل به . وقد بلغوا القصد في بلادهم ، وخرجوا من بلادهم محمولين على قوتي الدين والملك ، سائرين على نور العلم والصناعة ، فدخلوا الأقطار الشرقية سائحين ومتجرين واستوطنوها مراقبين ومتغلبين ، وجراندتهم الكثيرة العدد برزت تتسابق في ميادين الإنشاء ، وبواضع مبتكرة ومقالات مطولة وعبارات مزينة ، فأصبحت نافذة للأخبار ناشرة للأدب معلمة للعلوم مؤيدة للمبادئ حاثثة على المقاصد منشطة للهمم مرشدة للأمم منبهة على الأغاليط محذرة من التقاعد والتكاسل والغفلة عن وثبة الجار أو معاكسة المتأخرين ناشرة للفضائل مؤرخة لرجال الفضل والعمل حافظة لسير الملوك داعية أفراد الأمم إلى ما فيه خير البلاد وتأييد الدين حادعة للشرقيين لاعبة بأفكار رجالهم خاتلة لمظالمهم مقبحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة واتناء وصناعة وتجارة وزراعة منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل لأحياء للأمم إلا بما تأخذه عنه ولا يجد لمن لم يتم إليه ، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه ، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بمبادئه ويتقيد بعاداته هذه كليات تحتاج لبيان جزئياتها التي لا تحتاج لبرهان بعد ظهورها للعيان .

قالت أوروبا إنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الآثاث واللباس وأنكم في حاجة إلى مصنوعنا ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها في الشرق ، لتحول الثروة إليها فأمانت ما كان يصنعه الشرقيون ، وحجرت على مالا يد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها ، فما يصنع في الهند والصين والعجم والأناضول وغيره إنما ينفق ويباع على يد الأوروبي كما يباع وينفق مصنوع بلاده ، فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوروبا ، ويعظموا ثروتها ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية فلا حظ لهم في الوجود ولا رغبة لهم في الملك . كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لبقاعدهم عن مجارة أهلها وما زادهم بعداً عن الصناعة وثمراتها وجود دخلاء أجراء يزعمون أنهم نصحاء يثبطون الهمم ويرمونهم بالضعف ، ويوهمونهم بعدم صلاح

بلادهم للصناعة ويغرونهم بتعذر ذلك لتعدد المعدات والآلات وهم يعلمون أن كثيراً من الممالك التي لا آلات فيها استعانت بآلات اشترتها من الغير وأحيث صناعتها الوطنية وحثمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها ومنعت دخول مصنوع الغير حفظاً لثروة أهلها فهم بصرفهم الهمم بهذه الترهات يريدون بقاء الشرق في قبضة الغربي احتياجاً إليه وترك الشرق ميداناً لمسابقة رجال أوروبا فلا يجدون مصنوعاً يعطل عليهم ولا معرضاً عن صناعتهم فتبور . وضعفاء العقول يقترون بخداع هذا الدخيل ، ويطنون أنه من المخلصين ، فلا يتحركون لعمل من الأعمال لوقوعهم في اليأس والقنوط بالمفتريات ، ورجال أوروبا تتعجب من تقاعدهم ويقول لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا .

قالت أوروبا إن وقوفكم عند عاداتكم الشرقية وتخليصكم بأخلاق آبائكم بقاء على الحمجية والتوحش فلا بد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية لتساونا في الرتبة وقنعت لنا البهر والخمارات والمقامر وأباحث الزنا والربا ووسعت دائرة اللهو والخسران ففعل الشرقيون عما وراء ذلك ضياع الدين والملك والمجد والشرف وانكسب الأغنياء والمغفلون على الخور فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم وفسدت عقائدهم وتحولوا إلى المومسات ، فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرم ، والمار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش . وجعلهم عرضة للأجنبي بعدم غيرتهم عليها ، فهم في رتبة القواد بل هم هم ، ومال فريق إلى القمار ، فباع النيط والدار ، واضطر لبيع حلى زوجته برضاها أو بسرقة منها والكل عطف على المرايين يقترض ويعصرف في الملامى ومتلفات العقل والجسم والملك حتى أسكن الأوربي مكانه وصار له خادماً بعد أن كان عظيماً محترماً ، وكلما تمالك الشرقيون على الخور واللامى واصلت أوروبا رسائل الخمر ، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملامى ، تحويلاً للثروة وإزهاقاً لروح الدين حتى أصبح المتلبسون بهذه القبايع والفصائح لاشرقين ولا غربيين ، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة ، إذ لو كان الانغماس في الملامى ومفسدات العقل والدين من المدنية لما تباشته أوروبا وعدت مرتكبه همجياً جاهلاً ومجنوناً ولما وضعت القوانين الشديدة

للمسكرات ومنع التلازمة منها ولما كتبت الر - ثل العديدة في ذم الخمر والفسوق  
وحمران ضعفاء العقيدة والمتقاعدين على العبادة وحضور الكنائس وإنما هذه  
أشراك وخفاخ تنصب في طريق الشرق حتى لا يخطو خطوة إلا وقد وقع في حباله  
أوربا ولما رأت أوربا أن الشرقيين لا يفتبهون من غفلتهم ولا يعقلون ، مقاصد  
الدول ، ولا يدركون مكاييد الملوك ، ولا يسعون في صالح بلادهم ، ولا يحافظون  
على دينهم ، ولا يعرفون شرف لغاتهم ، ولا يحفظون كرامى ملوكهم ، ولا يهتمهم  
ضياح أوطانهم اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء . وهى تقول لهم لو كنتم مثلنا  
لفعلتم فعلنا .

قالت أوربا أن الشرق في حاجة لتدخل أوربا لإصلاح إدارته وماليتها  
وتجارته وتهذيب أممه بالتعاليم الأوروبية وأجمع رجال أوربا على جعله نسبا مقابلا  
لها وربطوا عزمهم على ضمه لإلهم الجزء بعد الجزء ، والقطعة بعد القطعة على اتفاق  
معقود بين الدول ، هذا لى وهذا لك ، ثم تلوا في الدخول فيه تلوى الألفى ،  
ولمكوا بعضه بالتجارة والبذل ، وبعضه بدعوى مسحق دولة . أولاهاته بواب  
فنصل أو حفظا لطريق ملكة والداهية الداهية أن ملوك الشرق وعظماء ملثوا  
قلوب أمهم بأوهام ، وخوفهم من الأوربي ، وأرهبهم باسم اللورد والبارون  
والكونت والمركيز والجنرال والأميرال والسير والمساجور ، حتى خيلوا لهم أن  
الأوربي ملك يمكنه قلب المملكة ، أو حتى يقدر على حرقها ، فامتلأوا رعبا وخوفا ،  
ولبسوا ثوب ذل وهوان ، وذلك بسبب المعاملة التى يعاملونهم بها في وقائهم مع  
الأوربيين ، وقد اضطروا كثيراً من الوجهاء والنبهاء الذين يفتخ بهم الوطن  
والملك إلى الاحتماء بالغير تفادياً من تلك المعاملة فسكانوا أقوى يد للأوربي في  
تدخاله واستيلائه على ممالكهم . فلوربوا رجالهم على الخاسة ومرنومهم على الأعمال ،  
وبعثوا فيهم روح الخمية بالمحافظة على حقوقهم وترقيتهم بحسب استعدادهم وساعدوم  
على انتشار الصناعة والتجارة ، وهذبوم بالأدبيات ، وصانوم من المفاصد  
العقلية ، وعلومهم العقائد الدينية . وعودوم على الشعائر المليية ، ونهبوم بجرائد  
وطنية صادقة اللهجة صافية النية عارقة بما يقدمهم وينفعهم ، وأوقفوم على

تواريخ آبايهم ، ومسابقات الدول في بلادهم ودسائس أوروبا ، وخندروهم مزرعهم  
الفنن والآجرا الذين يخدمون أوروبا باسم المصلحة الشرقية ، لوجدوا أمامهم  
رجالاً وأى رجال ، ولكنهم أهملوا أعمالهم وأهدروا حقوق رعاياهم فأصبح  
ملوك أوروبا يفخرون عليهم ويعيرونهم بما صاروا إليه من الضعف والاضمحلال  
ويقولون لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا .

ولا لوم على الأوروبيين في ذلك ، فإنهم إنما يسعون في مصالحهم واتساع  
ممالكهم وتجارتهم ، والشرقيون يرونهم يعملون للأعمال العظيمة في بلادهم ، وهم  
ينظرون إليهم نظر المغشى عليه من الموت ، ولا يتحركون لجاراتهم أو لإيقاف  
تيار تداخلهم ، ويرونهم يسلبون أعمال أمراتهم وولائهم عملاً فعملاً ، وهم  
ناكسو الروس ، ومنكشون في ثيابهم ، تسمع منهم أصواتاً عالية في خلواتهم ،  
يظنها السامع أصوات أناس حريصين على المجد والشرف ، فإذا خرجوا إلى  
الطرق ساقهم أضعف أورق بعصاه ، وهم بين يديه كأنهم قطعان الأغنام تساق  
إلى الحظائر . بمن قسيس الجزائر إذا شاركه التونسي والهندي والمصري والقبرصي  
والعدي والمسطي والزنجباري والبرنوي والبخاري والمروي والطاغستاني والتركاني  
والسرخسي وقابله المراكشي والأفغاني برعدة الخائف الوجمل ونظر إليه المجمعى  
والعراقي والبنفي والحجازي والنجدي والسوري والطرابلسي والأناضولي نظر  
المتوجس الخذر الذي تبعه الهمة ، وتقعده القلة كلما شئوا راحة السلم من دولة  
جاءهم لمذار الحرب من أخرى سعيًا خلف الدين ، لا طلباً لسعة الملك .

فانه لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول  
الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة ، ولكن المغايرة الدينية ، وسعى  
أوروبا في تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيراً من ممالك  
الدولة بالاستقلال أو الابتلاع . ولنا نرى كثيراً من المغفلين الذين حكمتهم  
قوا بلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر ، وسوء  
الإدارة ، وقسوة الحكام ، ولو أنصفوها لقالوا أنها أعظم الدول ثباتاً وأحسنها  
تبصراً وأقواها عزيمه ، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني ، لأنها دولة

واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات ، والفن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهباً أو يقرب منهم جنساً ، وكل دولة طامعة فى قطعة تحتها باسم المحافظة على حدودها ، أو وقاية دينها ، واتساع أراضيها ، وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للنقل والتحول وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان فى غالب أراضيها ووجودها تحت رحمة الله تعالى إن شاء أمطرها فأخصبت ، أو منعها فأجدبت ، وهذه لو ابتليت بها أعظم دولة أوربية ما قاومت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى ولكننا نلتم على إعطاء السكك الحديدية التزاماً للأوربيين بواسطة أناس يزعمون أنهم من رعايتها ظاهراً وهم فرنسيون أو إنكليز باطنا فإن السكك الحديدية بالنسبة إلى المملكة كالشرايين بالنسبة إلى الجسم ، فهى من أعظم العلل التى ستأخذها أوروبا وسيلة للتدخل باسم وقاية أملاك أتباعها ومن لنا بكفى يد الوزراء عن مثل هذا التهاون ، ويكفى ما جرى وما ذهب منا سدى ، فإن ارتكنا على الشروط فقد ارتكنا على أو هن من العنكبوت ، فإننا لم نقدر على تنفيذ عهدة برلين فيما يختص بنا وقد وقع عليها الدول ، فكيف ننفذ شروطاً بيننا وبين رجال جعلتهم الدول ذرائع للتدخل ، ووسائل لاسوء المقاصد . ولقد أذهمتنا أعمال أوروبا التى لم تسمح لشرق بامتلاك شبر فى أرضها ، وهى تخرجنا من مساكننا ، وتقيم فيها بلا شروط معقودة ، ولا حجة مسجلة ، ولكننا معذورة ، فإنها لم تجد من يعارضها أو يجارها فهى لا تعترف أننا معها فى ثوب الإنسانية بل تقول لو كنتم مثلنا لفعلم فعلنا .

أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلداً شرقياً باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبت المديونية ، وتنادى أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد ، ثم تأخذ فى تغيير الإثنين شيئاً فشيئاً ، فلا تقدم على العمل بل تفعل الشيء على قبل التجربة ، فإن نفذ فقد مضى ، وإن عورضت فيه التزم التأويل ، كما فعلت فرنسا فى الجزائر وتونس ، حيث سنت لهم قانوناً فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامى ، بل تنسخ مقابلها من أحكامه ، ونشرته فى البلاد ، واتخذت لتنفيذه

فضاء ترضاهم ، ولما لم تجد معارضا أخذت تحول كثيراً من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام توسيعاً لنطاق النسخ الديني ، ولم يلبث أن جاريناه وأخذنا بقانون يشبه إن لم يكن هو ، ولم يتطمح في إصلاح مواده المخالفة عزوان ، ثم تداخلت في الأوقاف واستولت على غلاتها ومنعت المستحقين ، وطردت كثيراً من خدمة المساجد اقتصاداً مالياً ، وتخفيفاً دينياً ، ثم رفضت ضباط العساكر الوطنيين الكبار واستبدلتهم برجالها خوفاً من ثورة يدفعونها بها عن بلادهم ، أو يحمون بها دينهم ، ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية ، وأزمتهم بتعليم لغتها ، والأخذ بالطبيعيات والرياضيات ، حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين لئلا يعلوا أنهم يغيرونهم ديناً ، فيثورون عليهم ، أو يلتجئون إلى دولة أخرى ، وهذه عواقب الالتجاء إلى دول أوربا والاعتزاز بعودها الخلبية ، وشروطها المكتوبة بالماء على صفحة الهواء ، وهذه دولة روسيا دخلت مرو وهراة ونجاري باسم حمايتها من أعدائها ، وبعثت إليها بتجارها فنفذت ، ثم رجال يساكنون أهلها فضوا ، ثم بساكر في الحدود فأقاموا ، ثم بشروط تربطها بها فأمضيت ، ثم هي آخذة في تقدم لغتها هناك توصلنا لإعدام اللغات التي يموت بهوتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية ، وهذه إنكلترا دخلت مصر باستدعاء أهلها ، وأخذهم بناصرها ، بعة تأييد المركز الخديوي الشريف ، ثم زيد على تلك العلة بث النظام ، ووضع حكومة ثابتة تشابه حكومات أوربا ، وقد بذلت ما في وسعها في التحسين والتنظيم بما يترامى لها ، ولم تجد غير آذان سامعة وأيد عاملة ، ولكننا مع كثرة سماعنا وتعليمها لنا لم نقلدها في شيء مما دخلت لبثه فينا ، بل تركناها تفعل أفعالها ونحن نتفرج عليها ، كأننا في ساحة سبواي يرينا من أعماله العجائب ، ونحن في حيرة من ألعابه المدهشة ، ومن جهل أعمال إنكلترا في مصر يفتنها له ليرى أنه حقيق بما يوجهه إليها من التكري .

أولاً : أطلقت حرية المطبوعات والأفكار ، قرأنا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد وتتصرف في أفكارها كيف تشاء . هذه تقول أنا وطنية أناذى بأن

خير البلاد وصلاحيها موقوف على جمل الأعمال بيد المصريين ، تحوطهم عناية الحضرة الخديوية ، تحت مراقبة بريطانيا العظمى ، حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ ، وقت وعدما وأجلت جندها ، وتركتم يتمتعون بحريتهم في بلادهم ، كما تتمتع البلغار والجبل الأسود والسرب وغيره مما هو أقل من مصر بكثير ، والأمة مرتاحة لها . وهذا قول مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الإنكليز ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء حتى يتبأ المصريون لاستلام أعمالهم ؛ لا تبالى رضى عنها المصريون أو غضبوا منها . وهذه تقول إن فرنسا هي الدولة الوحيدة في المحافظة على مصر ، وحقوق السلطان فيها ، وتأييد الخديوى ، ولا يضرها إلا وجود الإنكليز فيها . وهذه مذنبذة لا إلى هؤلاء . ولا إلى هؤلاء . وهذه عليه تهذب النفوس وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان ما يوقعم في الشك والتردد ، وهذه دينية وهذه حقوقية وهذه طيبة . ثم تركت المصريين يقدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ، لارقيب عليهم ولا جاسوس ، ولما رأيت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبههم على طلب حقوقهم وظهورهم أمامها بالنظواهرات الأدبية استدلالا على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم وتركوا الجرائد تخوض في المواضيع المضادة وتلعب بالآفسكار الجامدة ، ونحن في بحار اللهو غارقون .

ثانياً : أنها كفت يدها عن الأعمال عند دخولها مصر ، وسلتها إلى المصريين ظاهراً لتقيم الأدلة لأوربا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين ، ونشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول ، ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطناً بحصر السلطة في الذات الخديوية الفخيمة . والإدارات في الوطنيين ، أخذت تقول وهم يفعلون حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون ، وكانت تتق باسمهم المطاعن الأوروبية ، حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع في الخداع ، وهم غير محقين ، فإنها ما دخلت إلا لتعمل عملاً أمام أوربا ، فلما فوضوا إليها الأعمال استسلمتها بهمة ونشاط ، ومثلها ومثلهم كمثل لهن دخل دار قوم ، وقال



لهم حملوني ما عندكم من أثاث وحلى وآنية ، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة ، فهل إذا دخل عليه البوايس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص ؟ كلا بل يقول إنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه ، أيرون أن الإنكليز هم الذين نشروا مفشور المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن البغاء تحت حماية القانون ، أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاءهن شهادات بأنهن صالحات للزنا . فمتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى في كل كتاب . أم هل قالوا للمصريين سنتفق ملاين في المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نسأل عما تفعل فيها ، فأياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيداً مكلفين بسدادها إلى روتشلد وغيره . أم هم الذين أعطوا الالتزامات الواهبورية والأرضية ، ووسعوا نطاق المعاهدات إلى أن ضيقوا كل عمل مصرى ؟ أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء ؟ أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن ، وربما أعطوا من أخذها شيئاً يستعين به على نقلها حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالمصا أو بالنبوت ؟ أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة . وحشروا الغرباء في المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلاً ؟ أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين في مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها ، وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن يذبح في الإنكليزية لنفسى لغة القرآن فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا ، كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شورايم ؟ لا والله ما نالوا أملاً ولا قارفوا عملاً ولا أذلوا رجلاً ولا خربوا بيتاً ولا هتكوا حرمة إلا بالمصريين . ماذا على الإنكليز إذا سعوا في ربح تجارتهم واستخدام أبنائهم ، ولم يجدوا عائقاً ، يرجعون وهم لهذا مرتحلون ؟ ومن يلومهم إذا وجدوا طريقاً لتوسيع ممالكهم لا خوف فيه ولا عقبات أتركونه وهم في جميع بلاد الدنيا طامعون ؟ كانوا يرون أن المصريين إذا رأوا دولة حرة دخلت بلادهم لتأييد خدوئهم وإصلاح بلادهم ، وتعريفهم حقوقهم بين الأمم ، تجمعوا حول

أميرهم حاملين كرسى نظامه على رؤوسهم منادين باسمه . قائمين بتنفيذ أوامره  
محافظين على حقوقه ، مستميتين في اختصاصهم بأعمالهم ، والقيام بشعائر دينهم ،  
بجتهدين في حفظ الأمن وخدمة البلاد ، حافظين لحقوق الأجانب والغريباء ، النزلاء  
والمجتازين ، جاعلين محافلهم التي استخدمتها أوروبا في مصالحها محافل وطنية ،  
تستخدم أوروبا مصالحهم فكانت تساعدهم على هذه الأمور التي تعهدت لأوروبا  
أن تعلمها للمصريين ، وتؤهلهم إليها ، ولكنها رأت غير ماظنت ، فلأولم عليها  
إذا وضعت قدمها على عمامتنا لتعلمو جواد الفخر والخيلاء .

لماذا نتألم من أعمالها وأمرأونا اقتصروا على العقود في القصور وركوب  
العربات لتتفسح في المنتزهات ، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت  
استصراخ ، وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون ، ونهبأؤنا في  
المحافل يتحاورون ويتناظرون ، بما لا يفيد الوطن والملك شيئا متعللين بأن محافلهم  
لا تتعرض للسياسة ولا للدين فإذا انصرف النبهاء عن وجهى السياسة والدين  
فبمن تقوم الأعمال ويتقوم أود الحكومة ويبقى عمود الدين قائما كبقية  
الأديان؟ أبا لأعاء الذى ربطناه بين الأجنبي نتخلى عن مرجع المجد وأصل الشرف؟  
وهل تريد أوروبا أن تقتصر علينا في حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن  
النظر في الملك والدين ، ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء ؟ مع أن  
النبهاء يمكنهم أن يستخدموا محافلهم في مصالح بلادهم فيتمسكنوا بقوام العقيلة  
عما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع من غير إثارة قتنة أو إراقة قطرة دم ، ويصلحون  
ما أفسده الاغترار والانخداع ويحدثون في البلاد عصبية وطنية لا تردما أعظم أمة  
عن مشربها المصرى وسعيها المؤيد بربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة . وما  
الذى استفاده النبهاء المصريون من الأخلاط والأمشاج ، غير تقدم الغير وتأخرهم  
واتخاذنا بيت مال لفقرائهم وعجائزهم ؟ دعونا من الجحالة في الكلام والتستر بما  
استهجنه العقلاء ، ما ابتدعت المحافل إلا لتصير الممالك دستورية ، وقد نجحت في  
ذلك وقلبت كثيرا من ممالك أوروبا ، وحيث أننا بين يدي حكومة دستورية فلم لم  
نؤيدها بعصبية وطنية ونظهر من أعمالنا ما تقتخر به إنكسرة أمام أوروبا ؟

ولافان بقي الأمراء في البيوت والنهباء في المحافل على ما هم عليه ، والعقلاء صامتين ، والضعفاء طائرين حول أو هام الأجنبي وإرهابه ، والخطيوي الأعظم ينظر إلى هذه الجموع نظر الأب الرحيم إلى الأبناء العاقين ، فلا نعترض على برابرة أفريقية فضلاً عن الإنكليز إذا جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلتنا وتمتعوا بما نخلفه لهم من عرض ومال ومتاع وعقار معذت والله أيام التقاعد والاعتزال بالترهات ، وصرنا بين يدي خطيوي يريد أن نجاري الإنكليز في الأعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية ونحن عن إرادته السنية ساهون ويجب أن نتقدم في التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ونقبض على أزمة أمورنا ونحفظ عرشه المصري بالمصريين ولسكننا على نظره العالي عمون يتألم من ضياع المصري والاستخفاف به وتركه في زوايا الإهمال أكثر من تألم المبعدين ولو أحسننا بما عنده من الآلام لبئنا لمضاجعنا جافين إن أوروبا تنظرنا من بعيد ترى أعمالنا وما تنقلب فيه من الأحوال وما تهدينا إليه إنكثارة مما تؤيد به الخطيوي الأنظم كمنشورها التداخل ونحن عن هذا كله لاهون . كفوا أيها المصريون عن القيل والقال ، فقد عيرتنا الأمم بأننا نقول ولا نفعل وأظهروا بين يدي إنكثارة رجال يسرها تجمعهم حول أميرهم الذي جاءت تؤيده ، واطلبوا منه حقوقكم المقدسة واشكروا إنكثارة على ما أوصلتكم إليه من الحرية التي تركتكم تتظاهرون تظاهراً أدبياً طلباً للحقوق وسعيّاً خلف الحقائق والامتيازات الوطنية ، فإن كل إنكليزي يراكم في هذا التقاعد وهو يدأب في عمله الليل والنهار يقول لو كنتم مثلاً لفعلمتم فعلنا » انتهى المقال .

### تحليل المقال :

يمكن أن تتلخص الملاحظات على هذا المقال فيما يلي :

أولاً : شغلت المقدمة نحواً من ثلاثين سطراً أو تزيد ، وهو قدر بسيط ومعقول بالنسبة لطول المقال نفسه ، وفي المقدمة شرح ذكر لهذه الكلمة التي جعلها عنوان المقال . لو كنتم مثلاً لفعلمتم فعلنا ) ، ثم شرح السبب الأول من أسباب ذلك .

وهو نشاط الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية المنسوبة إلى الأوروبيين وانتشار هذه الجمعيات في ربوع الشرق .

ثانياً . يبدأ الجزء الأول من صلب المقال بالرد على التهمة الأولى من تهم أوروبا ضد الشرق ، وهي ( تهمة التوحش ) أو ( التأخر ) ودعواهم أن الشرقيين عاجزون عن السير في مضمار الصناعة والعلم ، ويرد الكاتب على ذلك بأن الأوروبيين هم الذين أرادوا ذلك للشرق حتى يصبح مصرفاً لبضائعهم .

ثالثاً : يبدأ الجزء الثاني من صلب المقال بالرد على التهمة الثانية ، وهي أن أخلاق الشرق وعقيدته هما من أسباب تأخره . ومع ذلك فقد انخدع الشرقيون بقولهم هذا ، فارتكبوا كثيراً من المحرمات تقليد منهم للأوروبيين لا أكثر ولا أقل . . .

وفي هذا يقول النديم :

وبذلك أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين  
ص ١٩٠ ، « واتخذتم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق الخ ،

رابعاً : يبدأ الجزء الثالث من صلب المقال بالرد على التهمة الثالثة وهي ( أن الشرق في حاجة ماسة إلى تدخل الغرب ) وهي حجة تدرج بها الغرب لاستعمار الشرق ويوضح كيف أن ملوك الشرق أنفسم خوفاً الناس من اللورد والبارون والكونت النخ ، ولم يحاولوا ترقية الأمة وتربيتها على الحمية والدفاع عن حقوق البلاد ولم يعدوها بالجرائد النافعة أو المرشدة في هذا السبيل وأخذ النديم يوازن في هذه الفقرة بين جسارة الأوروبي وتحريره المصاحبة الذاتية له ولبلاده من جهة ، وجبن الشرق وتخوفه من الخطر الأوروبي من جهة ثانية .

خامساً . وفي الجزء الرابع من صلب المقال ينتقل الكاتب إلى الدفاع عن الدولة العثمانية فيقول « لو كانت هذه الدولة مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر الخ آخر ص ١٩٢ ، ولكن المغايرة الدينية دعت إلى إخراج كثير من الممالك التابعة لها عن طاعتها . مع أن الدولة العثمانية لا تألوا جهداً عن العمل على رخاء هذه

المالك ومد السكك الحديدية . وهنا يلوم الكاتب الدولة العثمانية على إعطاء السكك الحديدية التزاماً للأوروبيين الذين وجدوا في ذلك الالتزام طريقة من طرق التدخل في أمم الشرق ١١١

سادساً : عاد النديم فشرح أساليب الأوروبيين في الاستيلاء على الشرق بدعوى الإصلاح مرة ونشر المدنية مرة أخرى ، كما فعلت فرنسا بتونس والجزائر وسياستها فيهما معروفة . وكما فعلت كل من روسيا وإنجلترا .

سابعاً : وحين وصل النديم إلى إنسكارة أخذ يفضح أعمالها في مصر وذلك في شتى المجالات المختلفة . كجبال حرية الصحافة وكيف اتخذت من هذه الظاهرة أداة للتطاحن بين الصحف ، وهي أي إنكارة تقف كالمتفرجة وكجبال الإدارة الحكومية فقد تظاهر الإنجليز بالكف عن التدخل منها حتى أمنوا الاعتراض ، فتدخلت بشكل ظاهر ، وبرضى من المصريين أنفسهم حكاية اللص ( ص ١٩٧ .

وبعد أن ألقى النديم على القارىء أسئلة استنكارية كثيرة تتصل بتشريعات البناء والتعليم والربا وغير ذلك قال عن الإنكليز : لا والله ما قالوا أملاً ، ولا قارفوا عملاً ، ولا أذلوا رجلاً ، ولا خربوا بيتاً ، ولا هتكوا حرمة ، إلا بالمصريين ص ١٩٨ ،

ثامناً : وفي الفقرة التي تلت ذلك أخذ يصب القوم على المصريين لا على الإنجليز . والمضربون أولى بأن يلاموا في نظره لأسباب كثيرة :

أولاً : لأن أمراءهم غارقون في القهقهة والترف .

ثانياً : لأن عقلاءهم متذرعون بالصمت .

ثالثاً : لأن نبياءهم أو المثقفين منهم لا يتعرضون للدين ولا للسياسة .

ثم قال :

« فإن بقي الأمراء في البيوت والنبياء في المحافل على ما هم عليه ، والعقلاء صامتين ، فلا يجوز لنا أن نعترض على برايرة إقليمية فضلاً عن الإنكليز ص ١٠٩ إذا جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا الخ » .

تاسعا : يأتي بعد ذلك فقرة كالتامة وليست بخاتمة وفيها يدعو المصريون إلى الانضمام إلى رأى الخديوى عباس في أعماله الإصلاحية والمطالبة بالحقوق الوطنية، والتقدم في التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ، والإدارة وهكذا طفق النديم يستنهض المهتم حتى ختم كلمته بقوله « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ، وهى الجملة التى تعود أن يختم بها كل فقرة من الفقرات التى تألف منها المقال .

عاشرا : ويلاحظ أن النديم كان فى الجزء الأخير من هذه المقالة يضم الإنجليز إلى جناب الخديوى فى الدعوة إلى الإصلاح والمطالبة بالحقوق والعمل على تقدم التجارة والصناعة والزراعة وقد يدل ذلك على أن المقال إنما كتب فى عهد من عهود الوفاق بين السلطين الشرعية والفعلية فليرجع إلى هذا المقال بجريدة الأستاذ للتحقق من تاريخ صدوره بالجريدة .

حادى عشر : والمقال يسرف فى الطول حتى أنه ليملا عددا كاملا من أعداد جريدة الأستاذ (١) ويذكرنا ذلك بما فعلته المقالة الصحفية فى إنجلترا فى بعض أطوارها يوم كانت الحكومة تفرض الضرائب على الأخبار ولا تفرضها على المقالات الخ .

ثانى عشر : اعتمد الكاتب فيها على الإسهاب وطول النفس فى العبارة حتى أن الجملة الواحدة تستغرق أكثر من إثني عشر سطرا . اقرأ قوله ( فدخلوا الأقطار الشرقية . . بعد ظهورها للبيان - ص ١٨٨ ) .

ثالث عشر : توخى النديم فى كثير من مواضع المقال أن تنتهى كل فقرة من فقراته كما قلنا بالعبارة التى صاغ فيها العنوان ( لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ) . وهذا يذكرنا بالطريقة التى اتبعها خطباء الرومان حين كانوا يتحرون مثل ذلك فى خطبهم .

---

(١) هذا الذى نعرفه من كلام النديم إنما هو نصف المقال الذى نشره بجريدة الأستاذ فيلاحظ ذلك . ومعناه أن المقالة الأصلية تبلغ نحواً من ثلاثين صفحة من صفحات هذا الكتاب وهو قدر أشبه بفصل من فصول كتاب لامقال أو عمود فى صحيفة من الصحف مهما كان طولها .

رابع عشر : لغة المقال قريبة في مجموعها من لغة الحديث الراقى أى من لغة الصحافة . والتدعيم بمثل هذا المقال يعتبر في منزلة بين منزلتين : الأولى منزلة أديب إسحق وإبراهيم المويلحى وأمثالهما ممن كانوا يسعون وراء التألق في الأسلوب الأدبى حتى بلغوا به الذروة ، والثانية منزلة على يوسف ولطف السيد ممن كانوا يكتبون بلغة الصحافة لا لغة الأدب الصرف . وكأن التدعيم كان في الحقيقة إرهاباً حقيقياً لظهور المدرسة الثالثة من مدارس المقال الصحفي في مصر .

خامس عشر : في المقال بعض ألفاظ من ألفاظ البيئة الإسكندرية البحتة مثل لفظ « بير » جمع بيرة ، ويطلق على الأماكن التى تتبع هذا النوع .

ولكن هاهو محرر ( الأستاذ ) تضطره ظروف صحفية ، أو على الأصح سياسية ، إلى مغادرة مصر ، وإلى مفارقة الصحيفة التى أدلى فيها بدلائله ، وكانت خير معرض لأفكاره وآرائه . وفى الثالث من شهر يونيو سنة ١٨٩٣ ودع قراءه في كلمة له بعنوان ( تحية وسلام ) شكر فيها للقراء حسن عنايتهم به وإقبالهم عليه (١) .

وذكر لم أنه صمد لطائفة من التهم التى وجهت إليه ، ومنها التعصب الدينى ، وأنه نصح لأعمال الأوربيين ، وأنه محرر ثورى ، وهو يشكر للصحف التى دافعت عنه ضد هذه التهم كجريدة المؤيد والأهرام والوطن وبعض الصحف الأجنبية في مصر وفى أوروبا ولا ينس في هذا المقال أن يقدم الثناء عابراً للخدوى عباس فهو الذى أصدر عفوه عنه ومنحه الحياة في مصر ، فكان لواماً على ( الأستاذ ) أن تخلص له وتدافع عنه ، ثم هو يشكر قنصلى فرنسا والروسيا ، ويشكر جميع المصريين الذين تأثرت نفوسهم وأشفقوا على الجريدة من الغيبة ثم قال :

---

(١) من أجل ذلك تمكن المحرر من توزيع ٢٨٤ نسخة من كل صفحة .

وكنيت أودلو دامت لي صحتي فأقوم على خدمتي ، ولكنني أصبت بضعف  
فيها وأشار عليّ جمع من الأطباء بتغيير الهواء خارج القطر المصري ، حتى يقوى  
ضعيفكم ويشفي مريضكم فيعود لخدمة وطنه وأهله وهكذا اختفى الأستاذ بعد أن  
اقتنى القراء منه مجلداً فيه ألف وثلاثمائة صحيفة ، وودع النديم قراءه بقوله في نهاية  
الكلمة السابقة :

أودعكم والله يعلم أنني	أحب لفاكم والخسود إليكمو
وما عن قلبي كان الرحيل وإنما	وداع تبدي والسلام عليكمو



## الفصل الثاني عشر

### الخصائص العامة للأسلوب الصحفي عند النديم

فرغنا من عرض نماذج قليلة من أسلوب النديم ، وأن لنا أن نلخص السمات العامة لهذا الأسلوب موجزين في ذلك بقدر ما نستطيع .

ولست أدري لماذا أريد أن أتعمل القارى . وأصله بالرأى العام الذى تكون لى من قراءة الآثار الصحفية لهذا الأديب الشعبي الكبير . وخلاصة هذا الرأى هو أن محرر التنكيث ، والتبكيث ، والطائف ، وبجلة الأستاذ كان رجلا خطيباً قبل كل شيء ، وأنه لم يستطع أن يتخلص قط من آثار الخطابة فى أسلوبه الصحفي الخالص .

ولا غرابة فى ذلك فن الأدباء من غلبت عليه صفة التدريس لجاءت كتاباته كلها على شكل دروس أو محاضرات ، وتهتم من غلبت عليه المحاماه لجاءت كتاباته تحمل هذا الطابع ، وهكذا . وليس من السهل على النفس أن تتخلص من هذه السمات .

فلذا قلنا أن الطابع العام لأسلوب النديم هو الخطابة لم يكن ذلك طعناً فيه ولا نقصاً عنده ولا تقصيراً فى العناية به .

من أجل هذا كان الفرق كبيراً جداً بين النديم الأديب والنديم الصحفي . أما النديم الأديب . فهو ذلك الرجل المفتون بالسجع والبديع إلى درجة ربما تفوق فيها على بعض القدماء . وقد كانت قنتته بالبديع مقرونة بالأيام الأولى من شبابه حين كان يكتسب الرسائل الإخوانية أو الأدبية على اختلافها . ولعلك تذكر أيها القارىء مقاله بعنوان ( نار العدو ونار العدو ) وكيف كانت هذه الرسالة غريبة ( ١٣ م - أحب المقالة ٢ )

في بابها ، وكيف شق السكائب فيها على نفسه إلى الدرجة التي أعادت إلى الأذهان ما كان يفعله بعض كتاب النثر العربي في القرن الرابع الهجري .

ومهما يكن من شيء فقد كان السكائب في هذه المرحلة الأولى من حياته الكتابية متأثراً أشد التأثير بأسلوب المقامة العربية ، وللبقاة العربية فضل كبير في الواقع على كثيرين من الأدباء منذ ظهور هذا اللون الجديد من النثر في الأدب العربي . ومن الباحثين من يذهب إلى أن هذا الغرض - وهو تعلم اللغة العربية للناشئين - كان من أجل أغراض المقامة وقت ظهورها ما لم يكن الغرض الأول والوحيد لها .

وأما النديم الصحفي فهو رجل الخطابة في عصره غير مدافع . وفي هذه المرحلة الثانية والأخيرة من حياته كانت الخطابة صفة له وسمة يعرف بها في الشعب المصري .

والخطابة نفسها نوعان مسجوع ومرسل ، ولا ريب أن الصحافة لا يناسبها إلا المرسل . ومن ثم كان النديم يرسل الكلام لإرسالا كأنه الحديث العادي . ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد الخطابة تنضح على أسلوب هذا المحرر ببعض خصائصها ومنها كثرة النداء في الكلام ، ومنها تكرار عبارة بعينها قصد التثبيت في ذهن السامع أو القارئ . وليعلم بها القارئ أنها من هذا الحديث أو ذاك ( بيت القصيد ) . ألا ترى أنه بسبب ذلك كان النديم حريصاً على أن يختم مقاله بنفس العبارة التي اتخذها عنواناً لهذا المقال ؟

وأكثر من ذلك - رأيت أنه كان يكرر عبارة العنوان ويجعلها نهاية لكل فقرة من فقرات المقال - كما فعل بالكلمة التي قلنا جزءاً كبيراً منها لتتكون نموذجاً من أسلوب النديم وهي الكلمة التي عنوانها « لو كنتم مثناً لعلتم فملنا » .

وربما كان من سمات الخطابة أو الحديث العادي في أسلوب النديم القسم في التعبير كما في قوله :

« والعهد وذمته والشرف وحرمة إن قلبي في خدمته لمن الصادقين ولساني في

أخباره لمن الناصحين ناشدتك الحق يا شقيق الإنسانية إلا ما تأثيت على خادم  
أفكارك حتى يفرغ من حديثه ... الخ (١).

وأطن القارىء كذلك لم تفته ملاحظة أخرى ، وهى أن المحرر يوجه الكلام  
للقارىء بلغة المخاطب ، وتلك خاصة من خصائص لغة الحديث أو المحاضرة أو  
الخطابة ، كثيرة الظهور فى أساليب المعلمين ومن إليهم من الخطباء والوعاظ  
والمصلحين .

فذلك إذن هو اللون العام لأسلوب النديم أو القالب الذى يصب فيه كلامه  
فى الصحف . نعم كان أديب لإسحق يميل كذلك إلى الأسلوب الخطابى ، ولكنه  
على كل حال لا ينبغي أن يقارن بالسيد عبد الله النديم فى ذلك بحال ما . كما  
لا ينبغي أن يقارن به النديم فى القيم الموسيقية التى وفرها أديب لإسحق لعباراته  
فى الصحف .

من أجل هذا كان النديم فى مقالاته الصحفية أقل حرصاً حتى على الزواج فى  
الكلام من أديب لإسحق ، لماذا ؟ لأنه كان يرسل كلامه إرسالاً لا تكلف فيه إلا  
حين يقصد قصداً إلى هذا التكلف ، وذلك حين يتاح له بعض الفراغ لهذا التكلف  
أو حين تحن نفسه ويهفو قلبه إلى شيء منه .

بل من أجل هذا كان النديم فى مقالاته الصحفية أقل عناية بالبديع أو احتفاء  
بالرينة اللفظية والمعنوية ، وبأصور البيانية ، والآليات الشعرية أو التسلى على  
كلام الغير ، من أديب لإسحق .

وليس معنى هذا أن النديم لا يحسن تكلف البديع فى حين أن أديب لإسحق  
يحسنه ، بل معنى ذلك أن النديم أميل فى صحافته إلى المحدث اللبق أو السمير الذى  
يستطيع أن يقطع معك أطول وقت ممكن دون أن تمل أو تشعر بالسأم . ومن  
هنا طالت فصول النديم فى صحفه أحياناً إلى درجة قد لا يبلغها فصل من كتاب .  
وقد تكرر حدوث ذلك من النديم بأكثر مما تكرر حدوثه من أديب لإسحق .

---

(١) هكذا ابتدأ مقالا له بعنوان جرائد الأخبار مدارس الأفكار من ١٠٠ جزء سلافة النديم

ثم من أجل هذا كان النديم أقرب إلى نفوس الشعب نفسه من أديب إسحق ومن سواه . وساعد على ذلك أن النديم كان كما رأينا أقل ثقافة من أديب إسحق ، أو على الأصح أقل تنوعاً في ثقافته من أديب إسحق ، وهذا ما جعل الأول وهو النديم صحنى الشعب كله لا يستغنى عن قراءته رجل ولا امرأة ، بل إن النساء في مصر رجونه أن يحررهن بجملة خاصة بهن من دون الرجال وقلن له إنك وحدك القادر على ذلك ولم يحدث أن طلب النساء من أديب إسحق شيئاً من ذلك شعوراً منهن بأن لغته أعلى من مداركن وأرفع من مستواه في ذلك الوقت .

وأخيراً من أجل هذا كان النديم أقرب إلى نفوس الفاتمين بالثورة العرابية وأقدر على التعبير عن رغباتهم وآمالهم حتى حقق لهم النديم كل ذلك وأكثر منه . في حين أن أديب إسحق كان في تلك الآونة من دعاة الاعتدال ، أو قل لم يكن راضياً عن الثورة والثوار بحال من الأحوال

ومع هذا وذاك فالقارىء لا يعدم أن يقع من حين لآخر في أسلوب النديم على استعارة رائعة أو تشبيه جميل أو كناية لطيفة ، كما في قوله يكنى عن القلب ، ويقلد أسلوب المقامة في الرواية : « روى الواله الولوع عن الساكن بين الضلوع الخ ، (١) » .

نعم كان النديم يحسن حيناً إلى البديع وذلك في أثناء اشتغاله بجريدة الأستاذ إلى درجة أنه كتب مقالا صحفياً واحداً في هذه الجريدة كله يجمع ، ردّها فيها على خصومه وحساده . بل كان فيه إلى الشعر أقرب منه إلى النثر وبدأ المقال بهذين البيتين من الشعر :

ولو أنى بليت بهاشمي خؤلته بنو عبد المدان  
لهان على ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

والمضحك أن النديم في هذه المقالة جعلها فصولاً كثيرة يختص كل فصل منها بموضوع مستقل فوجه الخطاب في الفصل الأول إلى أعدائه . ثم تطرق من ذلك إلى الحديث . عن أعداء الله والأنبياء ، ثم الحديث عن أعداء السلطان الأعظم

ثم الحديث عن أعداء الحضرة الخديوية ، ثم الحديث عن أعداء مصر وحكامها ، ثم الحديث عن أعداء المصريين ، ثم الحديث عن أعداء السوريين ، ثم الحديث عن أعداء إنجلترا وفرنسا ، ثم الحديث عن أعداء الصدق ، و انتهى من ذلك كله إلى فصل من المقال عنوانه قاتل الله الأعداء (١) .

( والخلاصة ) في أسلوب النديم أن القارىء له في جميع مراحل حياته يلمح فيه ثلاث شخصيات .

الأولى : شخصية الأديب المفتون بالبديع ، وذلك فيما ديج من رسائل وكتب لا صلة لها بالصحافة .

الثانية : شخصية الصحفي المفتون بالكلام المرسل لا يتكلف فيه سجماً ، وقلماً يقصد منه الأنواع البديعية التي لا تتفق والصحافة .

الثالثة : شخصية الأديب الشعبي الذى يكتب باللغة العامية ويستطيع أن يضفى على أسلوبه في هذه الحالة ما يسميه الأدباء « باللون المحلى » ، للمبارة . والذى يعنينا من هذه الشخصيات الثلاث إنما هو شخصيته الثانية ، وهى شخصية الصحفي الذى يكتب باللغة العربية الفصيحة . وهنا تلمح في أسلوب النديم طائفة من الخصائص منها .

أولاً — شغفه بالاستطراد على طريقة الجاحظ وقد كان الاستطراد عند الجاحظ وسيلة من وسائل التشويق وإبعاد السأم عن القارىء . وهو كذلك عند النديم . ومن ثم كان خفيف الظل كاتباً ، وخفيف الظل خطيباً أو محاضراً . وبقى الناس في زمانه مفتونين به وبأسلوبه حتى مات .

ثانياً — ميله إلى المقابلة والطباق لا أقول بين الالفاظ ، بل أقول بين المعاني ذاتها ، وأكثر ما يكون ذلك عندما يكتب النديم عن الشرق وأحواله ، ويوازن بينه وبين الغرب وتقدمه ، أو حين يكتب عن المسلمين ويوازن بينهم وبين المبشرين المسيحيين ونحو ذلك .

---

(١) لعل السبب في اتباع هذه الطريقة الجببة شعور النديم بأنه يتحدث عن نفسه وأن الصحافة ليست كالآداب في هذه الذاتية البحتة . تمحول بالمقال من موضوع ذاتى إلى آخر غيرى على هذا النحو .

ثالثاً - إثاره الإسهاب والإطناب على طريقة المجاحظ أيضاً. وقد لاحظنا أن النديم كان ذا نفس طويل في الخطابة والكتابة ، وكان يؤدي المعنى الواحد بعبارات كثيرة في الفقرة الواحدة ، و فقرات كثيرة في الموضوع الواحد ، وما فطن أن كانباً استطاع بجراة النديم في ذلك القرن الماضي ، ولا أن خطيباً . تدفق في عبارته كما تدفق هذا الرجل .

رابعاً - أما ألفاظ النديم فكانت مختارة ، وأما مادته اللغوية ، فكانت غزيرة ، ولا غرابة في هذا فقد كان النديم يعرف من بحر وكان غيره من الكتاب يتمتعون من بحر ، وإن غلب عليك الشعور بأن كتابة الجميع كانت أشبه شيء بماء اليلبوع برداً وصفاً وحلاوة وذاق .

\* \* \*

(وبعد) فهؤلاء ثلاثة كانوا رواد النهضة الأدبية الصحفية في مصر في القرن الماضي وهم الشيخ محمد عبده ، وأديب إسحق . والسيد عبد الله النديم ، وإذا جاز لنا أن نفاضل بينهم . أو نرتبهم على حسب إجادتهم الفنية فإننا نقول - ولا نلزم أحداً بما نقول - إن أولهم وأجودهم وأقربهم إلى الفن الأدبي لا الصحفي بالمعنى الصحيح إنما هو أديب إسحق ، ثم يليه الأستاذ الإمام ، ثم يليه السيد عبد الله النديم . وأديب إسحق أول الثلاثة بمراجعة الفن ، وثقافته المنوعة ، وطريقته التي تنادى على نفسها بأنها طريقة أديب .

والأستاذ الإمام واسطة هذا العقد بقدرته على التعبير ، وبمحاسنه في النقد ، بطريقة تنادى على نفسها بأنها طريقة المعلم الديني والاجتماعي .

والسيد عبد الله النديم واحد من هذه الحلبية ، ولمكن جواده لا يتقدم جوادى صاحبيه لأنه لم يجهد نفسه كثيراً في كتابة المقالات الصحفية إلا بمقدار ما يجهد الخطيب أو المحاضر نفسه في ترتيب فقط الحديث ، وفي تنظيم الأدلة والحجج ، وفي الضغط على عبارات من نوع خاص ليتأكد من ثبوتها في أذهان الجمهور . من أجل ذلك كله لم يصدر عبد الله النديم في كثير من مقالاته عن ثقافة متنوعة أو دراسة متعمقة اللهم إلا في موطنين .

أولهما : موطن الدين وما يتصل به من البحث في الطرق والتصرف .  
وثانيهما : التربية والتعليم وقد كان في هذه الأخيرة يستوحى تجاربه الخاصة  
ويفسح المجال للأمثال على باشا مبارك ، ليحدثوا الفقراء عن هذه الأمور حديثاً  
عليها في صحيفة الأستاذ ونحوها .  
غير أن هناك احتياطاً لابد من ذكره هنا قبل أن نفرغ من الحكم على  
النديم أوله . وهذا الاحتياط هنا ذو شقين .

أولهما : الحديث عن الموهبة الأدبية التي اختص الله بها كل واحد من  
هؤلاء الثلاثة على حدة . وهنا لا نحتاج إلى عناء كبير في البرهنة على أن الموهبة  
الأدبية عند النديم كانت أعظم منها عند الأستاذ الإمام ، بل أنها لم تكن تقل عن  
موهبة إسحق نفسه .

وثانيهما : الحديث عن الأسلوب الشعبي عند النديم ، فإذا كان الأسلوب  
نوعين . أرسقراطي وشعبي فن اليسير أن نلاحظ أولاً أن للنديم هذين النوعين  
معاً ، في حين أن صاحبيه لم يكن لكل منهما إلا نوع واحد فقط . والذي له  
موهبتان أكبر درجة من صاحب الموهبة الواحدة ، ولهذا الاعتبار الأخير ،  
ولاعتبارات أخرى سابقة تقدم النديم على أديب إسحق في ميدان الصحافة ، كما  
قدمنا هذا الأخير على النديم في ميدان الأدب .

ونحن إنما وازنا بين الثلاثة فيما اشتركوا فيه جميعاً ، وهو النوع الأرسقراطي  
فرتبناهم على النحو المتقدم ، ثم لم يمنعنا ذلك من أن نعطي للنديم حقه من  
التقدم الذي له على صاحبيه .

وبعد : فقد كان النديم أقل حظاً في ثقافته ، كذلك من هذين صاحبيه ،  
ولكننا نعجب كيف استطاع النديم أن يبسط هذا القدر القليل من الثقافة على  
أكبر عدد ممكن من الشعب المصري ، ومن الشعوب التي كان ينبغي أن تقرأ  
ما ينتجه العقل المصري أو القلم المصري ، وهذه القدرة على البسط إنما يمتاز بها  
كذلك النديم وترفعه من هذه الناحية درجة أخرى على كل من الأستاذ الإمام  
محمد عبده والأديب البارح أديب إسحق .

ذلك إذن فصل الخطاب في ثلاثة من الكتاب لا شك أنهم كانوا زعماء القرن  
الماضي في مصر من حيث الصحافة ومن حيث الكتابة ، نرجو أن نكون فيه قد  
وقفنا إلى الحق ، واجتنبنا الحيف أو التزويد في القول .

## الختامة

### في الطابع العام للمقالة الصحفية

عند تلاميذ المدرسة الثانية في مصر

يذكر القارئ أننا أشرنا في ختام الجزء الأول من كتابنا هذا إلى المقصود من كلمة ( المقالة الصحفية ) ، عند إطلاقها ، ويذكر القارئ أننا قد انتهينا من ذلك إلى أن المقالة الصحفية لا يمكن أن تكون موضوعاً لإنشائياً ، ولا مقامة من المقامات المعروفة في الأدب العربي ، ولا قصة ولا حكاية . وليست المقالة الصحفية فصلاً من فصول كتاب أدبي أو علمي ، ولا محاضرة من المحاضرات العلمية ، أو الأدبية ، ولا ضرباً من هذه الأضراب الأدبية المعروفة . إنما المقالة الصحفية عبارة عن فكرة تنقها السكائب من البيئة المحيطة به ، وتأثر بها ، ثم عبر عن ذلك بطريقة حفظها من النظام قليل ، وحاجتها إلى الترتيب والتحصيل والتدقيق والبحث العميق أقل . فإنما المقالة حديث يوشك أن يكون عادياً . يعرضه الكاتب على قرائه كما يعرض الموضوع من الموضوعات التي يدرج بها وقت الفراغ ، مع بعض جلساته ، فيحسب المحرر الصحفي أن يتحدث إلى قرائه في الأمور الخاصة والعامة حديثاً فيه سخرية حيناً ، وفيه تفكير غير عميق حيناً ، وفيه استطراد حيناً ، وفيه مراعاة لمزاج القارئ آخر الأمر .

وليس معنى هذا أن المقال الصحفي يجب ألا يكون له حظ من نظام أو ترتيب أو تعمق في التفكير ، ولكن معنى ذلك أن النظام والترتيب والتعمق في التفكير ليس شرطاً في الأدب الصحفي ، فإن توافر فيه فغن غير قصد من الكاتب ، وعن غير إلحاح على القارئ . وعن غير رغبة في أن يتجشم هذا القارئ مشقة التفكير وعناء البحث .

من أجل ذلك خطأ البحث الحديث رجال المدرسة القديمة الذين ظنوا أن المقالة الصحفية قطعة أدبية يجب أن يكون لها مقدمة ، وموضوع وخاتمة ، كما يجب



أن تبني على عمق الفكرة وحدة العاطفة . ذلك أن الصحافة أدب غير خالد ، لأن الأدب إنما يستمد خلوده من أشياء لها بالنفس الإنسانية أوثق صلة وأقوى رابطة . أما المقال الصحفي ففضلا عن أنه وليد الساعة التي يكتب فيها ، والظرف الذي أنشئ فيه ، ففي فراغ القارئ من قراءته لم يشعر بحاجة إلى العودة إليه ، وفي ذلك فصلنا القول في نهاية الجزء الأول من كتابنا هذا ، فليست بنا حاجة إلى إعادته .

ولكن لمن أراد التعمق في هذا الموضوع إلى أبعد من هذا الحد أن يراجع الفصل الثاني من كتابنا ( مستقبل الصحافة في مصر ) وعنوان الفصل : لغة الأدب ولغة الصحافة .

فهل حققت المدرسة الصحفية الثانية في مصر شيئا من ذلك ؟ وهل يحق لنا أن ننظر إلى كتابها على أنهم صحفيون بهذا المعنى ؟ قد أشرنا في مقدمة ( الجزء الأول من هذا الكتاب ) إلى أن الصحافة الشعبية بالمعنى الصحيح إنما تفرز بعد إسماعيل ، لأن الصحافة قبل هذا كانت وقفاً على محمد علي وحكراً له ، أو كانت آلة في يده يحركها كيف يشاء ، فلم تحرر الصحف في عهده شيئاً من النقد ، ولم تملك من الحرية ما يجعلها تذكر رأيها بصراحة في أي أمر من الأمور التي تتصل بسياسة الوالي الداخلية أو الخارجية ، ومضى عهد محمد علي ، وتلاه عهد عباس ثم سعيد ، فلم تظفر الصحافة منهما بعناية تذكر . حتى إذا ولي عرش مصر إسماعيل ، وقعت البلاد تحت ضغط التدخل الأجنبي البغيض ، لم ير الخديوي بداً من الاستعانة بالصحف التي كانت ( كما قلت ) سلاحاً ذا حدين ، فمن الصحف ما كان يؤيد سياسة إسماعيل ، وكان هذا يأجر بعضها على ذلك ؛ ومن الصحف ما كان يتصدى لنقد إسماعيل نقداً وصل إلى حد التجريح ، كما وجدنا ذلك في بعض صحف النديم .

ونخلص من هذا إلى القول صراحة بأن المدرسة الصحفية الأولى لم تتح لأفرادها الفرصة للتعبير عن آرائهم في حرية وجلالة ، فلامر لنا من النظر إلى تلاميذ المدرسة الأولى على أنهم ناشئون في حرقة الصحافة ، وعلى أنهم كانوا يشغلون أنفسهم بشيء غير الصحافة ، وهو نشر الثقافة في البلاد ، عن طريق التأليف والترجمة .

ومن أجل ذلك جاءت صحافة المدرسة الأولى فصولاً من كتب مؤلفة ، كانت تنشر تباعاً في جريدة الوقائع حيناً ، وروضة المدارس ونحوها حيناً آخر . ومن ثم لم يظفر الباحث في نتائج المدرسة الأولى بمقال صحفي بالمعنى المراد من هذه الكلمة عند إطلاقها ، ثم إنه لم يكن للصحافة نفسها موضوع هام على يد تلك المدرسة الأولى ، ولا كان لها أسلوب يصح أن ينظر إليه على أنه صحفي بالمعنى الذى أشرنا إليه في بداية هذه الكلمة فإذا تركنا المدرسة الأولى إلى الثانية ، فثم نجد موضوعاً للصحافة ، وثم نجد فكرة تصدر عنها ، وثم نجد أسلوباً يختص به كل واحد من أفرادها ، وثم نجد طابعاً عاماً يمتاز به هذه المدرسة عن سابقتها ؛ وباختصار نجد عناصر كاملة تؤلف لنا مذهباً جديداً من مذاهب الصحافة ، وتجعلنا أمام طائفة من الصحفيين يستحقون احترامنا وتقديرنا ، لا لمجهود ثقافى كالذى بذله رجال المدرسة الأولى من لدن رفاعة الطهطاوى وأمثاله ، ولكن لمجهود صحفى بحسب بذله رجال هذه المدرسة الثانية . حين ارتفعوا بالصحافة المصرية إلى الحد الذى أصبحت فيه منافسة للصحف الأجنبية في ذلك الوقت .



على أننا ننظر إلى الطابع العام لهذه المدرسة الصحفية الثانية ، فترى أن للمقال الصحفى خصائص وميزات آن لنا أن نذكرها في هذه الخاتمة .

الخاصة الأولى : غلبة الأسلوب الخطابى على مقالات هذه المدرسة ، وأكثر ما كان ذلك في مقالات النديم ، والقارىء . أن يستعرض النماذج التى عرضناها من كلامه ، فسيجد فيها ميلاً شديداً إلى اصطناع الأسلوب الخطابى . وسيجد في حياة النديم أصول هذا الميل .

والخاصة الثانية : أن المقالة الصحفية عند رجال هذه الحلبة أخذت كما رأينا — شكل الدرس ، وجاءت أكثر المقالات على شكل المحاضرة . وواضح ذلك في مقالات الشيخ محمد عبده ، والقارىء . أن يستعرض لذلك حياة هذا الرجل كما عرضنا لها في هذا الكتاب ، فسيرى منها ومن تحليل نفسيته ، دوافع ميّله إلى التدريس ، وحسن استعداده له ، ولقد بدأ الشيخ يكتب المقالات الأولى في

الأهرام وجريدة مصر ، فجاءت هذه المقالات على شكل ملخصات للدروس التي كان يلقها أسناده السيد جمال الدين الأفغانى ثم تصدى الشيخ محمد عبده للاصلاحين الدينى والاجتماعى ، وكتب كثيراً فى هذا الموضوع ، ولم تكن مقالاته فى هذا الميدان أكثر من دروس منظمة ذات هدف معين ، ولا يكاد يخرج عن هذه الخاصة من كتاب هذه الحلبة غير أديب اسحق الذى غلبت على نفسه طبيعة الأديب ، كما غلبت على نفس النديم طبيعة الخطيب ، وغلبت على نفس محمد عبده طبيعة المعلم ، ومن قبل غلبت على نفس الطهطاوى وتلاميذه طبيعة الترجمة ، إن صح أن تكون الترجمة طبيعة بهذا المعنى .

الخاصة الثالثة : شيوخ الجدل إلى حد الصرامة والحزن ، فقد أحاطت بمصر فى القرن الماضى ظروف عصيبة ، دعت المصريين إلى ترك اللهو واللعب ، روح ط العضحك والسمر جانباً ، وانتهى صحفى كالنديم على وجه التمثيل فوجد مدينة الإسكندرية غارقة فى جدها ، تاركة لها وأسمارها وأحاديثها الفارغة ، غاض فيما غاض فيه القوم ، ومنذ اشتغل بالصحافة لم يفارقه طابع الجدل أو الحزن ، اللهم إلا فى مقالاته التى كتبها فى مجلة التنسكيت والتبكيك ، وفى اسم هذه المجلة الأخيرة ما يدل على نوع الضحك الذى كان يضحكه الكتاب وزعماء الإصلاح فى مصر فى ذلك الحين ، والحق أننا لا نكاد نستثنى من نتائج هذه المدرسة غير ما كتبه الصحفى الإسرائيلى المعروف باسم يعقوب بن صنوع .

الخاصة الرابعة : شيوخ السخرية فى مقالات هذه المدرسة ، وإن جاءت هذه السخرية ممزوجة دائماً بالحزن الذى أشرت إليه فى الخاصة السابقة ، ومن أجل ذلك قلما انفرجت شفاه الكتاب فى القرن الماضى عن ابتسامة ما فى مقالاتهم الجدية لا الهزلية ، اللهم إلا فى قرات قليلة ، كالتى رأيناها عند النديم ولم نجد لها نظيراً عند صاحبيه . على أن سخرية النديم وصلت إلى حد التهكم المرير ، فى مقالاته التى كتبها فى نقد إسماعيل ، وقريباً من هذه الدرجة من التهكم وصلت مقالات أديب إسحق فى نقد المجالس التبايية فى مصر ، أما الأستاذ الإمام فكانت سخريته هادئة كل الهدوء ، خالية فى الوقت نفسه من الضحك خلواً تماماً .

الخاصة الخامسة : شيوع الانفعالات في مقالات المدرسة الصحفية الثانية أكثر من شيوعها في مقالات المدرسة السابقة لها . والحق أن ميزان الحساسية يرتفع كثيراً عند أديب إسحق ومحمد عبده وعبد الله النديم ، وأن ثلاثتهم كانوا يكتبون بانفعال شديد ، هو في الواقع أشد مما ينبغي للكاتب الصحفي ، فقد قلنا أن الفرق كبير من هذه الناحية بين الصحفي والشاعر ، والأديب والخطيب .

تلك أهم الخصائص التي تتصل بالفكرة أو الموضوع . أما ما كان منها يتصل اتصالاً مباشراً بالأسلوب ، فأهمه ما يأتي :

الخاصة الأولى : تخلص المدرسة الصحفية الثانية إلى حد كبير من السجع والجناس وغيرهما من الألوان البديعية التي قن بها أكثر تلاميذ المدرسة السابقة لها وكانوا في فئتهم تلك يتأثرون كل التأثر بالميراث الأدبي الذي ورثه العصر العثماني عن العصور الأدبية التي سبقت ، وفي تاريخ الجبرتي صورة من النثر الأدبي المصري في العصر العثماني ، نرى منها إلى أي حد أولع كتاب ذلك العصر بالبديع ، على صورة فاسدة من طريقة القاضي الفاضل ومن قبله من أدباء البرية ، كالحريري وبديع الزمان وغيرهما ، ولكننا نلاحظ أن العيب ليس في اتباع طريقة ما من طرق الكتابة ، ولكن العيب في الكاتب المتبع لهذه الطريقة . ثم إن لكل مذهب أدبي أجله وحياته التي تشبه فيها حياة الإنسان ، فإذا وصلت حياة مذهب من المذاهب الأدبية إلى الشيخوخة تهمل وأصابه التلف ، ثم إنه لا شيء يضر بمذهب أدبي أو عقلي إلا نقص الثقافة . ونعني بذلك أنه يشترط في معتنق طريقة من الطرق أن يكون فوق تحمسه لها قد أعد لها من الثقافة الواسعة والذوق المرفف والموهبة ، ما يعنيه على النبوغ في الطريقة الكتابية التي اختارها . ونحن نعرف أن الطريقة الفاضلية كانت قد شاخت ، ونهكتها المرض ، ومع ذلك بقيت في مصر إلى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولم تظفر بكتاب يحسنون تقليدها ، ولا كان هؤلاء الكتاب ثقافة وذوق ولا موهبة تعينهم على إجادتها ، ولذلك زادت هذه الطريقة سقما على سقم في نتاج الكتاب الذين ظهروا في تلك العصور المظلمة . ثم لم يكن أمام المدرسة الصحفية الأولى مثال يحتذى في الكتابة غير ذلك المثال الفاضلي . لحاكمه بعض تلاميذها ، وفرضوه على أنفسهم ، وتقليدوا

به ، حتى في ترجمة الكتيب والقصص من الأوربية إلى اللغة العربية ، وظهر أثر ذلك في العنوانات التي اتخذوها لتلك الكتيب بحيث روعى فيها السجع بدقة تدعو إلى العجب ، فلما كانت المدرسة الصحفية الثانية وجدنا كل واحد من تلاميذها يفتن في مستهل حياته الأدبية بالسجع فتنة لا حد لها ، ثم لا يلبث أن يفارقه هذا السجع إلى غير رجعة على أثر اشتغاله عملياً بالصحف . فمكثنا كان أديب إسحاق ولو أنه لم يبرأ من بعض السجع في حياته الصحفية كلها . وهكذا كان محمد عبده الذي ظهرت أولى مقالاته في الأهرام مسجوعة من أولها إلى آخرها ثم هكذا كان التديم الذي رأيناه في أول أمره أكثر من صاحبيه مراعاة للبديع ، ثم غدا أكثر منهما تحرراً منه في نهايته .

الخاصة الثانية : على أن أفراد هذه المدرسة قد استعاضوا عن السجع بخاصة أخرى هي الازدواج ، أو التقطيع الصوتي ، وجزالة اللفظ ، وحسن اختياره ، ووضعه في أليق مواضعه . وإن من يتبع أساليب الثلاثة الذين أتينا على ذكرهم في هذا البحث ، لتبوله هذه الظاهرة ، وهي تقدم كل واحد فيهم تقدماً محسوساً في الجزالة اللفظية من جهة وحسن انتقاء الالفاظ وقوة دلالتها على المعاني من جهة ثانية . ولاشك أنه كان للمرأة الصحفية أثر كبير في هذا التقدم الذي نلاحظه ، وأظن أن فيما أشرنا إليه من مقالات أولئك الثلاثة الرجال ما يسكني لإثبات هذه الظاهرة .

الخاصة الثالثة : تأثر المقالة الصحفية بأسلوب القرآن الكريم ، لجميع الكتاب بدون استثناء . يؤثرون ألقاظ القرآن وتراكيب القرآن ، وإذا منحت لأحدهم فرصة الاقتباس منه لم يتأخر في ذلك ، وربما تكلف في مقاله حتى يخلق الموقف البياني المناسب له . والظاهر أنهم كانوا يفعلون ذلك لإشباعاً لرغبات فنية في نفوسهم من جهة ، وتقليداً للقراء من جهة ثانية .

الخاصة الرابعة : تأثر الأسلوب الصحفي كذلك بأسلوب المقامة العربية بشكلها المعروف في الأداء ، والحق أن لهذا اللون من ألوان الأدب العربي الخالص أثراً في الأسلوب يأتي بعد أثر القرآن نفسه مباشرة . لكن لا مفر من القول بأن تأثر المدرسة الصحفية الأولى بأسلوب المقامة — ونخص بالذكر من تلك المدرسة

فارساً الشدياق — كان أقوى من تأثر المدرسة الصحفية الثانية بذلك الأسلوب ، كما أنه لا مفر أيضاً من القول بأن تأثر أديب إسحاق بهذا الأخير كان أوضح من تأثر صاحبه به . فقد كان ذلك الصحفي الأديب يتأق في ألفاظه ، ويوردها مسجوعة في بعض الأحيان ، ويحشوها بالتشبيهات والاستعارات ، ويسوق القليل منها على لسان راو يتخيله ، كما يصنع كتاب المقامات .

الخاصة الخامسة : بدأ ظهور الفرق بين لغة المقالة الصحفية من جهة ولغة الأدب الخالص من جهة ثانية . وآية ذلك ما وجدناه من أن كل صحفي من هؤلاء الثلاثة الذين درسناهم ، كان يعنى بعبارته وبتجديد هذه العبارة ، وكان هؤلاء الصحفيون أدركوا فيما أدركوه يومئذ أنه ينبغي أن يكون أسلوب الصحافة غير أسلوب الأدب . وكان كل واحد منهم إذا قرغ لنفسه ، أو وجد أمامه متسعاً من الوقت تأق في عبارته ، وأمن في زيقته ، فإذا جاء الجد وضاق الوقت ، وألحت الجريدة أو المطبعة في طلب المقال ، فهنا يسرع الصحفي في الكتابة ، ولا يجد متسعاً للإجادة الأدبية الخالصة غير أنه من الحق أن يقال إن صحافة القرن الماضي لم تفارقها كثيراً صفة الأدب ، وهنا يضطر المؤرخ الأدبي إلى الوقوف لحظة للنظر في هذه المسألة ، وهى ما الفائدة التى عادت على الأدب البحث من الصحافة ؟ وما الضرر الذى أصيب به منها ؟

والجواب عن ذلك أن الأدب أفاد من الصحافة سعة في الموضوع ، وغزارة في الأفكار ، وتنوعاً في المادة ، وحرية في التعبير ، وانبساطاً في الأساليب الخ ، غير أن الصحافة أضرت في الوقت نفسه بالأدب ضرراً بليغاً فيما وراء ذلك . ويتلخص هذا الضرر في أن الصحافة في كل زمان ومكان ، انحطت بالأساليب الأدبية إلى أدنى درجاتها الكتابية ، وذهبت بالفن الكتابي إلى حيث أحواله إلى فن باهت اللون ، لاحظ له من جمال الأصباغ التى تفتن العين . والسبب في ذلك أن الأديب يتاح له من الفراخ ، ما يجد له في أسباب التأق والتحذق والتصنع والتفنن ، على أن الصحفي وراءه مطبعة تطالبه بغذائها كل يوم ، وصحيفة لا تقي عن مطالبتة بالمقالات الكثيرة كل ساعة ، فلا مفر له إذن من الإسراع في التفكير والإسراع في الكتابة ، فالسرعة إذن هى الطابع العام للأدب الصحفي . والسرعة

إذن هي المسئولة عن إخراج الصحافة من حيز الأدب الخالد . ووضعها في حيز الأدب الذي لا يبقى أكثر من ساعة .

\*\*\*

تلك إذن بعض خصائص المقالة الصحفية ، التي تركتها لنا هذه المدرسة ، فما مكانة هذه المدرسة الصحفية في مصر ، وما منزلة أصحابها من رجال الصحافة في بلد غير مصر ؟ الحق أن رجال هذه المدرسة الصحفية الثانية أثبتوا أنهم كفء للعبء الذي اضطلعوا به ، وأنهم أهل للاشتغال بالحرفة التي رضوا بها ، وكان عندهم من الاستعداد ما أعانهم على النجوع فيها نبوغا يلفت النظر ، فقد رزقوا قوة الملاحظة ، ورزقوا الانفعال إلى درجة الشموخ بالنقمة . ثم بالسخرية التي صدرت عنها في جميع ما كتبوه للصحف . ثم بصدق التعبير عما أحسوا من نقمة وسخرية في وقت معاً ، وكانوا يرسلون كلامهم إرسالا لا تقيد فيه بالمنطق ، اللهم إلا عندما يخرج مقال أحدهم على هيئة درس كما رأينا . أو عندما يكون المقال رداً على فكرة ، أو دفاعاً عنها ، وهكذا .

وإذا صح ذلك وآمنت معي بأن المدرسة الثانية حققت لنا كل ذلك ، فأنت معي إذن في القول بنجاح هذه المدرسة ، بالقياس إلى المدرسة السابقة لها ، وإذن فالفضل كل الفضل للمدرسة الأولى ، لأنها نشرت الثقافة التي ارتوى منها كثير من وضعوا أسس الصحافة في مصر في النصف الأول من القرن الماضي . ثم الفضل كل الفضل للمدرسة الثانية ، التي انتفعت بهذه الثقافة أولاً ، ثم اشتركت في بناء الصرح نفسه آخر الأمر .

ولكن ليس معنى ذلك أن المقال الصحفي ، بلغ أشده على يد هذه الطبقة التي منها أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم وغيرهم ، بل ما نعينه هو أن المقال الصحفي قطع شوطاً كبيراً . وتقدم خطوات واسعة ، ارتقت بها الطبقة الثانية على الطبقة التي سبقها . والدليل على صحة ما تقول من أن المقال الصحفي لرجال هذه الطبقة الثانية لم يبلغ حد السكال ، هو أن هذا المقال لم يبرأ بعد من عيوب المقال عند الطبقة الأولى التي منها رفاة الطمطاوى وفارس الشدياق وغيرهما وأنت تعلم أن من عيوب المقالة الصحفية عند هؤلاء . أنها جاءت على شكل دروس

وأبحاث، وأنها طالت عند بعضهم أحيانا إلى أن بلغت حد الكتاب وذلك ما وجدناه أيضا عند محررى الطبقة الثانية بوجه عام ، وما وجدناه أحيانا — عند النديم من رجال هذه الطبقة بوجه خاص . ويذكر القارىء أننى عرضت عليه فى غضون بحثى هذا فصلا للنديم عنوانه :

« لو كنتم مثلنا لفعلمتم فعلنا » ، وأن هذا الفصل كان طويلا مسرفا فى الطول إلى حد أنه ملا تسع عشرة صفحة من صفحات « سلافة النديم » ، وهو كتاب من القطع الكبير .

أفجد فى الصحف الحديثة مهما كان لونها مقالا صحفيا يبلغ هذا الطول ؟ . كلا . . بل إن هذا المقال الذى كتبه النديم ليس إلا فصلا أو بحثا أو خطبة من الخطب الطويلة ، التى كان يقضى فى إلقائها على مسامع الجمهور ساعات طويلة ، لا يعمل فى أثنائها الجمهور من استماعه .

وقد اتفقنا على أن المقال الصحفى ليس بحثا ولا فصلا من كتاب ، ولا موضوعا من موضوعات الإنشاء ، ولا خطبة من الخطب السياسية أو الدينية أو الاجتماعية .

وإذن فلا بد أن يكون طول المقال على يد النديم عيبا صحفيا ؛ كالعيب الذى ظهر على يد الطبقة التى سبقته إلى ميدان الصحافة . ونعنى بهذا طبقة الشيخ رفاة .

الحق أن المقال الصحفى على عهد النديم وصاحبيه أديب إسحاق ومحمد عبده إنما بلغ طور الصبا ، ولم يتجاوز بعد دور الشباب إلا بقليل ، وليست هذه الطبقة الثانية هى التى تمثل الشباب بالمعنى الصحيح ، وإنما تمثل طبقات من الصحفيين توالى على مصر تباعا منذ ذلك الحين ، وذلك إذن هو التطور الطبيعى للصحافة ، والتدرج المعقول فى نموها ونضجها ومن الإسراف فى القول أن نظفر بالصحافة ، أو نزعم لها النضوج دفعة واحدة .

فقول هذا القول ونحن لانمط فضل هذه المدرسة الثانية من مدارس الصحافة كما قدمنا ، ولا نبخسها حقها كما رأيت .



وخلاصة الرأي في هؤلاء الثلاثة الذين اشتمل عليهم البحث أن ( أديباً ) غلبت عليه صفة الأديب ، في حين أن النديم غلبت عليه صفة الخطيب أو النديم ، وأن محمد عبده غلبت عليه صفة المعلم .

حقاً كان أديب إسحاق أدناهم جميعاً إلى الأدب ، وكان أكثرهم لطفاً في الحسن ، وحدة في المزاج ، واضطراباً في الأعصاب ، ولقد خلقت منه هذه الظروف أديباً ممتازاً ، بمعنى بعبارة ، ويتخير لها الألفاظ القوية الإيحاء ، والجرس الذي يملؤها أنغاماً موسيقية تتلاءم وحدة مزاجه واقفالاته . فإذا أتى أديب إسحاق بصورة من الصور الكتابية عنى بها عناية تامة ، وأخرج منها للقارىء لوحة من لوحات الفن ، تنقل إليه جميع المعاني التي أرادها الكاتب . وهنا يحسن أن أجيل القارىء إلى المقالات التي كتبها أديب إسحاق - وهو في باريس - بعنوان ( نفثة مصدور ) وفي بعضها يقول مخاطباً المصريين :

يا قوم ، ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير مشكورين فها كنتم غير مأسوف عليكم الخ . وفي هذا المقال أنى الكاتب بهذه الصورة التي لا تستطيع لوحة رسام ماهر أن تأتى بأجود منها ، وهى قوله يصف خوف المصرى من جور حاكمه الذى د يشد رجله بيده ، ويده بعنقه ، وعنقه بالقيد ، وقيدته بتد السجن ، إلى مثال هذه الصورة التي تزعج كل الإزعاج في مواطن الإزعاج ، وتبعث البهجة والسرور في مواطن البهجة والسرور ، وهكذا .

وأما الأستاذ الإمام فرجل تغلب عليه صفة المصلح الدينى والمصلح الاجتماعى ، كما تغلب عليه صفة العالم الذى يحرص على أن يلتقى بالتلاميذ ، ويمجد فى نفسه سروراً عظيماً بإلقاء دروسه عليهم . ومن ثم جاءت مقالاته وخاصة فى الدور الأخير منها - أدنى إلى الصحافة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة : ألفاظ سهلة فى موضع التعليم ، جولة فى موضع الإنارة ، قليل الاكتراث بالريئة اللفظية أو المعنوية ، ضعيف العناية بالاستشهاد من القرآن أو الحديث أو الأشعار أو الخطب ونحو ذلك .

وأما السيد عبد الله النديم فالخطابة هى كل صفاته ، وأظهر سماته ، والمسيطرة عليه من جميع جوانبه ؛ لا يستطيع إفلاتا منها ، ولا يملك فسكا كاعتها ، فإذا ( م ١٤ - أدب المقالة ج ٢ )

كتب مقالاً صحفياً نسي أنه يكتب في صحيفة ، وساقه الطبع إلى الكلام ، فأطال فيه ، حتى لكأنه يخطب في جمع حافل ، وتستغرق خطبته ساعات متواصلة .  
وبريد الناقد الصحفي أن يلخص رأيه في المدرستين الصحفيتين فيرى بينهما فرقا من حيث الخبر ، وفرقا من حيث المقال .

فأما الفرق بينهما من حيث الخبر الصحفي فالظاهر أن عناية المدرسة الأولى بالأخبار كانت أكبر من عناية المدرسة الثانية بها ، على حين أن عناية المدرسة الثانية بالمقال كانت أشد وأعظم من عناية المدرسة الأولى به . وأكثر من ذلك أن المدرسة الأولى إنما شهدت ميلاد المقال الصحفي ، واقتربت بها المحاولات الأولى لكتابة المقال الذي لم ينضج بعد .

وأما المدرسة الثانية فقد خطت بالمقال خطوات واسعة موفقة ، وبلغ الأمر عند بعض الصحف أنها كانت تخرج الأعداد تلو الأعداد بحيث لا يشمل الواحد منها أكثر من مقال واحد يملأ صفحات العدد من أوله إلى آخره .

غير أن ذلك عيب من عيوب الصحافة كما قلنا . والحقيقة أن هذه المدرسة الثانية من المدارس الصحفية في مصر — وإن خطت بالمقال الصحفي هذه الخطوات الموفقة على هذا النحو — إلا أنها لم تستطيع أن ترسم في ذهنها صورة صحيحة للمقال الصحفي كما يفهم من هذه الكلمة عند إطلاقها اليوم .

وقد سبق أن أحلت القارىء إلى فصل من فصول « مستقبل الصحافة في مصر » عنوان « لغة الأدب ولغة الصحافة » . وفي هذا الفصل أوضحت الكثير بين اللغتين ، وهو كالفرق بين الملابس التي يرتديها الناس في حياتهم اليومية ، والملابس التي يرتدونها في المناسبات الخاصة ، مثل مناسبة عرس أو حفل من الحفلات الرسمية أو الدورية . فالملابس الأولى تمثل اللغة التي تكتب بها المقالة الصحفية ، والملابس الأخيرة تمثل اللغة التي يكتب بها الأدب البحث .

فهل أدرك تلاميذ المدرسة الثانية هذا الفرق ؟

الجواب عن ذلك أنهم أدركوه إدراكاً جيداً ولكنهم في تطبيقهم هذا الإدراك الجيد قطعوا مرحلة واحدة فقط ، هي المرحلة التي مهدت لظهور المدرسة الثالثة . تلك المدرسة التي سنتحدث عنها ابتداء من الكلام عن السيد علي يوسف

في صحيفة المؤيد . أو بعبارة أخرى ابتداء من ظهور الصحافة اليومية في مصر ،  
وهي الصحافة التي حلت محل الصحافة الدورية كاتجمات لنا بوضوح على يد المدرسة  
الصحفية الثانية التي يدور حولها هذا البحث .

ومعنى ذلك أن نوع الصحافة التي مارسها رجال المدرستين السابقتين نحكم  
في اللغة المستخدمة فيها ، ونحن نعلم أن صحافة المدرسة الثانية كانت دورية ، وأن  
صحافة المدرسة الثالثة كانت يومية . فكان من الطبيعي أن تتاح لتلاميذ المدرسة  
الثانية من الوقت والإجادة ما لم يتح لتلاميذ المدرسة الثالثة .

( وبعد ) فهذا حديث عن ثلاثة فقط من تلاميذ المدرسة الصحفية الثانية  
في مصر . وليس معنى ذلك أن هؤلاء الثلاثة لم يكن لهم نظراء في عصرهم . كلا ،  
بل إن مصر في ذلك العصر كانت تنعم بطائفة كبيرة من الصحفيين الممتازين ،  
وليس فيهم إلا من هو خليق بأن يذكر ويدرس على النحو الذي مضينا فيه .  
واقدر كنا نود أن يشتمل هذا البحث على مجموعة أخرى من تلاميذ هذه المدرسة  
عدا الثلاثة الذين عرضنا لهم في هذا البحث ، ولكننا آثرنا أن نكتفي بهؤلاء  
الثلاثة مؤقتاً ، وأن نخص رجلاً من رجال هذه المدرسة الثانية بجزء من أجراء  
هذه السلسلة . وهذا الرجل هو إبراهيم المويلحي الذي طفر بالطريقة الأدبية إلى  
الغاية القصوى .

ونظرنا نحن فلم نجد من العلماء والمؤرخين من يكتب عن المويلحي الكبيرة  
كتابة وافية إلى اليوم ، فاتهزنا هذه الفرصة لنؤدي واجبنا نحو تاريخ الأدب  
والصحافة في مصر من هذه الناحية .

تم الجزء الثاني وبليه الجزء الثالث وموضوعه  
الكلام عن إبراهيم المويلحي وجريدة مصباح الشرق

## محتويات الكتاب

صفحة

٣	مقدمة
٩	الفصل الأول : ظروف عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية
٩	حركة التنوير
١٢	حركة الدستور
١٤	حركة المقاومة
١٨	الفصل الثاني : حياة أديب إسحاق ( ١٨٥٦ - ١٨٨٥ )
٣٣	الفصل الثالث : أسلوب أديب إسحاق
٣٤	جريدة التقدم
٣٧	جريدة مصر
٤٣	جريدة مصر القاهرة
٤٧	نقطة مصدور
٥٦	خصائص الأسلوب عند أديب إسحاق
٦٣	الفصل الرابع : حياة الشيخ محمد عبده : ١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ
	١٨٤٩ - ١٩٠٥ م
٦٤	سيرة الأستاذ الإمام
٦٥	مع جمال الدين الأفغاني
	المعلم الثاني والعقدة التركيبية ( ٦٦ ) مواهب العقلية
	والنفسية ( ٦٧ ) الموهبة الأولى أو العقلية التطورية
	( ٦٨ ) الموهبة الثانية أو طبيعة المعلم ( ٦٨ ) الموهبة الثالثة
	أو شجاعة الشيخ النفسية ( ٦٩ )
٧٢	دعوة الأستاذ الإمام إلى الإصلاح

صفحة

٨١	الفصل الخامس : أسلوب محمد عبده : . . . . .
	المرحلة الأولى (٨٢) النموذج الأول — في تقييد الأهرام
	(٨٣) المرحلة الثانية (٨٦) خطأ العقلاء (٨٨) المرحلة الثالثة
	(٩٢) برنامج العروة الوثقى (٩٣) القضاء والقدر (٩٩)
	المرحلة الرابعة (١٠٣) العلم الأم للأمة (١٠٤) الرسائل
	الاخوانية (١٠٩)
١١٥	الفصل السادس : حياة عبد الله النديم : . . . . .
	١٢٦١ — ١٣١٤ هـ
	١٨٤٥ — ١٨٩٦ م
١٣٢	الفصل السابع : الأسلوب الأدبي للنديم . . . . .
	حدثنا أحمد سمير في ترجمة حياة النديم قال (١٣٢) ثم قال
	أحمد سمير (١٣٣) نار الغدو وتار العدو (١٣٤) لواء
	النصر في أدباء العصر (١٣٧)
١٤٠	الفصل الثامن : جريدة التنكيك والتبكيك . . . . .
١٤١	مجلس طبي على مصاب بالآفرنجي . . . . .
١٤٦	محتاج جاهل في يد محتال طامع . . . . .
١٤٩	سهرة الانقطاع . . . . .
١٤٩	عربي تفرنج . . . . .
١٥٠	إضاعة اللغات تسليم للذات . . . . .
١٥١	هف طلع النهار . . . . .
١٥٢	تخريفه خذ من عبد الله واتكل على الله . . . . .
١٥٦	الفصل التاسع : الطائف . . . . .
١٥٦	سلب الأملاك من الملاك . . . . .
١٥٩	المعممة الثانية ( إن جندنا لهم الغالبون ) . . . . .

صفحة

١٦١	المعمعة الثالثة (وها نريهم من آية إلهي أكبر من أختها)
١٦٤	حالتنا مع الإنجليز
١٦٨	الفصل العاشر : جريدة الأستاذ
١٧٠	تربية الأبناء
١٧٣	هذا عنكم فما مقابله عندنا
١٧٦	الفصل الحادى عشر : قضية الشرق والغرب فى صحيفة الأستاذ
١٧٦	حرب الأقالام بجيوش الأوهام
١٧٧	لو كنتم مثلنا لعلتم فعلنا
١٨٧	تحليل المقال
١٩٣	الفصل الثانى عشر : الخصائص العامة للأسلوب الصحفى عند النديم
٢٠١	الخاتمة : فى الطابع العامة للمقالة الصحفية
٢١٣	عند تلاميذ المدرسة الثانية فى مصر
٢١٣	محتويات الكتاب
٢١٦	للمؤلف

## للمؤلف

٥٠	١ - أدب المقالة الصحفية	الجزء الأول
٥٠	٢ -	د الثاني
٣٠	٣ -	د الثالث
٤٠	٤ -	د الرابع
٤٠	٥ -	د الخامس
٤٠	٦ -	د السادس
٥٠	٧ -	د السابع
٧٠	٨ -	د الثامن
٨٠	٩ - المدخل في فن التحرير الصحفي ( الطبعة الثالثة )	
٤٠	١٠ - مستقبل الصحافة - الأدب والصحافة	
٥٠	١١ - أزمة الضمير الصحفي	
٤٠	١٢ - الإعلام له تاريخ ومذاهب	
٣٥	١٣ - أخبار الشرق الأوسط بالاشتراك مع الدكتور وليم الميرى	

---

وتطلب جميعها من ملزم طبعا ونشرها

دار الفكر العربي

١١ شارع جوا دحسني ( طلعت حرب سابقا ) بالقاهرة

تليفون : ٥٦٤٦٧ - صندوق بريد : ١٣٠

---